السخرية في أدب الجاحظ

السيد عبد الحليم محمد حسين

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

الطبعة الاولى

1397 و. ر - 1988 م

رقم الايداع : 1987/431

مركز التوثيق الجماهيري / طرابلس

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

ص.ب 17459 - مبرق (تيلكس) 30098 مطبوعات

المقدّمة

للبشر في مواجهة مواقف الحياة أساليب شتى ومواقف عدة ، فنحن نرى البعض يواجهها بشجاعة ، وغيرهم يهرب منها بلباقة . وقد يواجهها البعض بشيء من الجدّ ، يكثر أو يقل تبعاً لأهمية المشكلة ، أو الموقف الذي يواجهه ، وقد تكون المواجهة ببعض الهزل ، أو بقليل من السخر ، أو بابتسامة مرحة تحمل الرضا والتفاؤل ، تخفف من وطأة الموقف أو تمحو أثره تماماً .

وقد يسقط الإنسان في هوة اليأس والقنوط إزاء مواقف الحياة ومشاكلها الصعبة ، ولكن تلك صفة المتبرم بالحياة الراغب عنها .

والوقوف أمام المشاكل بالصرامة والعنف من عادة الفظ الخشن ، الذي لا يأبه بالناس ، ولا يكترث بدوام صحبتهم .

أما الانسحاب من الموقف أو المشكلة في ذلّ وانكسار ، فتلك سمة الخائر الرعديد الذي لا يجرؤ على المواجهة ، ويفرق من المجابهة .

أما أولئك الذين يلجؤون إلى الضرب والقتل ، معتمدين على قواهم العضلية والبدنية ، فذلك شأن من لم ينل حظاً من التعليم ، أو قسطاً من العقل والتدبير ، فيندفع جسمه سابقاً ومضات فكره .

فإذا ما استعرضنا حال فريق آخر يواجه المصاعب بالضحك والابتسام ، والسخرية والتعريض ، فإنّا نجد ذلك طبيعة المتعلم المتأدب ، الناضج الفكر ، الواسع الحيلة ، الذي يدرك باللين ، والضحك والابتسام والسخرية والتعريض . .

أكثر مما يناله غيره بالعنف والقسوة، فيزيل مشكلاته ويقتل خصمه، وهو مطمئن النفس ، مستريح البـال ، فيضحك مـلء شدقيـه ويمرح حشـو إهابـه ويتلهى بقتيله المتخبط في دمه ، ويسلي رُوحه بمنظره ، وقد أمن أن يؤخذ بجريرته ، أو يحـاسب على قتلته .

وكـذلـك كـان « أبـو عثمـان عمـرو بن بحـر الجـاحظ » يعـالـج المشكـلات بالضحك ، ويجابه المواقف بالسخر ، ويواجه الخصوم بالهزء والاستخفاف .

لم يكن يوماً متبرماً بالحياة أو ساخطاً عليها ، بل كان ـ دوماً ـ مرحاً متفـائلاً ، يحب الحياة بكل ما فيها ، وإن تصـالحت على جسمه الأضـداد ، أو تظاهرت على نفسه حوادث الزمان . . لم يكن خشناً فظاً ، وإنما كان ليناً سهلاً ، ولم يكن خـائراً جباناً ، بل كان جريئاً مقداماً ، ينقد ما لا يروقه ، ويتناول بلسانه الحاد من حاد ، ولو كان أستاذه .

اتخذ الطريق اللين في التقريع والتقويم ، طريق السخرية والإضحاك ، وأحب من اتخـذوه لهم طريقـاً ، وروى سخريـاته وسخـرياتهم في مـواجهة المـواقف التي اعترضتهم .

كما تفنن في الأجوبة المسكتة ، والتخلص الذكي ، واستبطان أسرار النفوس ، مستخدماً السخر اللاذع ، والفكاهة المرحة ، والطرائف المسلية ، ليدفع عن نفوسنا عبء الحياة الثقيلة .

من هنا كان اختياري للجاحظ ، ولموضوع رسالتي هذه :

* * *

« السخرية في أدب الجاحظ » :

ولقد كان « الجاحظ » عالماً محيطاً بمعارف عصره ، وإماماً من أئمة الكلام ، وزعيماً من زعماء المعتزلة ، وراوية من رواة اللغة وآدابها ، وأديباً يكتب عن رهافة في الحسّ وخصـوبة في الخيـال وقوة في المـلاحظة ، ودقـة في الإدراك ، وقـدرة على التغلغل في دقائق الموجودات ، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة ، وتمكن من

العبارة الحية النابضة ، والتصوير الكاشف البارع ، الذي يبرز الصورة بشتى ملامحها وظلالها في بساطة ، ودقة ، وجمال »[1].

كما جعل « الجاحظ » المزاح شعبة من شعب السهولة ، وفرعاً من فروع الطلاقة ، صور ذلك فقال : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المرّ ، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل »[2] . ودافع عن المزاح فقال : « ولو استعمل الناس الرصانة في كل حال ، والجد في كل مقال . . . لكان السّفه الصراح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه » .

ولقد كان ـ في سخرياته ـ يعتمد على إبراز الصورة كما يراها الرائي ، وكما يرسمها المصور الماهر ، فكان يخرجها لوحات فنية بارعة ، لا يغادر من مقوماتها شيئاً ، في دقة ملاحظة ، وخصوبة خيال ، لا تكلف فيها ولا تصنع ولا مبالغة ، مستشفاً الحركات الشعورية ، متغلغلاً في الخفايا النفسية ، مستبطناً للإحساسات الخفية ، ملاحظاً الصلة بينها وبين الحركات الظاهرية ، من أجل هذا ، كانت سخرياته جديرة بالبحث والدراسة ، والتعمق والتمحيص .

والإنسان ، مذ خلق يميل إلى المرح والمزاح والتندر ، ولكن خلط الجد بالهزل في قالب علمي ، أو أدبي ، لم يعرف قبل الجاحظ بهذا التحليل الدقيق والتصوير البارع ، وتعد هذه الطريقة من مبتكراته : « فهو منظم شؤونها ، ومطرز نصوصها ومتونها »[3] .

* * *

ولست أدّعي أنّ هذه المحاولة الأولى لدراسة « السخرية في أدب الجاحظ » وإنما

---

(1) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري (مقدمة محقق الكتاب) ص 18 .

(2) رسالة في النساء ، مجموعة رسائل الجاحظ « للسندوبي » ص 66 .

(3) محمد كرد علي : أمراء البيان ، ص 456.

يمكنني القول بأنها أول محاولة لإبراز فنية « الجاحظ » في سخره ، وذلك عن طريق الموازنة بينه وبين من سبقه من أدباء العربية في هذا المجال ، ومن ثم فإن دراستنا هذا الموضوع ـ على هذا النحو ـ لم تكن تكريراً لتلك الدراسات التي تهدف فقط إلى مجرد عرض السخريات عند « الجاحظ » دون قصد مباشر أو غير مباشر إلى بيان فنيتها ، وإبراز ميزتها.

ولقد اعتمدت ، في دراستي هذا الموضوع ، على طائفة غير قليلة من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، المخطوطة والمطبوعة (وقد سردت ، في ذيل هذا البحث ، تلك المصادر ، وهذه المراجع مرتبة حسب الحروف الأبجدية) .

ولما كان هدفي الأساسي من هذه الدراسة ـ كما ذكرت فيما سبق ـ دراسة سخريات « الجاحظ » مع تبيين مكانتها وإبراز فنيتها ، في موازنة بينها وبين من سبق «الجاحظ» من أدباء العربية بينت أثر «الجاحظ» وسخرياته فيمن أتى بعده من الكتّاب والأدباء .

وكان لا بد من تتبع مسيرة السخرية في الأدب العربي قبل ، وبعد « الجاحظ » ، حتى أستطيع ، في النهاية أن أحدد ، في طمأنينة علمية القيمة الفنية لسخريات « الجاحظ » الأدبية ، ومن ثم كان المنهج الطبيعي لدراسة هذا الموضوع ، أن يطرح في ثلاثة أبواب ، كل باب منها يندرج تحته ثلاثة فصول ، ثم الخاتمة ونتائج البحث :

أما الباب الأول ، فقد خصصته لدراسة عصر الجاحظ وبيئته ، وحياته وأدبه .

وفي الفصل الأول ـ من هذا الباب ـ تناولت عصر « الجاحظ » وبيئته وأثرهما في أدبه السخري ، وقد أوضحت ـ في تمهيدي لهذا الفصل ـ العلاقة بين البيئة والأديب أو الفنان ، ثم أوجزت الحديث عن طبيعة العصر العباسي ـ الذي نشأ فيه أديبنا العملاق ـ قاصداً ، من خلال ذلك إبراز تفاعل الأديب مع عصره وبيئته ومدى تأثيرهما فيه حتى غدا ـ « الجاحظ » ـ مصوراً لدقائقه ، ناقلاً ما كان يموج فيه من تناقضات ومفارقات ، سلبيات كانت أم إيجابيات ـ في بيئته العامة وبيئته الفكرية ـ في أسلوب سخري ، أو جدي مشوب بالسخر .

أما الفصل الثاني : فقد تناولت الحديث فيه عن حياة « الجاحظ » نشأته ، وعمله ، وأساتذته ، وثقافته ، وإنتاجه ، وطبعه المرح الطروب ، حتى استوى عوده ، ونما عموده ، متتبعاً مراحل حياته في إيجاز شديد ـ كما صنعت في الفصل الأول ـ حتى لا يصرفني ذلك عن موضوع بحثي : « السخرية في أدب الجاحظ » .

وأما الفصل الثالث ، فقد حاولت فيه أن أقوم بدراسة شاملة لأدبه الساخر ، ذاكراً بعض النماذج المتنوعة لأسلوبه وفنه وسخره ، محللاً لها في إيجاز ، وقد أبرزت واقعيته في أدبه حتى نقل إلينا صورة حية ـ تكاد تكون مكتملة ـ لمجتمعه البصري بل والبغدادي ، وإن شئت فقل لعصره العباسي كله .

* * *

وأما الباب الثاني ، فقد خصصته لدراسة السخرية في أدب « الجاحظ » وقد قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول أيضاً : فالفصل الأول : دراسة عن السخرية في الأدب العربي ، وقد بدأته بتمهيد عن السخرية والضَّحك ، وأبرزت فيه ألواناً من السخرية وكانت خطتي فيه على هذا النحو :

1 ـ فكاهات الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) .
2 ـ مزح الصحابة والتابعين .
3 ـ سخريات الأدباء والأعراب حتى عصر الجاحظ .
4 ـ « الجاحظ » يجعل من السخرية فناً أدبياً .
5 ـ أثر السخرية « الجاحظية » في الأدب العربي (من لدن عصر الجاحظ حتى العصر الحديث) .

والفصل الثاني : حللت فيه عوامل نبوغ الجاحظ في الأدب الساخر ، وكان منها :

1 ـ الوراثة .
2 ـ المجتمع والبيئة .
3 ـ التكوين الشخصي :
(أ) مزاجه وطبعه .
(ب) دمامة خلقته وقبح هيئته .

والفصل الثالث : تناولت فيه موضوعات السخرية في أدب الجاحظ ، وكان منها :

1 ـ العيوب الجسمية والمظهرية .

2 ـ غرابة الطباع والأخلاق ، وأبرزها :

(أ) البخل .

(ب) النفاق .

(جـ) الجحود ونكران الجميل.

(د) التطفيل .

(هـ) البلادة والإهمال .

(و) الكذب والمبالغة والادعاء .

(ز) الخوف والجبن .

3 ـ القصور العقلي (الحمق ، الجهل ، الغفلة ، الخرافات ، الأباطيل ، التناقض . .)

4 ـ التحايل والخداع .

5 ـ التلاعب بالألفاظ .

6 ـ الهزل على طريقة أسلوب الحكيم .

* * *

وأما الباب الثالث : فقد خصصته لرسالة « التربيع والتدوير » كـ (تصوير أدبي لنموذج إنساني) . وقد قسمت هذا الباب كذلك إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حاولت فيه توضيح الدافع إلى تأليف رسالة : « التربيع والتدوير » ، التي صور فيها « أحمد بن عبد الوهاب » تصويراً ساخراً فريداً .

والفصل الثاني : بينت فيه (حقيقة) «أحمد بن عبد الوهاب» .

والفصل الثالث: عرضت فيه « أحمد بن عبد الوهاب » (النموذج الإنساني) كما صورته عبقرية « الجاحظ » الفنية ، وقد أبرزت تناوله له من خلال الجوانب التالية :

1 ـ العبث بتفاصيل جسمه .
2 ـ مجاوزته حدود الكمال .
3 ـ مقارنته بالمشاهير .
4 ـ تجسيد عيوبه .
5 ـ موازنته بالجاحظ .
6 ـ قلب حقيقته .
7 ـ إفحامه بالأسئلة .

ولقد بيّنت أثناء تحليل هذه الرسالة الفريدة التي ارتقت بفن السخر وأطلعتنا على جوانب عديدة له ـ بينت كيف صور « أبو عثمان » شخصية واقعية تصويراً « كاريكاتورياً » ساخراً بارعاً .

وأخيراً أنهيت الرسالة بذكر آراء بعض الأدباء والنقّاد البارزين في الرسالة وتوضيح أثرها في أدب « ابن زيدون » ـ في رسالته الهزلية ـ ، « وبديع الزمان الهمذاني » ، في مقاماته (كنموذجين) .

* * *

وبانتهاء الباب الثالث نصل إلى الخاتمة ونتائج البحث ، ليبرز ، شامخاً « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » إماماً في فن الأدب الساخر ، ورائداً عظيماً من روّاد هذا الفن .

واللّه ـ تعالى ـ نسأل أن يوفقنا إلى بلوغ الغاية التي استهدفناها من ورائه ، فاللّه هو الموفق وهو المستعان ، وعليه التكلان .

السيد عبد الحليم محمد حسين

الباب الأول

"الجاحظ"، عصره وبيئته
حياته وثقافته، أدبه

الفصل الأول : عصره وبيئته ،
وأثرهما في أدبه الساحر .
الفصل الثاني : حياته وثقافته .
الفصل الثالث : أدبه .

الفصل الأول

عصره وبيئته، وأثرهما في أدبه الساخر

تصنع البيئة الأديب والفنان ، وتمدهما بالأسباب التي تجعلهما قادرين على أن يبدعا في عملهما من جهة ، ويطوراه من جهة أخرى .

ولا يعني هذا أن العلاقة بين الأديب ـ أو الفنان ـ علاقة إيجابية في كل الأحوال ، فقد يقف الأديب ـ والأديب فنان في مجاله ـ مناقضاً لظروف بيئته الاجتماعية والسياسية فيُخرج من ظروف التفسخ والانحلال أدباً ذا دلالة مستقبلية .

وتبين العلاقة بين ظروف البيئة والألوان المبدعة تحت تأثيرها ـ العلاقة الموضوعية ـ أمر هام جداً في تحديد نوعية الصلة بين الأديب ومجتمعه :

ولقد أدرك « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » بنفاذ لا حد له الكيفية التي يتفاعل بها الأديب مع الواقع الملموس ، حين يريد أن يصور ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، من خلال نموذج إنساني جاء في « حكاية أبي القاسم البغدادي » . قال أبو عثمان « الجاحظ » في فصل من كلامه : « وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن ، مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته المغربي والخراساني والأهوازي ، والسندي ، والزنجي ـ نعم ، حتى تجده أطبع منهم فأما إذا حكى كلام (الفأفأة) ، فكأنما جمع كل طُرَفِه في كلام كل فأفاء في الأرض على لسان واحد ، كما أنك تجده يحاكي الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه ، لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأن هذا الحاكي قد جمع ما هو مفترق فيهم ، وحصر جميع طُرف حكايات العميان في أعمى واحد»[1] .

---

(1) حكاية أبي القاسم البغدادي : أبو المطهر الأزدي ص 1 مطبعة المثنى بالعراق ط 7 والبيان والتبيين جـ 1 ص 69.

وكلام « الجاحظ » هذا يكشف لنا عن حقيقة هامة ، وهي أن وجود العلاقة الموضوعية بين الأديب (أو الفنان) والمجتمع لا يعني أن ظواهر المجتمع ، التي يتناولها الأديب ، تكون مماثلة لما في الواقع الحقيقي ، لأن غاية الأديب أو الفنان أن تكون نماذج نابضة بالحياة ، ولا يتم ذلك إلَّا بشيء من التجسيم الفني . وقد أشار الدكتور « محمد غنيمي هلال »(2) ـ في هذا الصدد ـ إلى أن : « النموذج الإنساني في الأدب يقصد به تقديم صورة متكاملة الأبعاد لشخصية أدبية بحيث تتمثل فيها مجموعة من الفضائل أو النقائص كانت متفرقة من قبل في عالم التجريد أو في مختلف الأشخاص ، وليس لهذا النموذج قيمة فنية إلَّا حين يستطيع الكاتب أن يجعل منه مثالاً ينبض بالحياة ، من ثنايا التصوير الفني ، حتى يظهر أغنى في نواحيه النفسية ، وأجمل في التصوير ، وأوضح في معالمه مما نرى في المجتمع . وهذا النموذج الفني ـ في كل حالاته ـ أكثر إقناعاً ، وأعمق وأكمل مصيراً من نظائره في الطبيعة »(3) .

ولكي يصبح الأديب قادراً على إبداع مثل هذه النماذج ، عليه أن يعايشها ، ويتفهم ظروفها ، ومشاكلها ، وتصرفاتها ، ولا يتأتى ذلك بغير الاتصال المباشر بالبيئة .

وبإلقاء نظرة على الواقع المعقد الذي آل إليه المجتمع الإسلامي ، بعد قيام الدولة العباسية ، والذي عاش فيه أديبنا ـ « الجاحظ » ـ وتأثر به غاية التأثر ، نستطيع أن نستكشف الجوانب الهامة التي من خلالها صار « الجاحظ » أستاذ التهكم والسخر ، والهزء والدعابة .

* * *

قامت الدولة العباسية (سنة 132هـ) على أنقاض الدولة الأموية(4) ، التي

---

(2) أستاذ النقد والأدب المقارن بجامعة القاهرة من آثاره (رحمه اللَّه) الأدب المقارن (1953م) والنقد الأدبي الحديث (1963م) .

(3) النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة : د. محمد غنيمي هلال ص 8 وفن المقامات : د . يوسف نور عوض ص 14 بيروت دار القلم طبعة أولى 79م .

(4) الدولة الأموية (41 - 132هـ = 661 - 750م) ، والدولة العباسية (العصر العباسي الأول : 132 - 232هـ = 750 - 847م ، والعصر العباسي الثاني : 232 - 656هـ = 847 - 1258م) .

استنفدت قواها في مقاومة الفتن والمؤامرات : « فبينما كان دعاة الشيعة[5] مشغولين ـ بصورة فعالة ـ في كسب التأييد لحزبهم ، الذي وجد في « علي »[6] وذريته الخلفاء الشرعيين الوحيدين للنبي « محمد » (عليه الصلاة والسلام)[7] ـ فإن فرعاً آخر من آل النبي (ﷺ)، وهم العباسيون، دخل الميدان وهو يضمر قلب أعمال العلويين لصالحه ، وقد ورثوا عن جدهم الأعلى ـ « العباس »[8] ـ عم النبي (صلى اللّه عليه وسلم) صفات الحذر ، والظهور بمظهر الدين والحكمة الدنيوية ، وهي الصفات التي تضمن النجاح في التآمر السياسي »[9].

وبهزيمة جيش « مروان بن محمد »[10] في معركة « الزاب »[11] (سنة 132هـ) بويع « أبو العباس »[12] ، بالخلافة ، وهو أول خليفة في البيت العباسي وكان العباسيون قد رفعوا شعار « هاشم »[13] أثناء ثورتهم على الأمويين ، ليجمعوا أفراد البيت الهاشمي من الشيعة والعلويين[14] ، في نقمتهم على بني أمية ، فلما آل الأمر

---

(5) الشيعة هم القائلون بأولوية آل البيت بالخلافة ، وأحق آل البيت هو الإمام « علي » (كرّم اللّه وجهه) وهم أقدم الفرق الإسلامية ، إذ ظهروا بعد وفاة الرسول الكريم مباشرة ، حيث نادوا بأحقية علي بالخلافة .

(6) « علي بن أبي طالب » الخليفة الرابع ، آخر الراشدين (35 - 40هـ = 650 - 661م) .

(7) « محمد بن عبد اللّه »ﷺ نبي الإسلام ، وخاتم الأنبياء والمرسلين (20 أبريل 571 م/ عام الفيل ـ 8 يونيو 632م الموافق 13 ربيع الأول 11هـ).

(8) « العباس بن عبد المطلب » ، عم النبي ﷺ صحابي جليل منزه عما ادعاه فيه المستشرق «نيكلسون».

(9) نيكلسون : تاريخ الأدب العربي جـ 2 ص 17 ، ترجمة د. صفاء خلوصي ، منشورات المكتبة الأهلية ببغداد .

(10) مروان بن محمد (مروان الثاني) آخر خلفاء بني أمية (127 - 132هـ) .

(11) « الزاب » : نهر دارت عنده معركة فاصلة (132هـ) انتهت بالقضاء على « مروان بن محمد » على يد العباسيين ، والقضاء على الخلافة الأموية .

(12) أبو العباس السفاح ، أول الخلفاء العباسيين (132 - 136هـ = 750 - 755م) .

(13) « هاشم » : جد العلويين والعباسيين . وقد عقد في الحجاز ، في أواخر العصر الأموي مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين وناقشوا فيه الوسائل التي تؤدي إلى القضاء على الخلافة الأموية ، بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين . . . ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم ، فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين ، وهو « محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن أبي طالب » (المعروف بالنفس الزكية) ، ولكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوي ، بل أسندت إلى رجل من العباسيين هو « أبو العباس » (د . علي إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي العام ، مكتبة النهضة المصرية ، بلا تاريخ) .

(14) العلويون : هم كل من ينتمي إلى « علي بن أبي طالب » ، الخليفة الراشد الرابع ، وهؤلاء اعتبروا أنفسهم أحق بالخلافة من الأمويين ، وبدأوا ـ منذ قتل « الحسين بن علي » ـ يتذرعون إلى نيل حقوقهم بكل وسيلة (د . علي إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي العام مكتبة النهضة المصرية ، بلا تاريخ) .

إليهم سرعان ما تفطن الشيعة لاستغلال بني العباس لهم ، فتصدوا لنحكم في ثورات متعاقبة أيام « االمنصور »[15] و « الرشيد »[16] وظهرت حركات متطرفة اتخذت المذهب الشيعي أساساً لها ، كحركة « القرامطة »[17] ، و « الزنج »[18] ، و « الحشاشين »[19] وغيرهم[20] مما أدى إلى قيام معارك طاحنة أدت إلى إجهاد الفريقين وقد منح العباسيون الفرس[21] أعلى المناصب في الدولة فكان منهم الوزراء والقواد غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية فكان العداء شديداً بين الفرس والعرب مما أدى لظهور تيار شعوبي[22] رافقه تيار إلحاد وزندقة .

---

(15) المنصور : أبو جعفر المنصور ، ثاني خلفاء الدولة العباسية ، ويعتبر عصره من أهم عصور الخلافة العباسية (136 - 158هـ = 754 - 775م) .

(16) الرشيد : « هارون الرشيد » الشخصية الثانية البارزة في العصر العباسي بعد « أبي جعفر المنصور » (170 - 193هـ = 786 - 809م) .

(17) القرامطة : فرقة من الباطنية متطرفة ، ثارت بالخلافة العباسية ردحاً ، وبسطت نفوذها على أجزاء من الجزيرة العربية والعراق والشام .

(18) الزنج : يبلغون ألوفاً وكلهم يعملون في كسح السباخ والزراعة يجلبون من شرق أفريقيا التفوا حول رجل فارسي في (ورزنين) قرية من قرى الري بإيران . وقد زعم أنه من بني عبد القيس ونشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجري ترك البحرين إلى البصرة سنة 254هـ وأخذ ينشر آراءه فيها ومنها انتقل إلى بغداد ثم استثار الزنج فتجمعوا حوله وادعى أنه يوحى إليه وأن العناية الإلّهية بعثته لإنقاذ الزنج من جور الملاك الظالمين وأشاع أن اسمه « علي بن محمد » ووصل نسبه بإمام الزيدية « زيد بن علي زين العابدين » حتى يثبت حقه الشرعي في الثورة ضد الخلافة العباسية وهو نسب مكذوب لأنه فارسي وغدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين وكان يعتنق آراء الازارقة من الخوارج إذ كان يستحل مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم وكان يرى رأيهم في أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغي قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية وهاجر بأتباعه إلى سبخة بمآخير أنهار البصرة تسمى سبخة أبي قرة فأقام فيها وبث الزنج والسود يغير بهم على القرى وينهب الأموال والدواب وقد اتخذ مدينة سماها (المختارة) بنى فيها دوراً حصينة له ، ولأتباعه وكثرت إغاراته على البصرة فاستغاث أهلها بالخليفة وصار يضم البلاد إليه ولكن الخليفة (المعتمد) تولى منازلته حيث عقد لأخيه (الموفق) أمر محاربته وتصدى له وهزمه هزيمة ساحقة في معارك متتالية حتى اقتحم عليه مدينته (المختارة) وقتله في صفر سنة 240هـ ويقال : إنه ذهب ضحية ثورة الزنج نحو مليون ونصف (يراجع العصر العباسي الثاني د. شوقي ضيف ـ مطبعة دار المعارف بمصر) .

(19) الحشاشون : فرقة باطنية ثارت ضد الخلافة العباسية ولكنها قمعت .

(20) الطبري : تاريخ الأمم والملوك أحداث عام 251هـ.

(21) الفرس من الشعوب التي لها حضارتها المتميزة وقد بدأ الصراع بين المسلمين والفرس منذ عهد أبي بكر رضي اللّه عنه وانتهى ذلك الصراع بانتصار المسلمين في موقعة « نهاوند » 21هـ والقضاء على حكم الأكاسرة وصارت فارس ولاية عربية .

(22) الشعوبية : كلمة تطلق على الروح الإنفصالية التي سادت الشعوب القديمة المتحضرة ومحاولتها الخروج على =

واستبدل « المعتصم » ـ الخليفة العباسي ـ الفرس بالترك[23] وكان ذلك تحولاً خطيراً ، إذ الفرس كانوا أصحاب مدنية وحضارة ـ بخلاف الترك الذين كانوا سكان صحار وقفار وحرب وجلاد ، وبأس ومراس صورهم الجاحظ في رسالته التي تحدث فيها عن مناقبهم ـ قائلاً : («الترك» أصحاب عمد (خيام) وسكان فياف، وأرباب مواش وهم أعراب العجم . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة ، والهندسة ، ولا غرس ولا بنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة ، والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم ، وتدويخ البلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها ، وموصولها بها ـ أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتهم ، وتجارتهم ولذتهم وفخرهم ، وحديثهم وسمرهم فلما كانوا كذلك ، صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات ، وكآل (ساسان) في الملك والرياسة)[24] .

لذلك كانوا يركبون الخيل ويركضونها في شوارع بغداد[25] فتطأ بعض الشيوخ والنساء والأطفال ، مما اضطر « المعتصم » أن يبني لهم (سامراء)[26] شمال بغداد ، وانتقل معهم إليها .

وقد بلغ تغلغلهم في الدولة ، وازداد نفوذهم ، حداً جعلهم يولون الخلفاء

= العرب المسلمين أصحاب السلطان والفرس أول الدعاة لهذه الحركة وقد وجدوا متنفساً لتحقيق مآربهم في الفتنة التي أعقبت قتل عثمان بن عفان (رضي اللّٰه عنه) .

(23) الترك : من الشعوب التي دانت بالإسلام وصارت فيما بعد مركزاً للخلافة الإسلامية (الخلافة العثمانية) .

(24) الجاحظ : مجموعة رسائل الجاحظ (أول رسالة الترك) .

(25) بغداد عاصمة العباسيين أسسها الخليفة (أبو جعفر المنصور عام 134هـ ـ 762م) وذلك مكان قرية قديمة قرب نهر (دجلة) كان اسمها بغداد (أي عطية اللّٰه) وقد أسماها المنصور أولاً مدينة السلام ولكن غلب عليها ـ فيما بعد ـ اسم بغداد وصار علماً عليها حتى الآن .

(26) « المعتصم » ثامن الخلفاء العباسيين (218 - 227هـ = 833 - 842م) .

وقد بنى الخليفة المعتصم مدينة سامراء لتكون مقراً لجنوده من الأتراك سنة 221هـ ، شرقي دجلة على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد وتبعد عنها ستين ميلاً من الشرق وأصبحت في عهده مدينة عامرة زاهرة حتى سميت (سُرّ من رأى) وظلت كذلك حتى نهاية خلافة « المعتصد » فانتابها الخراب والدمار بعد أن تقوضت معالمها عام 289هـ ومنذ ذلك الحين أطلق عليها « ساء من رأى » ثم اختصر فقيل « سامرا » (أو « سامراء ») .

العباسيين ويعزلونهم كيفما شاءوا . ومنذ مقتل الخليفة « المتوكل »[27] استولوا على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه »[28] .

وظل فساد الترك يستشري في الدولة ، إلى أن استولى البويهيون[29] على الخلافة ـ بعد خلع المستكفي بالله[30] ـ ، وَنَهْب دار الخلافة ، وسَمْل عينيه[31] ـ وزالت سلطة الترك من الحكم ـ نهائياً ـ .

وانقسمت الدولة العباسية إلى دويلات قزمية : « فالصفارية »[32] ، ثم « السامانية »[33] ، في إيران ، و « البويهية » في غرب فارس ، ثم « الغزنوية »[34] في (أفغانستان)[35] و « الحمدانية »[36] في الشام ، و « الفاطمية »[37] في (مصر) . . .

---

(27) « المتوكل » : أول خلفاء العصر العباسي الثاني ، الذي يعتبر عصر ضعف وانحلال ، إذ كان الخلفاء العباسيون ـ في ذلك العصر ـ تحت سيطرة الأتراك أولاً ، ثم بني بويه ثانياً ، ثم السلاجقة أخيراً ، وقد كانت خلافة « المتوكل » في الفترة (232 - 247هـ) .

(28) الفخري : الآداب السلطانية ص 181 المطبعة الرحمانية بمصر .

(29) البويهيون : دويلة قامت على أنقاض الدولة العباسية ، إذ استقلت عن الخلافة العباسية عام 334هـ واستمرت حتى عام 447هـ .

(30) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ 4 ص 276 . والفخري ص 212 والهمذاني ص 149 .

(31) المستكفي بالله : الخليفة الثالث عشر من خلفاء العصر العباسي الثاني (333 - 334هـ ـ 944 - 946م) .

(32) الصفارية : دويلة استقلت عن الدولة العباسية ، في فترة ضعفها وتقلص نفوذها ، قامت على يد « يعقوب بن الليث بن الصفار » (254 - 290هـ) .

(33) السامانية : دويلة استقلت عن الدولة العباسية أيضاً ، وذلك على يد « نصر أحمد بن الساماني » في بلاد ما وراء النهر (266 - 389هـ) .

(34) الغزنوية : دويلة استقلت عن الدولة العباسية حين بدأ اضمحلالها ، وقد تفرعت عن الدولة السامانية ، إذ أن « البتكين » ـ مؤسس هذه الدولة ـ كان من الموالي الأتراك في البلاط الساماني (366 - 579هـ) .

(35) أفغانستان : دولة من دول قارة آسيا ، تتاخم حدود كل من الهند وباكستان . .

(36) الحمدانية : الدولة الحمدانية ، دويلة انفصلت عن الخلافة العباسية ، قامت في شمال العراق واتخذت من « الموصل » عاصمة لها (306 - 347هـ = 929 - 991م) ، وقد خلفت في حلب آثاراً جليلة في تاريخ الحضارة الإسلامية وفي مجد المسلمين رغم قصر مدتها .

(37) الفاطمية : الدولة الفاطمية قامت في شمال أفريقية ، في ظل حركة شيعية تنتسب إلى « فاطمة » بنت النبي ﷺ ، قامت بالمغرب سنة 909م وانهارت عام 1171م (297 - 567هـ) .

ولقد كان لتشجيع النزعات الشعوبية من قبل الحكام العباسيين أثر بارز في فتح لون جديد من الحوار والجدل في المجتمع العباسي بين العناصر العربية والعناصر الفارسية ، وساعد على ظهور العناصر المثقفة والقادرة على الرأي ، وقد استفاد الخلفاء من هذه العناصر في تصريف شؤون الدولة والمنادمة .

وكانت هناك تغيرات واضحة أحدثها الفرس في المجتمع الإسلامي ، في أساليب الحياة التي أصبحت الأساس الذي قام عليه المجتمع العباسي الجديد ، وهي التي جهد « الجاحظ » في تصويرها من خلال كتاباته الساخرة .

ولقد فتحت قصور الخلفاء أبوابها لذوي النبوغ والفن والأدب وأجزلت لهم العطاء ، وكثر الظرفاء ، بل وأصبح الظرف أسلوباً واضحاً من أساليب الحياة العباسية .

ولو نظرنا إلى المجتمع العباسي لوجدناه يقوم على طبقة عليا وطبقة وسطى ، وطبقة دنيا. فالأولى تغرق في النعيم لأنها طبقة الخلفاء والوزراء، والولاة، والقواد، وكبار رجال الدولة ، والثانية تختلف أحوالهم بين الطبقتين العليا والدنيا ، فقد كان منهم الصناع ، والعلماء ، والمغنون ، والشعراء ، ورجال الجيش ، والتجار ، وموظفو الدواوين . والثالثة يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة ، والصناعات الصغيرة ، وخدمة أرباب القصور ـ والطبقتان السابقتان تتقلبان في النعيم المسلوب من هذه الطبقة البائسة ، ولا تخلفان لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء .

وكان الخلفاء والوزراء يعيشون في بذخ ، إلى درجة أن يتلف « المقتدر »[38] ـ الخليفة العباسي ـ ويبدد ثمانين مليوناً من الدنانير ، كان قد خلفها أبوه « المعتضد »[39] ، بينما يحكي المؤرخون أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً ، كأن نفقات اليوم المتوسط لا تحتاج أكثر من درهم واحد[40].

---

(38) المقتدر : الخليفة التاسع من خلفاء العصر العباسي الثاني (295 - 320هـ) ، وكان الأمر والنهي بيد أمه فخريت الدنيا في أيامه ، وخلع ثم أعيد ، ثم قُتل (ابن طباطبا الفخري ص 240) .

(39) المعتضد : الخليفة العباسي السابع من خلفاء العصر العباسي الثاني (279 - 289هـ = 890 - 902م) .

(40) مصارع العشاق : ص 159.

ويبين « الجاحظ » قيمة رأس المال للدخل المتوسط فيقول : « أما أوساطهم فقلما كان يزيد رأس أموالهم في تجاراتهم ، على ثلاثة آلاف دينار »[41] ويقول الدكتور « شوقي ضيف »[42] : « ولقد تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور ، حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى تمتلىء بالأبنية ، والأفنية ، والأساطين ، والقباب ، والبساتين ، والجداول ، والبرك ، والنافورات ، مع التألق في أبوابها ، ونوافذها ، وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور ، وتعليق الستائر الحريرية عليها ، مع ما يموج فيها من البسط ، والسجاجيد ، والطنافس والمناضد ، والتحف المرصعة بالجواهر . . »[43] .

وشاع التأنق في الملبس والثياب ، وكثرت أنواع الطيب والعطور وبالغ النساء في زينتهن وأناقتهن ، صور « الجاحظ » ذلك فقال : « إن المرأة ـ حين كانت تزوج ابنتها ـ كانت تحليها بالذهب والفضة، وتكسوها المروزي والوشي والقز والخز ، وتعلق لها المعصفر ، وتدق الطيب ، حتى تُعظّم أمرها في عين زوجها وأهله . . »[44] .

وكثرت الجواري والقينات ، في المجتمع العباسي ، وكن أدوات فتنة وإغراء ، وريبة ، ومجون وعبث ، وصف ذلك « الجاحظ » بقوله : « . . ربما اجتمع عند القينة من معشوقيها ثلاثة أو أربعة ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطي واحداً سرها ، والآخر علانيتها ، وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذي يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم ـ عند الانصراف ـ كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين ، وحرصها على الخلوة به دونهم . . . فلو

---

(41) الجاحظ : البخلاء ص 101 .

(42) الدكتور شوقي ضيف : استاذ بجامعة القاهرة ومؤرخ أدبي بارز ، من آثاره « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ، و«البلاغة تطور وتاريخ» ، و«المدارس النحوية» ، «والعصر الجاهلي» و «العصر الإسلامي» . . . الخ .

(43) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني : ص 67.

(44) « الجاحظ » : البخلاء ص 25 والمروزي : نسبة إلى مرو ويريد الجاحظ بالمعصفر الستور الحريرية التي كانت تعلق على الحيطان .

لم يكن لإبليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوي بها ، إلَّا القيان ، لكفاه »[45] .

ويمضي « الجاحظ » فيصور العلة التي أدت إلى فجر القينة ، وتهالكها على الإثم وأوزاره فيقول : « كيف تَسْلمُ القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ؟ وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي إنما تنشأ ـ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها ـ فيما يصد عن ذكر اللَّه من لهو الحديث . . . وبين الخلفاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة ، ولا دين ، ولا صيانة مروءة . . . ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة عليها ، تأخذها من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش ، وإنشادهم مراودة »[46] .

وشاع الغزل بالغلمان المرد ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم « والبة بن الحباب »[47] ، وهو يصرح بذلك تصريحاً في غير مواربة ولا استحياء[48] .

وظهر المغنون ـ كـ « إبراهيم الموصلي » ، وابنه « إسحاق الموصلي »[49] ـ وتعلم الغناء أبناء الخلفاء ، وأبناء علْية القوم في المجتمع .

وساعدت الحرية المسرفة العباسيين في أن يرثوا كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون ، حتى اكتظت حانات « الكرخ »[50] ودور النخاسة بالجواري والإماء ، والقيان والمغنين .

وبنظرة فاحصة نجد شيوع ذلك عند الطبقة المترفة « الارستقراطية » في

---

(45) الجاحظ : ثلاث رسائل ، نشر يوشع فنكل ص 71

(46) المصدر نفسه .

(47) والبة بن الحباب : هو أول من اشتهر بالغزل بالمذكر في غير مواربة أو استحياء ويقال : إنه هو الذي يتحمل وزر إفساد أبي نواس ، بل يتحمل وزر العصر كله ، وما شاع فيه من الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال . وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الخصيان في بغداد وغيرها من مدن العراق .

(48) الجاحظ : البيان والتبيين جـ 3 ص 220.

(49) إبراهيم الموصلي : وابنه إسحاق الموصلي مغنيان مشهوران في العصر العباسي .

(50) مكان ببغداد كان يكتظ بالقيان والجواري الظريفات يعسون من كؤوسه ويتمتعون بالسماع ومغازلة الجواري والقيان وبالبصرة مثله وقد يضم حياً بأكمله .

المجتمع ، بخلاف السواد الأعظم من المجتمع العباسي ، إلّا أنه يضطرم بالمفارقات ، ويموج بالمتناقضات .

فبجوار هذا المجون واللهو كانت مساجد بغداد « عامرة بالعباد والنساك وأهل التقوى والصلاح ، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر باللّه واليوم الآخر ، وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم ، والعاصين من العذاب الأليم .

والتحم الوعظ بالقصص للعظة والعبرة ، وكان القصص نوعان : ديني ، وآخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه في طرقات بغداد وغيرها من أمصار « العراق » ليسلوهم بالنوادر والحكايات القصيرة ، ومن أجل ذلك قرنوا بأصحاب المساخر من مثل القرادين . . »[51] .

وبجانب هؤلاء الوعاظ أمثال : « عمرو بن عبيد » و « صالح بن عبد الجليل » و « ابن السماك » ، كثير من النساك الذين يحيون حياة الزهد والتبتل والتقشف والانصراف عن ملذات الحياة ونعيمها .

---

(51) انظر ما كتبه الجاحظ عن أبي كعب الصوفي في كتابه الحيوان جـ 3 ص 24 وراجع كتاب التاج للجاحظ ص 40 .
ذكر حيلة أبي كعب القاص قال : « وتعشى أبو كعب القاص بطفشيل (مرق أو عدس أو جلبان) كثير اللوبيا ، وأكثر منه ، وشرب نبيذ تمر ، وغلس إلى بعض المساجد ليقص على أهله ، إذا انتقل الإمام من الصلاة فصادف زحاماً كثيراً ، ومسجداً مستوراً بالبواري (الحصر المنسوجة) من البرد ، والريح ، والمطر ، وإذا محراب غائر في الحائط ، وإذا الإمام شيخ ضعيف ، فلما صلى استدبر المحراب ، وجلس في زاوية منه يسبّح ، وقام أبو كعب فجعل ظهره في وجه الإمام ووجهه إلى وجوه القوم وطبق وجه المحراب بجسمه وفروته وعمامته وكسائه ولم يكن بين فقحته وبين أنف الإمام كبير شيء ، وقص وتحرك بطنه فأراد أن يتفرج بفسوة وخاف أن تصير ضراطاً ، فقال في قصصه : قولوا جميعاً : لا إلّه إلّا اللّه وارفعوا بها أصواتكم وفسا فسوة في المحراب فدارت فيه ، وجثمت على أنف الشيخ واحتملها ، ثم كذه بطنه فاحتاج إلى أخرى فقال : قولوا : لا إلّه إلّا اللّه وارفعوا بها أصواتكم فأرسل فسوة أخرى فلم تخطىء أنف الشيخ ، واختنقت (اختفت) في المحراب فخمر الشيخ أنفه ، فصار لا يدري ما يصنع ، إن هو تنفس قتلته الرائحة ، وإن هو لم يتنفس مات كرباً . فما زال يداري ذلك ، وأبو كعب يقص ، فلم يلبث أبو كعب أن احتاج إلى أخرى . وكلما طال لبثه تولد في بطنه من النفخ على حسب ذلك. قال : قولوا جميعاً : لا إلّه إلّا اللّه . وارفعوا بها أصواتكم . فقال الشيخ من المحراب : (وأطلع رأسه وقال) : لا تقولوا ، لا تقولوا ، قد قتلني ، إنما يريد أن يفسو ثم جذب إليه ثوب أبي كعب وقال : جئت إلى ها هنا لتفسو أو تقص ؟ فقال : جئنا لنقص ، فإذا نزلت بلية فلا بد لنا ولكم من الصبر ، فضحك الناس واختلط المجلس».
وقد كان يقص في مسجد « عتاب » كل أربعاء ، فاحتبس عليهم في بعض الأيام وطال انتظارهم له فبينما هم كذلك إذ جاء رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإني قد أصبحت اليوم مخموراً .

وقد تحدث « الجاحظ » عن هؤلاء في « البيان والتبيين» ، وذكر منثورات من أقوالهم : أمثال « سفيان الثوري » (161هـ) ، و« داود الطائي » (165هـ) و« عبد الله بن المبارك » (181هـ) ، و« الفضيل بن عياض » (187هـ) ، و« سفيان بن عيينة » (198هـ) ، و« عبد الواحد بن زيد » (177هـ) .

وظهرت طبقة من المتصوفة أمثال : « إبراهيم بن أدهم البلخي » (160هـ) و« رابعة العدوية » (180هـ) ، و« شقيق البلخي » (194هـ) ، و« معروف الكرخي » (200هـ) و« أبو سليمان الداراني الشامي » (205هـ) و« بشر الحارث الحافي » (227هـ) .

وقد نشطت الحياة العقلية ، فكانت المساجد أشبه بجامعات حرة يفد إليها الطلاب من كل صوب ، ناهلين ما يشاءون من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية ، وكان بجوارها ـ بجوار تلك المساجد ـ دكاكين الوراقين الحافلة بكتب العلماء وبالمترجم من كتب الأوائل ، وثقافات اليونان والفرس ، والهند .

وأنشئت مكتبات كثيرة ، منها ما كان عاماً « مثل خزانة الحكمة »[52] ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد .

« وشغف الناس بالعلم ، ولعل ذلك ما جعل « الجاحظ » يحاول تقريب الثقافة إلى جماهير البشر ، حتى تتزود منها بطرق يسيرة سهلة »[53] .

وبالجملة قد بلغت الدولة العباسية القمة في العزة والمنعة ، والحضارة ،

---

(52) « خزانة الحكمة » أو بيت الحكمة ببغداد : كانت من أعظم خزائن الكتب في الإسلام ، على اختلاف عصوره وأزمانه ، لأنها حوت من الأسفار العتيقة كل جليل ونفيس ولم تكن كتبها إلاّ نتاج ثقافات شرقية وغربية مختلفة وكان أحد أسباب ظهور بيت الحكمة هو ما شهدته حركة الترجمة من اهتمام عظيم ، وهكذا كان في أول أمره مركزاً من مراكز الترجمة . ثم أخذ بيت الحكمة يتوسع ويزداد عدد كتبه بما يرده من الكتب المختلفة التي كانت تجلب من آسيا الصغرى والقسطنطينية، وما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم في بلاد الشام وعُهِدَ بأمر هذه الكتب إلى أجلّ العلماء وأفصحهم (كسهل بن هارون ، وسعيد بن هارون ، ومحمد بن موسى الخوارزمي . . . الخ) . (راجع : رشيد الجميلي ، حركة الترجمة في الشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة الطبعة الأولى 1982م الجماهيرية ، طرابلس) .

(53) د. «شوقي ضيف» العصر العباسي الثاني ص 643

وبسطة السلطان ، والقوة ، والمدنية ، واستقرت منذ عهد الرشيد دعائمها وأرسيت على أساس متين ، ونشطت في جميع الميادين ـ الأدبية ، والسياسية والعسكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعمرانية ـ وما إلى ذلك من الأمور التي تدور عليها رحى الحياة .

« ملك شاسع ، وجاه عريض ، وجيش قوي ، ووزراء وحجّاب ، وقصور فخمة ، وترف ونعمة ، وبساتين ورياض ، ومغنون وقيان ، وأموال وفيرة ، وصناعات كثيرة ، وثقافات غزيرة ، ومعارف جمة ، مجالس للقضاء ، ومجالس للشراب ، ومجالس متعددة ، ونزعات متباينة ، وعناصر مختلفة وفرق ومذاهب »[54] .

لقد كان عصر « الجاحظ » عصر ازدهار واستقرار ، ومزيجاً هائلاً من جميع الألوان ، فتباينت البيئة العامة والبيئة الفكرية ، وقد كان لهما أثرهما الواضح في أدبه الساخر .

* * *

أ ـ البيئة العامة : إذا نظرنا إلى المجتمع الواسع والبيئة الرحبة ـ في الدولة العباسية آنذاك ـ وجدناها حافلة بكل شيء ، مليئة بكل عجيب مكتظة بشتى المتناقضات . فهناك السرف والترف ، والحرية الفضفاضة البعيدة عن التزمت ، القريبة من الفوضى ، واطراح الحشمة ، ونبذ التقاليد والتحلل من التعاليم السامية ، والأخلاق الكريمة ، طرب وغناء ، وسمر ورقص ، واتخاذ الندماء ، وعقد مجالس الأنس والفكاهة ، ودعوة الخلان إلى المجون ، والفسق ، ومعاقرة الخمر ، والغزل بالمذكر ، ومعاملته معاملة الأنثى ، وذكر السوءات والعورات . . .

وهكذا جاوز مجتمع « الجاحظ » حدوده ، وتعدى مساره الطبيعي ، فصار موضعاً للذم والهزء ، يقول «الجاحظ» : «وأنا مبينٌ لك الحسن : هو التمام والاعتدال ، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال ، كالزيادة في طول القامة ، ودقة الجسم ، أو عظم الجارحة ، أو سعة العين أو الفم ، مما يتجاوز مثله من الناس

(54) د. عبد الحكيم بلبع . النثر الفني ص 183.

المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن ـ وإن عدت زيادة في الجسم ـ والحدود حاضرة لأمور العام ومحيطة بمقاديرها الموقوفة لها ، فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خُلق ـ حتى في الدين والحكمة ، اللذين هما أفضل الأمور ـ فهو قبيح مذموم »[55].

وبهذا وضع الجاحظ قاعدة القبيح والمذموم ، الذي يسخر منه ويهزأ به .

شهد كل ذلك عن قرب ، وعاينه عن كثب ، وانفعل بهؤلاء وأولئك ، فإذا المجتمع كله مهيأ للضحك والإضحاك ، باعث على التهكم والسخر .

ب ـ البيئة الفكرية: لقد تعددت في عهد «الجاحظ» الفرق الدينية وكثرت المذاهب وتنوعت النحل ، فكان منها « الصابئة »[56] و « الرافضة »[57] و « المرجئة »[58] و « الزرادشتية »[59] و « المانوية »[60] و « الجبرية »[61]

---

(55) « الجاحظ » : ثلاث رسائل ، نشر يوشع فنكل ، الطبعة الثانية المطبعة السلفية ص 65 سنة 1382هـ.

(56) الصابئة : وهم من يعتقدون في الأنواء حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلَّا بنوء من الأنواء ويقول : (مطرنا بنوء كذا) . والصابئة أمة كبيرة من الأمم الكبار ، وقد اختلف الناس فيهم بحسب ما وصل إليهم من معرفة دينهم . ومنهم الصابئة الحنفاء، والصابئة المشركون، والمشركون منهم يتعلمون الكواكب والنجوم. وكان آخر عهد ازدهر فيه الصابئة أواخر القرن الثالث في عهد الخليفة المأمون .

(57) تضاربت الآراء حول الرافضة ، إحدى الفرق الإسلامية وسبب تسميتهم : يقول « الجاحظ » : « الكلام للمعتزلة والفقه لأبي حنيفة ، والبهت للرافضة . . . » وقد استهانوا بالصحابة وامعنوا في شتمهم وكان أبو الحسن الأشعري يطلق الرافضة ـ بشيء من التجوز ـ على الشيعة منذ عهدها الأول وقيل : سموا كذلك لأنهم رفضوا « أبا بكر » و « عمر » وأيضاً « عثمان » بل اعتبروا الخلفاء الثلاثة غاصبين للخلافة (د. علي الشابي : مباحث في علم الكلام الطبعة الثانية 1984م : ص 12، 50 ، 101 ، 102 ، 121 ، 123 ، 127).

(58) المرجئة : إحدى الفرق الإسلامية ، تقول بأن « مرتكب الكبيرة مؤمن ، وأن أمره متروك للّه ، وقد أثر عنهم قولهم : « لا تضر مع الإيمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة » (د. علي الشابي : مباحث في علم الكلام والفلسفة : ص 23) .

(59) الزرادشتية : إحدى الديانات الفارسية ، قامت على يد زرادشت (660 - 583ق . م) مصلح الديانة القديمة ، ومنشيء الطائفة المجوسية وهو يقول بوجود مبدأين : مبدأ النور والخير « أرمرد » ، ومبدأ الظلام والشر « أهريمان » ، والحرب قائمة بين أنصار المذهبين حتى تتحقق سيادة مبدأ النور والخير وتنال كل نفس ما تستحقه من جزاء . « وتؤمن الزرادشتية بحرية الإرادة الإنسانية كما تبيح الزواج من المحارم ـ كالأمهات والأخوات والبنات ـ مما أدى إلى انحلال المجتمع الفارسي في النهاية » (د. علي الشابي ـ مباحث في علم الكلام : ص 154 ، 156) .

(60) المانوية : مذهب ديني فارسي ظهر في القرن الثالث الميلادي على يد « ماني » (215 - 272م) ، الذي قرأ

و « الثنوية »[62] . .

كما تعددت المدارس ، ولكل مدرسة طابعها وطريقة تفكيرها .

فمنها « مدرسة الرها »[63] و « مدرسة نصيبين »[64] و « مدرسة حران »[65] ، و « مدرسة جنديا سبور »[66] . . .

= الكتب الدينية على اختلافها وقال ما قال « زرادشت » « من أن للعالم مبدأين : النور والظلمة ، ولما بلغ الرابعة والعشرين من عمره ادعى النبوة ورمى إلى وضع دين جديد تتحد فيه الأديان جميعاً وكان يعتبر نفسه رابع ثلاثة : المسيح ، وزرادشت وبوذا ، وادعى أنه جاء بالوحي الذي وعد به يسوع المسيح تلاميذه ، وأنه خاتم المرسلين ولكن مذهب « ماني » لقي معارضة شديدة لخروجه على الزرادشتية فأمر به الشاه « بهرام بن شابور » فأعدم (272م) (حماد فلاح الغزالي : دراسات في الفكر الإسلامي ، ط 1984 ، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ص 11 ، 12) .

(61) الجبرية : فرقة إسلامية ، تقول بنفي القدرة في الإنسان وكان الممثل الأول للجبرية « جهم بن صفوان » (الذي أعدم لأسباب سياسية عام 128هـ) وقد أنكر أزلية النعيم والجحيم وبقي أتباعه بعده في بلاد فارس حتى القرن الحادي عشر ، ثم انضموا في نهاية الأمر إلى الأشاعرة (لويس غرديه ، وج . قنواتي : فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية جـ 1 دار العلم للملايين بيروت 1967م) .

(62) الثنوية : ديانة فارسية ترى ـ كما جاء على لسان متكلم يدين بالثنوية ـ : « أرى عاملاً للخير والشر ، والنور والظلمة ، والطيب والخبيث ، فمما لا جدال فيه أن لكل الأضداد صانعاً ، فالعقل لا يَستسيغ أن صانعاً يعمل الخير ثم هو بعينه يعمل الشر (د. علي الشابي : مباحث في علم الكلام والفلسفة ص 33 ـ نقلاً عن كتاب بيان الأديان لأبي المعالي) .

(63) مدرسة الرها : إحدى مدارس المسيحية ، وقد أغلقت هذه المدرسة في عام 489م لأن معلميها كانوا نسطوريين في آرائهم ، ثم فتحت ثانية في نصيبين « وقد نالت تأييد العباسيين إذ ذاك لأسباب سياسية فنشرت العقائدالنسطورية والمعارف اليونانية في بلاد فارس (ت . ع . دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة أبي ريدة ، القاهرة ، 1938م : ص 15 ، 16 ، 17) .

(64) مدرسة نصيبين : أغلقت مدرسة الرها في عام 489م ، لأن معلميها كانوا نسطوريين في آرائهم ، ثم فتحت ثانية في هذه المدينة ، وقد عملت على نشر الثقافة اليونانية الفلسفية وعن طريقها تمكن العرب المسلمون من الوقوف على تراث اليونان (رشيد الجميلي : حركة الترجمة في الشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة الطبعة الأولى ، طرابلس ـ الجماهيرية ص : 193 وما بعدها) .

(65) مدرسة حران تعتبر مدرسة حران الحلقة الثانية في عملية انتقال مجلس التعليم إليها بعد مدرسة أنطاكيا التي كان قد انتقل إليها من مدرسة الاسكندرية في أول الأمر علم الفلك أحد العلوم الرئيسية التي اشتمل عليها منهاج هذه المدرسة . وحران مدينة مهمة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، فهي المدرسة التي أنجبت المشاهير من علماء الطب والرياضة والفلك وكان من آثارها إنشاء المدرسة النظامية ثم المستنصرية من أقدم جامعات العرب (رشيد الجميلي ، أيضاً : حركة الترجمة في الشرق الإسلامي ص 188 وما بعدها) .

(66) مدرسة جند يسابور: هي تلك المدرسة التي أسسها «كسرى أنو شروان» الملك (531 - 478ق.م) في جند يسابور ، وهي إحدى المدارس المهمة التي عملت على ازدهار الترجمة في العصر العباسي ، ومنها جاء بعض =

وتنوعت الثقافات من هندية ، ويونانية ، وفارسية ، إلى بابلية ، وفينيقية ومصرية ، ورومانية، وآشورية، وكلدانية . . .

هذه الثقافات المتعددة ، والمدارس المتنوعة ، والفرق الدينية المتضاربة ، والمذاهب والنحل والطوائف المتباينة ، كان من المحتم أن تتعارك وتتصارع ، وينتصر كل فريق لرأيه، ومدرسته، ومذهبه، فيشيع الهجاء وتنتشر السخرية، ويكثر الهمز واللمز . .

ولقد عرف « الجاحظ » ـ بحق ـ مجتمعه ، وخبر طوائفه ، واعترك معها ـ محبذاً رأياً ـ ومعارضاً آخر ـ مرة بالعنف والقسوة ، ومرات باللين والهوادة طوراً بالهجاء اللاذع والذم المقيت وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة ، والتهكم الممض .

* * *

ذلك هو عصر « الجاحظ » ، وتلك هي بيئته التي تفاعل معها وعاشها بعين النقادة البارع ، والمصور الماهر ، يغوص خلالها ، ويجوس دروبها ، لينقل صورها ، ويودعها بطون كتبه ورسائله ، ليروح عن القلوب ، ويسري عن النفوس ، ويترك لنا هذا التراث الهائل من العلوم والمعارف ، وألوان الأدب الخالد .

الأطباء الذين نالوا شهرة في مجال الترجمة ، وكانت رافداً مهماً من الروافد التي اعتمدت عليها الحضارة الإسلامية في أيام صيرورتها ، بل إن البعض يقول بأن « الثقافة الإغريقية لم تنتقل إلينا ـ نحن العرب ـ إلاّ عن طريق جند يسابور » ـ ولكن الحق في هذا أن المسالك التي سلكتها الثقافة الإغريقية في طريقها إلى العرب قد تنوعت . وكانت مدرسة جند يسابور هي البوتقة التي انصهرت فيها الأفكار اليونانية والهندية ، إضافة إلى الأفكار اليونانية والهندية إضافة إلى الأفكار الفارسية ، فنتج عن هذا تلاحم فكري أدى إلى ازدهار الحركة العلمية . . . ولقد كانت علامة مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية (رشيد الجميلي : أيضاً : حركة الترجمة في الشرق الإسلامي : ص 199 وما بعدها) .

الفصل الثاني

حياته وثقافته

اسمه : « عمرو بن بحر بن محجوب الكناني »[1] .

ولقبه : « الجاحظ » و « الحدقي »[2] ، لبروز عينيه .

وكنيته : « أبو عثمان »[3] .

***

كان قصير القامة ، صغير الرأس ، دقيق العنق ، صغير الأذنين أسود اللون ، جاحظ العينين ، مشوه الخلقة ، مما جعل « المتوكل » يصرفه عن تأديب ولده حين رآه ، وأعطاه عشرة آلاف درهم[4] .

---

(1) اضطربت الآراء وروايات المؤرخين في أصل « الجاحظ » ونسبه فيذهب بعضهم إلى أنه كناني ليثي من بني كنانة بن خزيمة ، والده « النضر » أبي قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم « كنانة » « طلحة » ، فهو منحدر من أصل عربي . وذهب آخرون إلى أنه كان مولى « مولى أبي القَلَسَّ عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيهي » ، فنسبته إلى كنانة نسبة ولاء ، قال : « يموت بن مزرع » (خال أم « الجاحظ ») : « وكان جد الجاحظ أسود اللون ، يقال له : « فزارة » ، جمالاً لعمرو بن قلع الكناني » (معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 74) .

وأرجح أن أبا عثمان كان عربي الدم والنسب ، لأنه كرس جهده وحياته لخدمة العرب والعربية ، وتزعَّم أكبر حركة قامت في وجه الشعوبية حتى هدمتها أو قضت عليها ، فهو رجل يغلي في عروقه الدم العربي الذكي ، وتفور في نفسه العزة العربية الصميمية .

(2) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 75.

(3) الخطيب البغدادي ، جـ 1 المجلد 12 ، ص 312 ، مطبعة السعادة مصر 1931م.

(4) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، جـ 1 ، ص 92 (والقصة في الهامش ، وهو كتاب « ثمرات الأوراق » لـ « ابن حجة الحموي ») .

ولد « الجاحظ » بـ « البصرة »[5] ، في أسرة متواضعة في منبتها وفي طبقتها الاجتماعية ، فلم يحفل أحد بمولده . ولم تعرف سنة مولده وتضاربت فيها الآراء : قيل سنة 150هـ ، وقيل سنة 159هـ ، وقيل سنة 160هـ وإذا صح ما يرويه هو عن نفسه يتعين ميلاده أولها ، فقد أُثر عنه أنه قال : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ولدت في أول سنة 150هـ وولد في آخرها »[6] ، وإن كانت ولادته على وجه التحقيق ، في العقد السادس من القرن الثاني من الهجرة .

أما أبوه : فلا يعرف عنه شيء إلَّا اسمه ، وهذا يؤكد أنه لم يكن من عِلْية القوم ، ولا من متوسطيهم ويرجح أنه مات قبل أن ينضج ابنه « الجاحظ » ويذيع صيته ، وإلَّا للحقه شيء من شهرته .

وأما أمه : فلا يعرف عنها إلَّا أنها كانت فقيرة رقيقة الحال، وكانت تنفق عليه وهو صغير ، مما اضطره إلى كسب قوته ومواجهة أعباء الحياة مبكراً فباع الخبز والسمك في صباه[7] .

وكان يهتبل فراغه في التردد على الكتّاب ، كما كان يتردد على حلقات المساجد التي يغشاها أبناء الفقراء في مجتمعه إن أرادوا الحصول على قسط من التعليم ، وكثيراً ما كان يذهب إلى « المِرْبَد »[8] ، يتلقى اللغة والفصاحة مشافهة من الأعراب .

---

(5) « البصرة » : كانت إحدى حاضرتي الثقافة العقلية والأخرى : « الكوفة » منذ عهد الأمويين (40 - 132هـ = 661 - 750م) حيث التقى عرب وفرس ومسيحيون ، ويهود ، ومجوس : وكان فيها كثير من الشيعة والمعتزلة أيضاً .

(6) ياقوت : معجم الأدباء جـ 16 ، ص 74 ، و « أبو نواس » هو الحسن بن هانىء ولد سنة 139هـ توفي أبوه وهو في السادسة من عمره فنقلته أمه إلى البصرة وقامت على تربيته حتى حفظ القرآن ولهج بالأشعار ، وتفتقت موهبته الشاعرية ثم طلب الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام والفلسفة ، وتفرغ للنوادر والملح ، مدح الرشيد والأمين ونادمه ، ولسيرة أمه ، المنحرفة اتخذ المجون والفسق والغزل بالمذكر وشرب الخمر ملجأ للهروب من أزمته توفي سنة 198هـ . وفي رواية المعجم اضطراب حيث إن ولادة « أبي نواس » في سنة 139هـ.

(7) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 74 ، دار المأمون .

(8) المِرْبَد : موضع مكان بظاهر « البصرة » تفد إليه الأعراب من البوادي للتجارة ، وتبادل السلع ، كما يلتقي فيه الشعراء والرجاز ، والخطباء ، والرواة ، والنسّابون ، فيعرضون نتاج أفكارهم ، وروائع آثارهم على شيوخ النقاد وصيارفة الأدب .

لقد تتلمذ « الجاحظ » على أساتذة كانوا زينة الدنيا وغرة في جبين الدولة العباسية ، منهم « الأصمعي »[9] الذي كان يحفظ ثلث اللغة ، و « أبو عبيدة »[10] الذي ، لم يكن في الأرض خارجي ولا جمّاعي أعلم بجميع العلوم منه[11] ، و « أبو زيد الأنصاري »[12] ، وقد قيل عنه وعن سابقيه . . « إن هؤلاء الثلاثة كانوا ـ في عصرهم ـ أئمة الناس في اللغة ، والشعر ، وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أُخذ جُلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله »[13] .

و « الأخفش »[14]، وكان من أعلم الناس بالنحو والصرف ، و « صالح بن جناح اللخمي »[15] ، وقد أدرك التابعين ، وكلامه مستفاد في الحكمة ، والنظام ، « إبراهيم بن سيار البلخي »[16] ، وكان في جملة ما يحفظه « الإنجيل » و« التوراة » و « الزبور » وتفسيرها ، عدا الشعر والأدب والغريب ، وصفه « الجاحظ » بقوله : « إن الأوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لا نظير له . فإن كان ذلك صحيحاً ،

---

(9) الأصمعي : هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي راوية العرب ، واحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، من تصانيفه الكثيرة : « الخيل » و « الأضداد » . ولد سنة 122هـ وتوفي سنة 216هـ .

(10) « أبو عبيدة » : معمر بن المثنى كان يرى رأي الخوارج ، بلغ نحواً من مائة سنة توفي سنة 211هـ ، له مصنفات حسان في أيام العرب وغيرها .

(11) « الجاحظ » : البيان والتبيين ، ص 347.

(12) أبو زيد الأنصاري : كان من أئمة الأدب واللغة ، وله من المصنفات : « القوس والترس » و « الابل » ، و « المطر » ، توفي سنة 216هـ (ابن خلكان : الوفيات جـ 2 ، ص 387 وما بعدها) .

(13) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 317.

(14) الأخفش : سمي بهذا اللقب ثلاثة ، هم : الأخفش الأكبر ، أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد ، مولى قيس بن ثعلبة ، من العلماء بالعربية ، وكانت وفاته سنة 177هـ .

ثم الأخفش الأوسط ، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشي البلخي ، نحوي ، عالم باللغة والأدب ، أخذ من سيبويه ، وكانت وفاته سنة 215هـ .

وثالثهم : الأخفش الأصغر ، أبو الحسن بن علي بن سليمان بن الفضل ، راوية ، إخباري ، عالم بالنحو ، وكانت وفاته سنة 315هـ .

(والمعني هنا منهم « الأخفش الأوسط » ، فالجاحظ كان مولده عام 160هـ على الخلاف الوارد في ذلك) .

(15) صالح بن جناح اللخمي : تابعي ، فقيه ، ينطق بالحكمة ، ملم بالمغازي والسير .

(16) النظام ، إبراهيم بن سيار البلخي : أبو إسحاق إبراهيم بن سيار ابن هانىء البلخي ، المشهور بـ « النظام » ، المتوفى عام 221 أو 222هـ وأحد من أبرز أئمة المعتزلة ، ويعتبر « الجاحظ » أعظم رجل أخرجته لنا مدرسة « النظام » .

فهـو « أبو إسحـاق النظام » ، وقـال : : « إنه مـا رأى أحداً أعلم بـالكـلام والفقـه منه »[17] .

و « موسى بن سيار الأسواري »[18] ، الذي قال عنه « الجاحظ » : « إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقـرأ الآية من كتـاب اللّه ، ويفسرهـا للعرب بـالعربيـة ثم يحول وجهـه إلى الفرس فيفسـرهـا لهم بالفارسية ، فلا يـدري بأي لسـان هو أبين ، واللغتـان إذا التقتا في اللسـان الواحـد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها »[19] .

* * *

وإذا نهل « الجاحظ » من معين هؤلاء ، فلا تعجب أن يتسنم عصره ، وأن يحيا من بعده على وميض علمه ، وأن يبقي هذا الأدب وذلك العلم قدوة للمقتدين ومنارة للسالكين .

لقد انعقدت صلة بينه وبين « إبراهيم بن سيـار » إمام المعتـزلة[20] حتى صـار « الجاحظ » زعيماً لطائفة « الجاحظية » ، التي نسبت إليه ، وسميت باسمه ، وقـد اتصل « الجاحظ » بـ « ابن الزيات »[21] ـ وزير المعتصم ـ وأهداه كتابه (الحيوان) ، فـأجازه خمسـة آلاف دينار . وأهـدى كتاب (البيـان والتبيين) إلى « أحمـد بن أبي داود »[22] ، فأعطاه خمسة آلاف دينار .

---

(17) محمد كرد علي : أمراء البيان ، ص 317 والمرتضى ذكر المعتزلة : ص 29 .

(18) موسى بن سيار الأسواري : كان أحد شيوخ الجاحظ وأساتذته ومن أشهر القصاصين في زمنه .

(19) « الجاحظ » ، البيان والتبيين ، جـ 1 ، ص 382.

(20) المعتزلة : أهم الفرق الإسلامية ، وتسميتهم بذلـك ترجـع ـ في بعض الآراء ـ إلى اعتزال « واصـل بن عـطاء » أستاذه « الحسن البصري » في مسألة مرتكب الكبيرة ، وقد أقـام المعتـزلة مـذهبهم على النظر العقلي ، ونـال مذهبهم تأييد خلفاء بني العباس من أيام « المأمون » إلى عهد المتوكل .

(21) الزيات : محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات ، كان شاعراً بليغاً ، وزر للمعتصم ، والواثق والمتوكل ، قتل عام 233هـ (ابن النديم : الفهرست ص 122) .

(22) أحمد بن أبي داود : هو أبو عبد اللّه أحمد بن أبي داود بن جرير الأيادي ، المعتزلي أحد مشاهير القضاة ورأس فتنة القول بخلق القرآن توفي مفلوجاً ببغداد سنة 240هـ.

وأهدى كتاب (الزرع والنخيل) إلى « إبراهيم بن قباش الصولي »[23] ، فمنحه خمسة آلاف دينار كما قدم لـ « الفتح بن خاقان »[24] كتاب (مناقب الترك وعامة جند الخلافة) ، فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة ، فصار « الجاحظ » غنياً ، واعتبر نفسه بذلك صاحب ضيعة لا تحتاج إلى تجديد وتسميد »[25].

* * *

كان بين « الجاحظ » والوزير « ابن الزيات » ود وولاء ، واستطاع القاضي «أحمد بن أبي داود» أن يوغر صدر «المتوكل» على «عبد الملك بن الزيات» بعد موت « الواثق »[26] ، فأراد « الجاحظ » أن يهرب ، لانحرافه عن « ابن أبي داود » وولائه لـ « ابن الزيات » ، ولكنه قبض عليه . قال « ياقوت »[27] : حدث « إسحاق الموصلي » و « أبو العيناء »[28] قال : كنت عند « أحمد بن أبي داود » بعد قتل « ابن الزيات » فجيء بـ « الجاحظ » مقيداً وكان من أصحاب « ابن الزيات » ، وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال : واللّه ما علمتك إلّا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوىء ، وما فتني باستصلاحي لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك.

فقال له « الجاحظ » : خفف عليك ـ أيّدك اللّه ـ ، فواللّه لأن يكون لك الأمر

(23) إبراهيم بن قباش الصولي : من وزراء الدولة العباسية .

(24) الفتح بن خاقان : الفتح بن محمد بن عبيد اللّه بن خاقان بن عبد اللّه القيسي الأشبيلي أبو نصير ، أديب شاعر ، توفي قتيلاً بمراكش ، من تصانيفه « قلائد العقيان » و « بداية المحاسن » و « كنز الفوائد». توفي عام 235هـ (معجم المؤلفين جـ 8 ص 49) ، وفي معجم الأدباء أنه توفي سنة 255هـ.

(25) ياقوت معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 106 .

(26) الواثق : الخليفة التاسع من خلفاء العصر العباسي الأول (227 - 232هـ = 842 - 847م) ، ولي الخلافة بعد أبيه « المعتصم » ، وشارك أباه في ميوله وآرائه الفلسفية .

(27) ياقوت : هو ياقوت بن عبد اللّه الحموي المؤرخ المعروف صاحب « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » توفي سنة 626هـ.

(28) أبو العيناء : هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان ، الهاشمي بالولاء مولى «أبي جعفر المنصور» ولد بالأهواز ، ونشأ بالبصرة ، وسمع من « أبي عبيدة » ، و « الأصمعي » ، و « أبي زيد » ، و « العتبي » وكان فصيحاً ظريفاً ، لسناً . فقد بصره بعد الأربعين . ولد سنة 191 وتوفي سنة 282هـ.

علي ، خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني حال قدرتك أجمل من انتقام مني .

فقال له « ابن أبي داود » : قبحك اللّه ما علمتك إلَّا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر . . ما تأويل هذه الآية : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[29] . قال : تلاوتها تأويلها ، أعز اللّه القاضي . فقال : جيئوا بحداد . فقال : أعز اللّه القاضي ليفك عني أو ليزيدني ؟ . فقال : ليفك عنك . فجيء بالحداد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فلطمه « الجاحظ » وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة . فضحك « ابن أبي داود » ، وأهل المجلس منه . وقال ابن أبي داود لـ « محمد بن منصور »[30] ـ وكان حاضراً ـ : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه . ثم قال : يا غلام ، صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب ، وطويلة ، وخفاً . فلبس ذلك ثم أتاه ، فتصدر في مجلسه ، ثم أقبل عليه ، وقال : هات الآن ، حديثك يا أبا عثمان . . »[31] .

لقد استطاع « الجاحظ » بظرفه وخفته ، وذكائه وسرعة خاطره ، التخلص من المآزق ، وتحويل سخائم الصدور عند أعدائه إلى مودة وصفاء . ومن ألطف ما روي عنه في هذا الحادثة ، حين سئل : « لِم هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور » يشير بذلك إلى ما صنعوا بـ « ابن الزيات » من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة »[32] .

ومن خلال التراث الهائل الذي خلفه « أبو عثمان » نلمح شخصيته العجيبة المشحونة بأعظم الطاقات الإنسانية وأكبرها ، وتتراءى لنا نفسه الضاحكة الساخرة ،

---

(29) سورة « هود » : آية 102 .

(30) محمد بن منصور : روى له « الجاحظ » في كتابه الحيوان جـ 6 ص 367 . وكان جليساً لابن أبي داود .

(31) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 79.

(32) محمد كرد علي : أمراء البيان ، ص 321.

وروحه المرح الطروب »[33].

لقد كان « الجاحظ » : « ظلاً خفيفاً ، وروحاً طروباً ، ونفساً طليقة ، وسخرية هـادئة ، وابتسـامة مشـرقة ، لا تعـرف العبوس . . . تغـذي قلبك وعقلك ، وتمتـع إحساسك وجنانك »[34] ، لأن شخصيـة « الجاحظ » : « مـزيج من القـوة والدعـة ، والجـد والهزل ، والأنفـة والتواضـع ، والعمق والتبسط ، شخصية عجيبـة انفسحت لأعظم القيم الإنسانية ، فأتيح لها على مر الأزمان المجد والخلود »[35] .

حكى عن نفسه قال : « ما أخجلني قط إلاَّ امرأة ، أخذت بيدي إلى نجـار ، وقالت : مثل هذا . ومضت ، فعجبت ، وسألت النجـار عن قولهـا فقال: أتت إلي وقالت : أن أصنع لها صورة تخوف بها أولادها ، وأتت بك مثالاً »[36].

ودخل عليه يوماً غلام ، فرآه يجتهد في الدعاء ، فقال : « ما بك يا مولاي ؟ . قال : وجدت نفسي أني صرت هزوءاً للناس ، فأنـا أدعـو اللَّه أن يصلح مـا بي من العيوب فقال : أيسر عليه أن يصنعك جديداً »[37].

* * *

عاش « أبو عثمان » الحرية بأجلى معانيها ومختلف أنواعها ، وشاعت في سائر مناحي حياته واتجاهاته ، فكانت له حرية في العلم وحـرية في الـدين ، وحريـة في اللغة ، وحرية في الأدب ، وحرية في السلوك . . .

فحريته في السلوك أبعدته عن قيود الزواج والالتزام بمسؤولياتـه ، ونفرتـه من الكتابة اليونانية ومتطلباتها ، ونحته عن التزمت واتخاذ الهيئة الوقورة والسمت الجاد ، وقربته من مجالس الأنس ، والمنادمة والمجون .

وحريته هي التي جعلته يترك الإقامة على (ديوان الرسائل) ، الذي نصبه عليه

---

(33) د. عبد الحكيم بلبع، النثر الفني ، ط 1969م ، ص 190 ، 191 .

(34)، (35) نفس المرجع والصفحات أيضاً .

(36) دائرة معارف البستاني ، جـ 6 ، ص 348.

(37) أي : هين عليه أي يخلقك من جديد على أن يصلح ما بك من عيوب .

« المأمون »[38] ، ولم يمكث به إلّا ثلاثة أيام .

وكان « سهل بن هارون »[39] يقول : « إن ثبت « الجاحظ » في هذا الديوان أفل نجم الكتاب»[40]، هذا، لنبوغه، وعبقريته الفذة التي ترسل أضواءها اللامعة، فتشيع نور العلم والأدب على مر الأجيال .

* * *

ولقد عمت شهرة « الجاحظ » الآفاق، مما جعل الجميع يسعون ملتمسين علمه ومعرفته . روي أن « أبا محمد الحسن بن عمر البحيري »[41] قال : « كنت بالأندلس[42] فقيل لي : إن ههنا تلميذاً لـ « أبي عثمان الجاحظ » يعرف بـ « سلام بن يزيد » ، ويكنى « أبا خلف » ، فأتيته ، فرأيت شيخاً هرماً ، فسألته عن سبب اجتماعه مع « أبي عثمان » ، ولم يقع « أبو عثمان » إلى الأندلس ؟! فقال : كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء « أبي عثمان » فوقع إلينا كتاب (التربيع والتدوير) له ، فأشاروا إليه ، ثم أردفه عندنا كتاب (البيان والتبيين) له ، فبلغ الرجل السماك

---

(38) المأمون : عبد اللّه بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين ، وولي الخلافة بعد أخيه الأمين سنة 198هـ .

(39) سهل بن هارون: هو سهل بن هارون بن رامنوي الدستمياني، وكان ملتحقاً بخدمة المأمون وصاحب (خزانة الحكمة) له ، وكان حكيماً فصيحاً شاعراً ، فارسي الأصل ، شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في البخل . . وكان « أبو عثمان الجاحظ » يفضله ، ويصف براعته وفصاحته ، ويحكي عنه في كتبه . ولسهل بن هارون من الكتب : كتاب « ديوان الرسائل » ، وكتاب « ثعلة وعفرا » (على مثال كتاب كليلة ودمنة) ، وكتاب « ندود وودود ولدود » ، وكتاب « تدبير الملك والسياسة » (ابن النديم : الفهرست ص 120) . والجدير بالذكر أن « الجاحظ » يورد نص رسالة سهل بن هارون في البخل ، في كتابه « البخلاء » . وتوفي سهل بن هارون سنة 225هـ (الحموي : معجم الأدباء جـ 11 ، ص 267) . (نقلاً عن : رشيد الجميلي : حركة الترجمة في الشرق الإسلامي : ص 206) .

(40) ياقوت : معجم الأدباء جـ 16 ص 79

(41) « أبو محمد الحسن بن عمر البحيري » تتلمذ على الجاحظ مدة عشرين عاماً . وكان قد سمع به وهو ببلاد الأندلس فقصده لعلمه وشهرته التي طبقت الآفاق .

(42) الأندلس : تعتبر الأندلس ـ جغرافياً ـ جزءاً من شبه جزيرة إيبريا، وقد استقر بأجزاء منها أقوام عرفت باسم « الوندال » وتركت اسمها على تلك الجهات ، وصارت تعرف باسم « واندالوسيا » ـ أي بلاد الوندال ـ هذا الاسم الذي حرفه العرب إلى كلمة « الأندلس » ، وقد فتحها « طارق بن زياد » و « موسى بن نصير » في أواخر القرن الأول الهجري .

بهذين الكتابين ـ قال : فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصدت (بغداد)[43] ، فسألت عنه فقيل لي : هو : بـ « سر من رأى » فأصعدت إليه فقيل لي : قد انحدر إلى « البصرة » ، فانحدرت إليها وسألت عن منزله ، فأرشدت ودخلت إليه ، فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحية غيره ، ودهشت ، فقلت : أيكم أبو عثمان ؟ فرفع يده وحركها في وجهي ، وقال : من أين . . . ؟ قلت : من الأندلس . فقال : طينة حمقاء ! فما الاسم ؟ قلت : سلام . فقال : اسم كلب القراد . قال : ابن من ؟ فقلت : ابن يزيد . فقال : بحق ما صرت ! أبو من ؟ فقلت : أبو خلف . فقال: كنية قرد زبيدة، ما جئت تطلب؟ فقلت: العلم. فقال: ارجع بوقت، فإنك لا تصلح. فقلت له: ما أنصفتني، فقد اشتملت على خصال أربع جفاء البادية، وبعد الشقة ، وغرة الحداثة ، ودهشة الداخل فقال : فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري ، كان يجب أن تعرفني بها . فقال : فأقمت عليه عشرين سنة »[44] .

وسبب شهرة « الجاحظ » اتساع علمه ، وتبحره فيه ، يقول « ياقوت » في معجمه : « كان « أبو عثمان الجاحظ » من أصحاب « النظام » ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به ، وبغيره من علوم الدين والدنيا »[45] .

حدث عنه «أبو هفان»[46] قال: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من « الجاحظ » ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلَّا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »[47] . وله وراق خاص! .

* * *

(43) عاصمة الخلافة العباسية ، أسسها الخليفة « أبو جعفر المنصور » عام 134هـ ـ 762م ، مكان قرية قديمة قرب (دجلة) كان اسمها « بغداد » (أي : عطية اللّه) ، وقد أسماها أولاً « مدينة السلام » ولكن غلب عليها فيما بعد اسم « بغداد » وصار علماً عليها .

(44) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 104 .

(45) المرجع السابق ، جـ 16 ، ص 85 ، 86 .

(46) أبو هفان : هو عبد اللّه بن أحمد بن حرب المهزمي ، الشاعر .

(47) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 55 .

روى «الخطيب البغدادي»[48] عن «محمد بن سليمان الجوهري»[49] قال: كنا نصحب « الجاحظ » على سائر أحواله من جد وهزل قال: فخرجنا يوماً للنزهة، فبينما نحن على باب جامع (البصرة) فنظر شيئاً أردناه، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً، فتركناها وانصرفنا، وتخلف معها « الجاحظ » ونحن ننتظره، فأطال، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً وأخذ الأوراق، وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، ويقول: فزنا بقطعة من العلم وافرة. وضحكنا، فقال: أنتم حمقى واللّه، إن فيها ما لا يوجد إلَّا فيها، ولكنكم جهال، لا تعرفون النفيس من الخسيس »[50].

* * *

لقد تأدب « الجاحظ » بآداب الفرس، وحكمة الهند، وفلسفة اليونان، ففصح لسانه، ووضح بيانه، وغزز علمه، وقويت حجته، وسلم منطقه، وعظم علمه بعجائب المخلوقات وطبائع الكائنات.

* * *

وفي سني حياته الأخيرة مرض « الجاحظ » بالفالج[51] والنقرس[52] حتى توطن الذباب بجانبه لعجزه، وحتى لو غرزت في جسمه المسال لما أحسَّ بها، كما قال هو عن نفسه.

* * *

(48) الخطيب البغدادي: هو عبد القادر بن عمر، صاحب التصانيف المليحة، ومنها خزانة الأدب »، توفي سنة 1093هـ ـ 1682م.

(49) محمد بن سليمان الجوهري بن علي العباس أمير البصرة كان من ولاة أبي جعفر المنصور والمهدي والهادي والرشيد، وكان الرشيد في أول أمره يكرمه ويبره بما لا يبر به أحداً، ثم نقم عليه، واستصفى أمواله، وكانت نيفاً وخمسين ألف ألف درهم، ومات سنة 173هـ في اليوم الذي ماتت فيه الخيزران (لسان الميزان: جـ 5، ص 188) ومما يروى عنه من الطرائف أنه كانت له خطبة يخطبها يوم الجمعة ولا يغيرها. البيان جـ 1 ص 105

(50) محمد كرد علي: أمراء البيان، جـ 2، ص 318.

(51) الشلل.

(52) النقرس: ورم ووجع في مفاصل الكعبين، وأصابع الرجلين.

ومات رحمه الله . ـ والكتاب على صدره : « قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه »[53] .

وقد اختلفت الآراء في عام وفاته ـ كما اختلفت من قبل في سنة ميلاده ـ ، وإن كانت وفاته ، على التحقيق ، في العقد السادس من القرن الثالث الهجري[54] . كما أن ميلاده على وجه التحقيق ، في العقد السادس من القرن الثاني الهجري (كما ذكرنا آنفاً) .

وصفوة القول أن « الجاحظ » كان أمة ، وكان دائرة معارف ، لا نزال ـ حتى اليوم ـ نتتلمذ على تراثه ، وننهل من فيض أدبه وغزير علمه ، ونمتع الروح والنفس برواية فكاهاته ، والتحدث عن سخرياته ، ويندر أن نجد أديباً ، أو باحثاً في الأدب ، أو ناقداً أو فكهاً ، أو صاحب مذهب ديني أو فكري ، إلَّا وفي كتبه مقتبسات « الجاحظ » ، واستشهاد بآرائه ، ونقل عنه : . . ويكفي دليلاً على سبقه وفضله ، وصلاحية أسلوبه وفكره ، ان اسمه سيظل باقياً على امتداد الأجيال ، خالداً ما تعاقب الليل والنهار .

* * *

---

(53) الزركلي : الأعلام ، جـ 2 ، ص 339 (الطبعة الثانية) .

(54) أبو الفداء : البداية والنهاية ، جـ 11 ص 17 ، مات سنة 250هـ.

والمسعودي ، في مروج الذهب جـ 4 ص 108 . يرى أن وفاة الجاحظ في سنة 255هـ أو 256هـ في المحرم بالبصرة .

الفصل الثالث

أدبه

لم يكن « الجاحظ » يكتفي بالمعرفة ، وإنما يتعداها إلى التجربة والاستنباط ، ولم يكن يكتفي بالكتب يأخذ منها ، والأساتذة يرتشف من علومهم ، بل كان يغشى « المربد » ، يتلقف الكتب مشافهة من الأعراب ، ويحضر مجالس الشعراء والأدباء ، يسمع أشعارهم ومحاوراتهم ، ويتأمل ، ويوازن ، ويقارن ، وكان له في النقاش والجدل والمناظرة باع طويل ، اكتسبه من أئمة الاعتزال ، وكانت قدمه تجره دائماً إلى حلقات الإخباريين ، والقصاصين ، والمتندرين المتفكهين الساخرين ، مما يصادف هوى في نفسه وراحة لقلبه . وقد ألف « الجاحظ » عديداً من الكتب جاوز بها السبعين بعد المائة ، ويشير « ابن حجر »[1] في (لسان الميزان) إلى إحصاء « ابن النديم »[2] لآثار « الجاحظ » فيقول : « وسرد « ابن النديم » كتبه ، وهي مائة ونيف وسبعون »[3] . على أن « سبط بن الجوزي »[4] يقدر مؤلفات « الجاحظ » بثلاثمائة وستين مؤلفاً ، قال في (مرآة الزمان) :

« أما مصنفاته فثلاثمائة وستون مصنفاً ، ووقفت على أكثرها في مشهد الإمام

---

(1) ابن حجر : هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد الكناني ، المصري المولد والمنشأ والوفاة ويعرف بابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل) ، مؤرخ ، محدث ، شاعر ، فقيه ، ولد سنة 773هـ وتوفي سنة 852هـ (معجم المؤلفين جـ 2 ص 20 ، 21) .

(2) ابن النديم : هو أبو الفرج محمد بن إسحاق ، صاحب « الفهرست » ، توفي سنة 438هـ ـ 1046هـ .

(3) ابن حجر ، لسان الميزان ، جـ 4 ص 375 .

(4) سبط ابن الجوزي : هو يوسف بن قذاد علي بن عبد الله البغدادي ، سبط بن الجوزي ، فقيه ، محدث ، مفسر ، له « مرآة الزمان » ، و « كنز الملوك » . (ولد ببغداد سنة 581هـ وتوفي سنة 654هـ) .

« أبي حنيفة »[5] » .

ولقد أكثر « الجاحظ » من التأليف ، حتى قيل : إنه بزَّ مَنْ سبقه ، ومن لحقه ، قال « المسعودي » : « ولا يعلم أحد من الرواة ، وأهل العلم ، أكثر كتباً منه وكان له وراق خاص اسمه « ابن زكريا »[6] .

ولتفتق قريحته ، واتساع عقله الجبار ، كتب في جميع الفنون والآداب . قيل لـ « أبي العيناء » : « ليت شعري ، أي شيء كان « الجاحظ » يحسن ؟ فقال : ليت شعري ، أي شيء كان « الجاحظ » لا يحسن ؟ »[7] .

وربما كان أكثر تأليفه راجع لامتداد عمره ، ولقضائه شطراً من حياته مريضاً ، فاضطر إلى ملازمة بيته ، وقطع فراغه بالكتابة والتأليف . وربما كان سوء منظره سبباً في انصراف الناس عنه ، فعني بصناعة الكتب ، ليعرفوا أن وراء هذا الوجه المشوه نفساً جميلة ، وروحاً فكهة ، وذهناً وقَّاداً .

* * *

ولقد خطا « الجاحظ » بالكتابة الفنية خطوة جديدة نحو التعبير ـ في جميع الموضوعات ـ في خلابة وبيان عذب ، واتخذ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعاً لأدبه ، واهتم بالألفاظ والمعاني معاً دون أن يجور أحدهما على الآخر ، فهو ـ بحق ـ معلم العقل والأدب ، يضع أمام ناظريه إيصال المعاني إلى قارئه واضحة جلية في ثوب مناسب من الألفاظ ، فالشريف للشريف ، والخسيس للخسيس، دون بريق أو بهرجة . «فقد كان يكره العناية الفائقة التي تجعل الكاتب عبداً لمجموعة من الألفاظ ، يجر إليها المعاني ويشدها شداً »[8] ، وإنما يعشق الأداء الدقيق لمعانيه ، ويعشق معه الوصف الحسي المشاهد ، عادلاً عن المجاز ما استطاع فإن عمد إلى شيء منه فإنما للإيضاح ، وإظهار الصورة بطريقة تبرزها ، فعزوفه عن

(5) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، المجلد الثالث ، الجزء العاشر ، ورقة 58 تصوير دار الكتب المصرية .

(6) القالي ، الأمالي جزء 1 ص 248 . والمسعودي ، مروج الذهب جـ 3 ص 135 .

(7) الحصري : جمع الجواهر ، ص 165 .

(8) د : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، مصر ص 161 .

الخيال ، لأنه يجعل القارىء في متاهات تبعده عن الواقع ، وعن حقيقة المعنى المراد ، لذلك انتقى من التشبيهات ما وضح في الأفهام ، وقرب إلى الآذان ، وتفاعل مع الأذهان ، فاتصفت كتبه بالواقعية والصدق دون تمويه أو تستر ، فهو يسمي الأشياء بمسمياتها دون لجوء إلى الرمز ، ويصرح بذكر السوءات والعورات في غير مواربة ولا خفاء ، يرى أن ذلك أكثر إيضاحاً للصورة ، وإبرازاً للفكرة ، وتمشياً مع الواقعية » ولكن واقعية « الجاحظ » لا تقف عند تلك التفصيلات الدقيقة ،والظواهر الحسية، بل تستندِ إلى تحليل نفسي واجتماعي ، وتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف »[9].

وهذا الأدب الواقعي[10] أعطانا فكرة واضحة عن عصره ومجتمعه بمحاسنه ومساوئه ، وعاداته وتقاليده ، بل بألفاظه .

فحريته الأدبية التي أباحت له ذكر العورات ، والإفصاح عنها بصريح أسمائها ، دفعته إلى حرية مثلها في اللغة .

وأهم ظواهر أدبه في سلوكه ، وتفكيره ، وفي حياته العامة والخاصة ، ما امتاز به من روح فكهة مرحة عابثة ساخرة ، تقوم بالدعابة ، وتميل إلى التهكم ، وتمزج الجد بالهزل ، وتخفف أعباء الحياة وثقل العلم بالمرح والضحك ، وإذا بنوادره الغريبة وأفكاره العجيبة ، وسخرياته اللاذعة ، تحبب إلينا الحياة ، وتدفعنا إلى مصاحبته وقراءة كتبه الشيقة التي تنقل قارئها « من باب إلى باب ومن فصل إلى فصل »[11].

فهو « كاتب متعمق ، مستقص ، يلح وراء المعاني ، والأوصاف والخواطر لا

---

(9) محمد المبارك : فن القصص في كتاب « البخلاء » ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، دمشق ـ 1965 ، ص 27 .

(10) قام المذهب الواقعي ـ ثم الطبيعي ـ على أنقاض المذهب الرومانتيكي « الابتداعي » ، في القرن التاسع عشر بأوروبا ، فأصبح الكاتب يتبع في قصصه الواقع على حسب منهجه في البحث منظم استقصائي ، يجمع فيه معارفه باطلاعه على وقائع الحياة اليومية الفردية والاجتماعية في تصوير موضوعي ، ويعد « بلزاك » الفرنسي رائد الواقعية في رأي الكثيرين . ويزيد « المذهب الطبيعي » ، على الواقعية ، في أنه يتطلب ـ بعد جمع الحقائق ـ توجيهاً لحياة الشخصيات القصصية ، بحيث تنتهي نهاية تؤيدها الحقائق العلمية والاجتماعية ويعد « إميل زولا » (الفرنسي أيضاً) جميع الواقعيين من الطبيعيين (د . محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص 115 وما بعدها) .

(11) الجاحظ : الحيوان ، جـ 3 ، ص 7

يترك منها شيئاً ، يطوع اللغة لعقله ، وشعوره ، وخياله ، فيوردها ألفاظاً دقيقة ، ويرددها جملاً مزدوجة مقسمة ، ويسهب فيها بعبارات موسيقية فياضة ، حتى يشتفي ، يجد فيبلغ من التحقيق والاحاطة جهد العقول ، ويهزل عابثاً ، وداهية ماكراً ، يبكي ويسخر ما شاءت له براعته ومرونته الخلقية والدينية ، حتى كأن « الجاحظ » هو الدنيا جميعاً »[12] .

* * *

وتدليلاً على ما سبق ، نورد بعض الأمثلة من كلام « الجاحظ » نفسه :

— 1 —

يقول « الجاحظ » في (البيان والتبيين) : « قال بعض جهابذة الألفاظ ، ونقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور العباد ، المقصورة في أذهانهم ، والمتخلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره ، وإنما تحيا المعاني في ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً ، وهي التي تخلص المتلبس وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشي مألوفاً ، والغفل موسوماً ، والموسوم معلوماً ، وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ورقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجح . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت اللّه ـ تبارك وتعالى ـ يمدحه ، ويدعو إليه ، ويحث عليه ـ وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الأعاجم »[13] .

إن المعاني القوية قد تكون ماثلة في الأذهان ، ولكنها تفقد رونقها وبهاءها إذا

---

(12) أحمد الشايب ، الأسلوب ، الطبعة السابعة ، 1976م ، ص 128 .

(13) الجاحظ ، البيان والتبيين ، حـ 1 ، ص 90 .

أسيء التعبير عنها ، ولا تقوى إلا بالتعبير القوي حين إبرازها ، وهذا ما ذكره « الجاحظ » في نموذجه ، فهو يعطينا المعنى جلياً قوياً في سهولة ويسر ، ويرسم لنا طريق التعبير عن المعنى المكنون ، للمحجوب في العقول والأذهان ، وهو قبل التعبير عنه ، في صورة المعدوم ، ليكون قوياً مؤثراً رائعاً ، بجماله وظلاله الموحية .

إن « أبا عثمان » امتاز بهذه المادة الخفية الغزيرة من المعاني ، لشدة تفاعله ، وكثرة تجاربه ، وطول مراسه ، وقوة بصره وخبرته بالحياة والأحياء ، يستبطن الأسرار ، ويستقرىء الظواهر ، ويتعمق الأحداث ، ويراقب المظاهر ، ويستكشف الحقائق ، ثم يعبر عن ذلك كله بروحه ، وقلبه ، وعقله ، دون دخل أو تزيف ، في وضوح ، وسهولة ويسر ، وموضوعية .

— 2 —

يتحدث « الجاحظ » عن قاضي (البصرة) « عبد اللّه بن سوار »[14] فيقول :

« كان لنا بـ (البصرة) قاضٍ ، يقال له « عبد اللّه بن سوار » لم يرَ الناس حاكماً قط ، ولا زميتاً (وفوراً) ، ولا ركيناً (رزيناً) ، ولا وفوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك .

كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ـ أي يجمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ـ ولا يتكىء فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يحل حبوته ، ولا يحول رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكرر ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء (الأخيرة) وينصرف . فالحق يقال : لم يقم ، في طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام ، وفي

---

(14) عبد اللّه بن سوار بن عبد اللّه بن قدامة العنبري البصري ، قاضي البصرة . كان فقيهاً فصيحاً ، أديباً شاعراً ، وقد وثقه كثيرون ، منهم أحمد بن حنبل .

قصارها ، وفي صيفها ، وفي شتائها ، وكان مع ذلك ، لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلاّ أن يتكلم . . فبينما هو كذلك ـ ذات يوم ـ وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول إلى مُؤق عينيه فرام الصبر في سقوطه على المؤق ، وعلى عضه وتفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى فغمس خرطومه في مكان كان أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وفي فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كان بعين من حضر من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، واستغفر اللّه ، فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد اللّه ـ عز وجل ـ أن يعرفه من ضعفه ما كان مستوراً ، وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ! ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** ﴾[15] . وكان بيّن اللسان قليل فضولُ الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة»[16] .

إن الطابع الفني الخالص للكتابة قد تكامل في هذا النموذج : لقد كان « أبو عثمان » دقيقاً في اختيار كلماته التي ينسجم بعضها مع بعض في تجسيم المعنى

---

(15) سورة الحج : الآية 73.

(16) الجاحظ ، الحيوان ، جـ 3 ، ص 343 - 346.

وتشخيصه ، ورائعاً في حشد الجمل المؤتلفة في تعادل وانسجام ، لتبرز طبيعة الفن الجميل ، بإيقاعه الموسيقي البديع ، وباهراً في معانيه التي وصل إلى غايتها ، وأتى على نهايتها ، وانطلق محلقاً في آفاقها البعيدة وواقعياً في تصوير صاحبه تصويراً ممزوجاً بإحساسه وشعوره ، راسماً حركته وهيئته ، محيطاً بدقائق المعركة الحامية بين القاضي « عبد اللّٰه بن سوار » والذباب ، فجاءت واقعيته التصويرية ـ الخالية من التزويق والتنميق ـ نابضة بالحياة ، مصورة لخلجات نفسه ، وراسمة هيئة صاحبة وحركته . . ومن لديه المقدرة على ذلك سوى « الجاحظ » الذي ملك زمام الكتابة ، وبراعة الأداء ، في أسلوب لا يجارى ، وتشخيص لا يبارى ؟ إن « الجاحظ » قد سبق زعماء المدرسة الواقعية في (أوروبا) بعشرة قرون تقريباً، لقد قام كل من «بلزاك»[17] و«فلوبير»[18] فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بالدعوة إلى أن مهمة الأدب هي وصف الحياة، والتعبير عن وقائعها وأحداثها بصورة موضوعية دقيقة، لا نزوع فيها إلى الخيال أو التلوين ـ وعرفت هذه المدرسة بـ (الواقعية) ، ويقرر أصحاب هذه المدرسة : أن الأدب يجب أن تقوم دعائمه على أسس اجتماعية تقومها الملاحظة والتجربة في محيط الحياة ، فالأديب يجب أن يصف مجتمعه بطريقة حقيقية مباشرة ، يعرض فيها مساوىء هذا المجتمع ومحاسنه دون تزمت أو خوف من الناس[19] .

---

(17) « بلزاك » « اونوريه دي بلزاك » ، كاتب فرنسي (1799 - 1850م) يعتبر رائد الكتاب في تصوير الواقع ، فقد صور في مجموعته الروائية ـ التي أطلق عليها اسم « المهزلة الإنسانية » ـ المجتمع الفرنسي كله ، وهي تتألف من خمسة وتسعين جزءاً ، ويصف فيها المجتمع الفرنسي لعهده ، وخاصة فيما بين عام 1829 - 1848م . . . ويصرح « بلزاك » في مقدمة طبعة لها ظهرت عام 1842م ، بأنه أضاف لعمل المؤرخين فصلاً منسياً هو تاريخ العادات والتقاليد ، وأنه يصور الواقع كما هو ، ليكشف عن المبادىء الطبيعية التي تؤثر في المجتمعات الإنسانية . . . ويبرر مسلكه في أنه وصف الشر في قصصه ، بأنه لحظ الحقيقة في المجتمع كما هي ، بهدف إيقاظ روح الفرد ، والتعالي بخلق المجتمع بتطور الأفراد وتقدمهم (راجع د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ط 1973م ، بيروت : ص 516 ، 517) .

(18) « فلوبير » : « جوستاف فلوبير » ، كاتب فرنسي (1821 - 1880م) ، اشتهر بقصته المعروفة « مدام بوفاري » (التي ترجمها د. محمد مندور إلى اللغة العربية) ، والتي تصور شخصية سيدة رومانتيكية تقع ضحية استسلامها لآمالها ، وتصادم هذه الآمال بالواقع المرير .

وقد أحيا « فلوبير » ، في قصصه : « مدام بوفاري » ، و« التربية العاطفية » ، و« سلامبو » ـ معالم الفترة التي كانت مجالاً لها ، بما زخرت به من عوامل الصراع الاجتماعي ، وما امتازت به من تقاليد ومعالم طبيعية (راجع د . محمد غنيمي هلال ، أيضاً : النقد الأدبي الحديث : ص 545 ، 560) .

(19) د . محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص 383.

ولقد ربط « الجاحظ » في واقعيته بين الأدب والحياة ، فرسم صورة صادقة لها ، يصورها كما يراها ويحسها ، بحرية لا حدود لها ، من هنا كتب لأدبه الخلود ، لأنه كان مشخصاً لطبيعة الحياة والأحياء ، دون تزييف أودجل ، ورأى الناس فيه ظل حياتهم كما يتصورون ، وتصوير خلجاتهم كما يشعرون .

ونموذجنا هذا لا ينقصه إلاَّ أن يمسك « الجاحظ » بريشة المصور ، فيعمد إلى أصباغه، ليصور القاضي بقده وتقاطع وجهه ، ورأسه وعينيه ، ولحيته ووجنتيه ، وسبلاته ، ويديه ، ورجليه ، وعمامته ، وقلنسوته ، وجبته وقفطانه ، وسراويله وحزامه وحذائه ، ليضيف إلى صورته صورة أخرى . . . صور قاضي البصرة صورة لا يصل إليها المصور المبدع ، صور لنا معنوياته ساعة سطا عليه الذباب ، وصور ما بدر منه ، وما انطوى عليه من وقار ، في جميع حالاته ثم أثنى على حسن سيرته ، وقلة فضوله في جد كان الهزل في معانيه وإشاراته ـ لا في ألفاظه ورصفها[20] ـ وهذه أسمى صور الواقعية في التجسيد والتشخيص ، والدعابة التي تنال صاحبه بالتجريح .

* * *

ــ 3 ــ

قال « الجاحظ » في (الحسد والمحسود) :

« الحسد ـ أبقاك اللّه ـ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر » .

« فمن شأن الحاسد ـ إن كان المحسود غنياً ـ توبيخه على المال ، وقوله إنه

وشفيق جبري ، الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص 288 .
وعمر الدسوقي ، المسرحية ، ص 167 .
ود. عبد الحكيم بلبع ، النثر الفني ، ص 247 .

(20) محمد كرد علي ، أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 390 (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1937م) .

جمعه حراماً ، ومنعه آثاماً ، وألب عليه محاويج أقاربه ، وتركهم له خصماء ، وأعانهم في الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، وقال له : كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون . . . وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلماً ، فإن كان ممن يعاشره غشه ، أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصرة خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، أو كانت عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها . . . » .

« وإن كان المحسود عالماً ، قال : مبتدع ، ولرأيه حاطب ليل ومتبع نيل ، ما يدري ما حمل ، وقد ترك العمل ، وأقبل على الجبل . . . » .

«لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه اللّه به، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده اللّه حسداً ، وأقامه عليه أبداً . . . » .

« فإذا أحسست ـ رحمك اللّه ـ من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مساعدته ، وحصن سرك منه تسلم من شذا شره وعوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته فتمكن نفسك من سهام مشاورته . . . » .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً ـ وإن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب ـ وإن كنت مخطئاً ـ أو نصح لك في غيبته عنك ، أو قصر من عيبه لك ؟ هو الكلب الكلِب ، والنمر الجرب ، والسم العشب ، والفحل القطم ، والسيل العرم . . . إن مَلك قتل وسبى ، وإن مُلك عصى وبغى حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عدل مرضي ، لا يحب من الناس إلاَّ من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلاَّ من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك علاوته ، أحسن ما تكون عنده حالاً أقل ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً ، فإذا ـ على هذا ـ فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزمن ، والاكتنان بالجدران ، ومص المصران ، وأكل القردان ، أهون من معاشره مثله ، والاتصال بحبله. . . وما أرى السلامة إلاَّ في قطع الحاسد ، ولا

السرور إلاَّ في افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلاَّ في صرم مداراته ، ولا الربح إلاَّ في ترك مصافاته »[21].

لقد حلل « أبو عثمان » ـ في هذا النمـوذج ـ موضـوع الحسد ، وحلل نفـوس الحساد وسبر أغوارهم ، ليستشف طبائعهم ، وحين سئل عن الحسد : « لم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء ؟ ولِم كثر في الأقرباء ، وقل في البعداء ؟ وكيف دب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين ؟ وكيف خص من الجيران في جميع الأوطان »[22] ، كان جوابه ما سبق .

لقد افتتن «الجاحظ» وأبدع حين وصف دخائل النفس الإنسانية، وتسرب إلى الطبائع المستورة الخفية ، ليستشف ما بـداخلها ، وتغلغـل في أعماقهـا ، ليتكشف خفاياها وأسرارها ، وتسلل إلى أعماقها ليظهرنا على كل ما فيها .

لقد عمد إلى الحاسد فحلله تحليلاً نفسياً لا يستطيعه سواه ، لأنه من أصحاب المدارك السامية ، والبصائر النافذة .

لقد جمع حشداً من الألفاظ والمعاني الدقيقة التي تبرز موضوعه في صورة حية ماثلة للعيان حتى يجسم المخبوء ، ويشخص الخفي المستور.

وهنا يبرز « أبـو عثمان » وكـأنه عـالم نفساني في صـورة أديب ، وكأنـه طبيب يستعمل مبضعه ليستل من مريضه علته ، بعد أن يشخص داءه ، ويظهر عواره .

ويرى أن يعزله في مصح خاص حتى لا يفشو مرضه ، وتسيء علتـه ، وتنتقل عدواه إلى الآخرين: «فإذا أحسست ـ رحمك اللّه ـ من صديقك بـالحسد فـأقلل ما استطعت من مخالطته فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته ، وحصن سرك منه تسلم من شذا شره ، وعوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته »[23] .

***

---

(21) السندوبي ، رسائل الجاحظ ، ص 335 ، 337 ، 338 .
(22) نفس المصدر ، ص 335
(23) السندوبي رسائل الجاحظ ص 337

— 4 —

قصة « تمام بن جعفر »[24] البخيل . يقول « الجاحظ » :

« كان « تمام بن جعفر » بخيلاً على الطعام مفرط البخل ، وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة ، ويطالبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه لابن حلال الدم ، وكان أن قال له : ما في الأرض أحد أمشى مني ولا على ظهرها أحد أقوى على الحُضر مني » . قال : « وما يمنعك من ذلك ، وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل إلاّ البطن ؟ لا حمد اللّه من يحمدك» . فإن قال : « لا واللّه أن أقدر أن أمشي ، لأني أضعف الخلق عنه ، وإني لأنبهر من مشي ثلاثين خطوة » قال : « وكيف تمشي ، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالاً ؟ وهل ينطلق الناس إلاّ مع خفة الأكل ؟ وأي بطين يقدر على الحركة ؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود ، فكيف بالمشي الكثير ؟ » .

فإن شكا ضرسه ، وقال : « ما نمت البارحة من وجعه وضرباته » قال : « عجبت كيف اشتكيت واحداً ، وكيف لم تشتكي الجميع ، وكيف بَقِيتْ إلى اليوم في فيك حاكة ؟ وأي ضرس يقوى على الضرس والطحن ؟ واللّه إن الأرجاء السورية لتكل ، وإن المنحاز الغليظ ليتعبه الدق . وقد استبطأت لك هذه العلة . ارفق فإن الرفق يُمْن ، ولا تخرق بنفسك ، فإن الخرق شؤم » . وإن قال : « لا واللّه إن اشتكيت ضرساً لي قط ، ولا تحلحل لي سن عن موضعه ، منذ عرفت نفسي » قال : « يا مجنون لأن كثرة المضغ تشد العُمور ، وتقوي الأسنان ، وتدبغ اللثة وتغذو أصولها ، وإعفاء الأضراس من المضغ يريحها . وإنما الفم جزء من الإنسان . وكما أن الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوي ، وإذا طال سكونه تفتخ واسترخى ، فكذلك الأضراس . ولكن رفقاً ، فإن الإتعاب ينقض القوة . ولكل شيء مقدار ونهاية . فهذا ضرسك لا تشتكيه ، بطنك أيضاً لا تشتكيه ؟ » .

---

(24) هو أحد بخلاء الجاحظ الذين تندر بهم في كتابه « البخلاء » : كان بخيلاً على الطعام ، مفرط البخل ، وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة ، ويطالبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم (الجاحظ ، البخلاء ، ص 116) .

فإن قال : « لا بد للتراب من ماء ، ولا بد للطين من ماء يبله ويرويه . أوليست الحاجة على قدر كثرته وقلته ؟ واللّه لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك، مع ما أرى من شدة أكلك ، وعظم لقمك . تدري ما قد تصنع ؟ أنت واللّه تلعب . أنت لست ترى نفسك ، فسل عنك من يصدقك ، حتى تعلم أن ماء دجلة يقصر عما في جوفك » . فإن قال : « ما شربت اليوم ماء البتة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل . وما في الإرض إنسان أقل شرباً مني للماء » قال : « لأنك لا تدع لشرب الماء موضعاً . ولأنك تكنز في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلاً . والعجب لا تتخم ، لأن من لا يشرب الماء على الخوان ، لا يدري مقدار ما أكل ، ومن جاوز مقدار الكفاية كان حرياً بالتخمة » .

فإن قال : « ما أنام الليل كله . وقد أهلكني الأرق » قال : « وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة أن تنام ؟ واللّه لو لم يكن إلاَّ العطش الذي ينبه الناس لما نمت . ومن شرب كثيراً بال كثيراً ، ومن كان الليل كله بين شرب وبول ، كيف يأخذه النوم ؟ » . فإن قال : « ما هو إلاَّ أن أضع رأسي ، فإنما أنا حجر ملقى إلى الصبح » قال : « ذلك لأن الطعام يسكر ، ويخدر ويختر ، ويبل الدماغ ويبل العروق ويسترخي عليه جميع البدن . ولو كان في الحق لكان ينبغي أن تنام الليل والنهار » .

فإن قال : « أصبحت وأنا لا اشتهي شيئاً » قال : « إياك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً ، فإن أكل القليل على غير شهوة أضر من الكثير مع الشهوة . قال الخوان : ويل لي ممن قال لا أريد. وبعد فكيف تشتهي الطعام اليوم، وأنت قد أكلت بالأمس طعام عشرة ؟ »[25] .

لقد ذللت المعاني والألفاظ لـ « أبي عثمان » يدور بها كيف يشاء ، فنراه يتلاعب بعقلية « تمام بن جعفر » ويبالغ في مدحه ، ويصل به إلى القمة ، فإذا به يسقطه من علياء ، ويهبط به إلى مستوى لا يتصور في بشر ويصرعه أمام ناظريه ليكون أضحوكة وألعوبة بينهم ، ومحلاً للسخر والتندر عندهم .

---

(25) الجاحظ ، البخلاء ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ص 83 - 84 ، والبخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 104

ولقد أوتي الأديب الساخر عقلية جدلية جبارة ، جعلته يحاور « تماماً » ويجادله في بخله ، ويستبطن دخيلته ، ويستخرج مكنون أفكاره ، فيمدحه ويطريه ، ويرفعه ويعليه ، ثم يهبط به إلى أسفل ، فيسقطه ويدنيه ، مستعملاً الحجج والبراهين ، التي تقطع بإدانته ، حتى يسد على القضاء الحكم بنجاته ، أو الفرار من جريمته . إن العقلية الجدلية الممتازة ، عند « الجاحظ » ، مكّنته من أن يجعل اللغة طوع إرادته ، يتحكم فيها حسب مشيئته ، ويدور بالكلام حيث أراد : « إن أدب « الجاحظ » قطعة من نفسه ، تتجلى فيه ـ لأول نظرة ـ طريقته . ولو أنك ألقيت قطعة من ملحه بين عشر قطع أدبية لغيره ، لما صعب عليك تمييز كلامه من كلام غيره . . . »[26] .

فإنه يستخدم المنطق في تضاعيف أسلوبه ، ويلونه بالحجاج الذي يقوم على المقدمات والأقيسة ، واستعان بالمنطق الصحيح ـ والسقيم أيضاً ـ لتدعيم رأيه . روى الرواة أنه اجتمع مع « يوحنا بن ماسويه »[27] على مائدة بعض الوزراء ، وكان في جملة ما قدم (مضيرة) « لحم يطبخ باللبن الحامض » عقب سمك ، فامتنع « يوحنا » من الجمع بينهما ، فقال له « الجاحظ » :

« أيها الشيخ : لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن ، أو مضافاً له ، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أنا أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا » فقال « يوحنا » : « واللّه ، ما لي خبرة بالكلام ، ولكن كل ـ يا « أبا عثمان » ـ وانظر ما يكون في غد » فأكل « الجاحظ » انتصاراً لدعواه ، ففلج في ليلته . فقال : « هذه واللّه ، نتيجة القياس المحال »[28] .

* * *

---

(26) محمد كرد علي ، أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 340.

(27) يوحنا بن ماسويه : يعتبر من الأطباء البارزين الذين رعوا حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري « التاسع الميلادي » ، وكان صاحب منزلة رفيعة عند من عاصرهم من خلفاء بني العباس ، حتى أصبح الطبيب الأول لأربعة من الخلفاء هم : المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل (راجع : رشيد الجميلي ، حركة الترجمة في الشرق الإسلامي ، ص 156 وما بعدها) .

(28) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ 1 ص 181، نشر مكتبة دار الحياة بيروت.

— 5 —

قال « الجاحظ » : « حدثني أحمد المكي[29] ـ أخو « محمد المكي » ـ وكان متصلاً بـ « أبي سعيد » ، بسبب العينة ، وبسبب ضعة المال :

ولأعاجيب « أبي سعيد »[30] وحديثه قال « أحمد » : قلت له مرة : « والله إنك لكثير المال ، وإنك لتعرف ما نجهل ، وأن قميصك وسخ ، فلم لا تأمر بغسله ؟ » قال : « فلو كنت قليل المال وأجهل ما تعرف ، كيف كان قولك لي ؟ إني قد فكرت في هذا منذ ستة أشهر فما وضح لي بعد وجهة الأمر فيه . أقول مرة : الثوب إذا ترادفه العرق ، وجف وتراكم عليه الوسخ ولبد ، أكل السلك وأحرق الغزل . هذا مع نتن ريحه وقبح منظره . وبعد ، فإني رجل آتي أبواب الغرماء ، وغلمان غرمائي جبابرة ، فما ظنك بهم إذا رأوني في أطمار وسخة وأسمال درنة وحال حداد ؟ جُبهوا مرة ، وحجبوا مرة . فيرجع ذلك علينا بمضرة من إصلاح المال ، وأن ينفي عنه كل ما أعان على حبسه ، مع ما يدخل من الغيظ ، ويلقى من كان كذلك من المكروه .

فإذا اجتمعت هذه الخواطر ، هممت بغسلها . فإذا هممت به عارضني معارض يوهمني أنه أتاني من جهة الحزم ومن قبل العقل ، فقال : أول ذلك الغرم الذي يكون في الماء والصابون . والجارية إذا ازدادت عناء ، ازدادت أكلاً . والصابون نُورة ، والنُّورة تأكل الثوب وتبلي الخز ، ولا يزال الثوب على خطر حتى يسلم إلى القصر والدق . ثم إذا ألقي على السن ، فهو بعرض الجذبة والنترة والعلق . ولا بد من الجلوس يومئذ في البيت .

ومتى جلست في البيت فتحوا علينا أبواباً من النفقة وأبواباً من الشهوات . والثياب لا بد لها من دق . فإن نحن دققناها في المنزل قطعناها ، وإن نحن أسلمناها إلى القصار فَغُرْم على غرم ، وعلى أنه ربما أنزل بها من المكروه ما هو أشد . وما

---

(29) أحمد المكي : نشأ في مكة وروى الشعر ، ثم هاجر إلى العراق ، كان ظريفا ، حلو النادرة حاضر البديهة .

(30) أبو سعيد المدائني من كبار « المعينين » ومياسيرهم ، له حلقة يقعد فيها أصحاب العينة . والعينة تطلق على نوع من المعاملات المالية كالسلف . وتطلق على الربا ، أو البيع بثمن الشراء بثمن أقل . وأبو سعيد كان يتعامل بالعينة .

جلست في المنزل قط إلَّا أرجف بي الغرماء ، وادعوا علي الأمراض والأحداث وفي ذلك لهم فساد والتواء وطمع لم يكن عندهم . فإذا أنا لبستها ، وقد ابيضّت وحسنت وجفت وطابت ، تبينت عند ذلك وسخ جسدي وكثرة شعري ، وقد كان بعض ذلك موصولاً ببعض ، ففرقته ، فاستبان لي ما لم يكن يستبين ، وأكثرت لما لم أكن أكثرت له . فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام . فإن دخلته فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولي امرأة جميلة شابة ، إذا رأتني قد اطليت وغسلت رأسي وبيضت ثوبي ، عارضتني بالتطيب وبلبس أحسن ثيابها وتعرضت لي ، وأنا فحل ، والفحل إذا هاج لم يرد رأسه شيء . فإذا أردت مواقعتها ، ورأت حرصي نثرت علي الحوائج نثراً . ثم احتجنا إلى تسخين الماء . وأشد من هذا كله أن تعلق ، فتحتاج إلى ظئر فنقع في ما لا غاية له .

مع أمور كثيرة نسي بعضها أحمد ، وبعضها أنا »[31] .

وهكذا كان « أبو عثمان » ـ في نموذجه ـ قصاصاً بارعاً ، حين عرض صاحبه في هذا النموذج ، في صورة تجسيدية تشخيصية : بقميص وسخ ، مؤثراً الإبقاء عليه ، لما يجره غسله عليه من نفقات طائلة وغرم لا نهاية له ، مع اعتراف « أبي سعيد المدائني » بضرر الوساخة ، وما تجره عليه من شر .

كما كان مصوراً عظيماً (كشأنه في النماذج السابقة) للحركات الجسدية ، والمشاعر النفسية ، راسماً فيها جشع النهمين في معان تؤدى في دقة ، ولا تسترها أسجاف الأخيلة والاستعارات ، وقد ساق طرفته في عبقرية فائقة ، كاشفاً القناع عن صاحبه في فنية عذبة ، وأسلوب مرح ساخر ، وحس مرهف ، وروح طروب ، وابتسامة مضيئة ، عامداً إلى التحليل النفسي الذي يعتمد على نفاذ البصيرة ، ودقة الملاحظة ، مع شغف بالمقابلة في الأفكار ، والتوليد للمعاني والتلوين للأصوات ، والاستطراد في العبارات .

* * *

---

(31) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، طبعة دار المعارف ، مصر ـ ص : 139 - 141 .

كان « الجاحظ » مزيجاً هائلاً من الطاقات العلمية والفنية ، حيث ملأ الدنيا ، وشغل الناس ، بملكاته النادرة ، التي نقلت صور الحياة في مجتمعه ، في نمط جديد من الألفاظ والمعاني ، والأفكار والموضوعات ، دامجاً بين ثقافته وأسلوبه ، مغذياً العقول بمضامينه ، ممتعاً الآذان بجرسه وتلوينه ، كاشفاً عن القلوب السأم والملل بطرفة ونوادره ، صادراً عن نفس جامعة بين المتناقضات . . فكان راوية متكلماً ، وفيلسوفاً مسامراً ، وأديباً مؤرخاً ، وشاعراً عالماً ، ثم واصفاً لأحوال الحيوان والنبات والجماد ، دارساً أصول الناس والجماعات .

زاول « الجاحظ » تدبيج الرسائل ، حتى صار أعجوبة الزمان ، لأنه واسع الاطلاع لطيف البحث، طيب الفكاهة، مخترعاً لدقائق المعاني، وصواغاً لبليغ العبارات ، مؤلفاً بين الأشتات ، مستنزلاً العصم من إنه الكاتب المكثار ، الذي لا يدرك له شأو ، ولا يشق له غبار .

قال « ابن العميد »[32] يصف كتبه : « كتب « الجاحظ » تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً »[33] .

وقال « المسعودي »« يصفها على تشيعه ، وعثمانية « الجاحظ » « كتب الجاحظ » مع انحرافه المشهور ، تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء ، وسأمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة ، وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين ، وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به ، وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين ، وكتاب

---

(32) ابن العميد : هو الوزير الكاتب أبو الفضل محمد بن الحسين ، العميد . المعروف بالأستاذ الرئيس ، ينتمي إلى أصل فارسي ، اشتهر بالأدب والعلم ، وكان وزيراً لركن الدولة بن بويه ، ثم عضد الدولة بن بويه ، فساعد في تأسيس الدولة البويهية ، عرف بحسن الرأي والتدبير ، يقدر الأدباء ويقدرونه ، حتى مدحه الكثير منهم ، ويعد آخر الأدباء المجيدين بالعصر العباسي ، فقد قيل بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد ، توفي سنة 360 هـ .

(33) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ 1 ص 289 .

البخلاء ، وسائر كتبه في نهاية الكمال »[34] .

وقال « ابن العميد » : « ثلاثة علوم الناس كلهم فيها عيال على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى « أبي حنيفة » ، وأما الكلام فعلى « أبي الهذيل العلاف » ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن فعلى « أبي عثمان الجاحظ »[35] .

ويقول « ثابت بن قرة »[36] : « ما أحسد هذه الأمة العربية إلَّا على ثلاثة أنفس » .

فإنه عقم النساء فلا يلدن شبيهه : إن النساء بمثله عقم ، وجعل « ثالثهم « الجاحظ » (بعد « عمر بن الخطاب »[37] ، و « الحسن البصري »[38]) ، وفي صفته يقول : « خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ودرة المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى « سحبان » في البلاغة ، وإن ناظر ضارع « النظام » في الجدال . . . شيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، الخلفاء تعرفه ، والأمراد تصافيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب » . يقول « السيرافي »[39] : « وهذا قول ثابت ، وهو قول صحابي ، لا يرى للإسلام حرمة ، ولا للمسلمين حقاً ، ولا يوجب لأحد منهم ذماماً ، فقد انتقد هذا بعين لا غشاوة عليها من الهوى ، ونفس لا لطخ بها من التقليد ، وعقل ما تحيل بالعصبية . . . ثم يقول : ولكننا عجبنا فضل عجب من رجل

---

(34) المسعودي : مروج الذهب جـ 4 ص 47 ط الرحمانية بالقاهرة ، وص 109 ط دار الأندلس ـ بيروت .

(35) ياقوت : معجم الأدباء جـ 16 ص 103 .

(36) ثابت بن قرة : هو ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن إبراهيم بن مارنيوس ، ولد عام 211هـ أو221هـ ، وتوفي سنة 288هـ ، نبغ في الترجمة ، والطب ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، وكان رئيساً لمدرسة حرّان ، وله كتب في المنطق ، والحساب ، والهندسة .

(37) عمر بن الخطاب : الخليفة الثاني (قتله أبو لؤلؤة المحرسي عام 23هـ ، وهو يصلي الفجر) .

(38) الحسن البصري : هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري (توفي عام 110هـ) وهو سيد التابعين (رضي اللّه عنه) .

(39) السيرافي : هو الحسن بن عبد اللّه بن المرزبان السيرافي ، أبو سعيد . نحوي ، أديب ، معتزلي (توفي 368هـ) .

ليس منا ، ولا من أهل ملتنا ولغتنا . . . يقول هذا القول ويتعجب هذا العجب ، ويحسد أمتنا بهذا الحسد ، ويختم كلامه بـ « أبي عثمان » ويصفه بما يأبى الطاعن عليه ، إلَّا أن يكون له شيء منه »[40] .

* * *

هذه شهادات في « أبي عثمان » فقد كان يكتب عن ذهن صفي ، وطبع رخي ، جامعاً بين التحليل النفسي وبين البحث الشامل ، مع العناية باختيار قوالبه اللغوية ، ودقة تحليله للظواهر ، مع كشفه عن خفايا الافكار ، في ابتداع ، مستحسن ، وابتكار ليس له فيها سبق مثيل، ناقلاً القارىء من جد إلى هزل، حتى اشتهر بالسخرية في عصره ، وبقيت سخرياته تبدد اليأس عن النفس ، وتجلب الفرح إلى القلب ، وزخرت رسائله بالروح الفكهة ، حتى صار إماماً في هذا الفن ، بل وفي فن الكتابة .

ومن يقرأ كتبه : الحيوان ، البخلاء ، البيان والتبيين ، ورسائله ، يجد ذلك ماثلاً فيها ، ويجد استعداده للقصص يسوقه حلواً ، عذباً ، مستملحاً ، شهياً ، ناقلاً لمشاهده نقلاً واعياً دقيقاً ، في تصويره وتفصيله : « لو أنه عرف التمثيل لأسعفته ملكته في المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة »[41] .

* * *

(40) ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 99.

(41) د. شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ص 605.

الباب الثاني

السخرية في أدب الجاحظ

الفصل الأول :

« الجاحظ » والسخرية في الأدب العربي .

الفصل الثاني :

عوامل نبوغ « الجاحظ » في السخرية .

الفصل الثالث :

موضوعات السخرية في أدب « الجاحظ »

تمهيد

عاش « الجاحظ » في مجتمعه بعين الخبير النقادة ، وفكر الفيلسوف الحكيم ، فكشف عوار من شاء بسخريته ، فشملت من عرفهم ، ومن سمع بهم ، ومن قرأ لهم .

يقول في ذلك : « ولسنا من تسمية الأصحاب المنهتكين ، ولا غيرهم ، من المستورين في شيء . أما الصاحب ، فإنا لا نسميه لحرمته ، وواجب حقه ، والآخر لا نسميه ، لستر اللّه عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسمي من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينة »[1] .

سخر « الجاحظ » من كل تصرف غريب ، ومن كل قول عجيب ، وهزىء ممن جاوز حده ، وخالف مجتمعه ، طمعاً في رده إلى نصابه ، وإرجاعه إلى قرابه ، أو رغبة في التسلية والمرح ، والترويح عن النفس ، فلا عجب أن وجدنا تيار السخرية يسري في كل كتاباته ، وينتشر في جميع ما أثر عنه ، وما رُوِي من أقواله ، ولو كان الموضوع جداً ، أفكاره عميقة ، يمتلىء بالأدلة ، ويعتمد على البراهين ، أو دينياً كتفسير آية وشرح حديث ، بل لقد أفرد للسخرية رسائل كرسالة « التربيع والتدوير » لقد تناول بسخرياته شتى الموضوعات ، وتنوع الخصال ، وغريب الأوضاع .

وقبل أن نبدأ الحديث عن عوامل نبوغ « الجاحظ » في السخرية « الفصل الثاني » ، ونحدد موضوعات السخرية في أدبه « الفصل الثالث » ، سنكرس « الفصل الأول » للحديث عن السخرية في الأدب العربي ، قبل « الجاحظ » ، لنرى بناءها كفن ، وقد اكتمل على يديه ، مبينين أثرها في أدب من جاء بعده .

---

(1) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الجابري ، طبعة دار المعارف ، مصر ص 57.

الفصل الأول

"الجاحظ" والسخرية في الأدب العربي

● تمهيد عن (السخرية والضحك) .

● ألوان من السخرية :

أولاً : فكاهات الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ثانياً : مزح الصحابة والتابعين .

ثالثاً : سخريات الأدباء والأعراب حتى عصر « الجاحظ » .

رابعاً : « الجاحظ » يجعل من السخرية فناً أدبياً .

خامساً : أثر السخرية الجاحظية في الأدب العربي .

زخر أدبنا العربي بالسخرية والدعابة والضحك والفكاهة ، وتناثرت الصور الفكهة ، والنوادر المستملحة ، في مراجع الأدب الكبرى ، حتى جاء إمام الساخرين ، وشيخ المتندرين « أبو عثمان ، عمرو بن بحر الجاحظ » ، وأفرد للسخرية رسائل وكتباً ، فتأثر به من جاء بعده : كـ « ابن قتيبة » (276هـ) ، و « الوشاء » (325هـ) ، و « ابن الجوزي » (597هـ) ، و « الأسعد بن مماتي » (616هـ) ، و « ابن عبد ربه » (328هـ) ، و « أبو حيان التوحيدي » (414هـ) ، و « النويري » (732هـ) ، و « أبو الحسن علي نور الدين اليشبغاوي » (878هـ) ، و « يوسف الشربيني » (1098هـ) ، وكثر المؤلفون في الأدب الساخر في العصر الحديث .

* * *

والسخرية : الاستهزاء ، والسخرة ، والضحكة ، وسخر منه وبه ، وضحك منه وبه ، وهزىء منه وبه . وسخره : يسخر منه[1].

والدعابة : المزاح . والمداعبة : الممازحة ومن معانيها : اللعب والمضاحكة[2] . والمزح والمزاح : الدعابة ، ونقيض الجد . والمزاح ، والمزاحة أيضاً : الدعابة[3] والتهكم : الاستخفاف ، والعبث، والاستهزاء[4] .

والهزل والهزالة : الفكاهة[5] ، والفكاهة : من معانيها المزاح وفكه الرجل فهو فكه ، إذا كان طيب النفس مزاحاً ، ويقال فكههم بملح الكلام : أي أظرفهم والاسم : الفكيهة والفكاهة[6] .

* * *

والسخرية قديمة قدم الإنسان ، لأنها قد تكون ترويحاً عن النفس أو تسرية عن القلب ، أو استنكاراً لما يقع ، أو هزءاً وتندراً بالخصم ، كما جاء في قصة « نوح » (عليه السلام) ، حين أمر بصنع السفينة ليجمع فيها من كل زوجين اثنين ، وأهله ، وقرابته المؤمنين ، ومن اتبعه وآمن به . . . هزأ به قومه ، وضحكوا وقالوا :

يا نوح ، قد كنت بالأمس نبياً ، وأصبحت اليوم نجاراً !! فكان جواب « نوح » حاملاً الوعيد والتهديد عاقبة لتكذيبهم واستهزائهم ، قال تعالى : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾[7] .

---

(1) لسان العرب ، مختار الصحاح ، القاموس المحيط (مادة : س خ ر) .
(2) لسان العرب ، مختار الصحاح (مادة : د ع ب) ، والمخصص أيضاً ـ د 12 ، ص 19 .
(3) لسان العرب (مادة : ر ز ح) ، والمخصص ـ د 17 ، ص 19
(4) لسان العرب (مادة : هـ ك م) .
(5) المخصص : د 13 ، ص 19 .
(6) لسان العرب ، مختار الصحاح (مادة : ف ك هـ) ، والمخصص د 13 ص 19
(7) سورة هود : الآية 38

إن السخرية ، إذا قصد بها الاحتقار والاستصغار لغير سبب ظاهر ، فهي منهي عنها بنص القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . . .** ﴾[8] ، لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه « فإذا كان المسخور منه بليد الشعور لا يتأثر بما يلحقه من إهانات ، فإن النهي في هذه الحالة لا يتناوله ، بل يكون تحقيره ضرباً من المزاح الذي أحله اللّه » .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هواناً بها كانت على الناس أهونا[9]

والسخريات التي ملئت بها كتب الأدب العربي كانت من هذا القبيل ، لأنها تناولت الغفلة والتغافل ، والتناقض والتلاعب بالألفاظ والتهكم بالعيوب الخلقية ، والنفسية ، والجسدية ، والدعابة ، والحذلقة ، والرد بالمثل ، والتهكم الاجتماعي والسياسي ، والتخلص الفج ، والقلب والعكس ، وضعف العقل ، وغير ذلك .

والذي ساق المتندرين والساخرين إلى هذا ، خبرتهم بأن الإنسان يطرب ، بطبيعته للفكاهة، ويمدح الهشاشة ، ويستلذ البشاشة، قال «أرسطو»[10] : «إن (الملهاة) تطهر النفس ، كما تطهرها (المأساة) ، لأن النفس المطبوعة على الرحمة، أو على حسن الذوق، تجد في المأساة والملهاة متصرفاً لما تنطوي عليه من العطف والشوق إلى الكمال ، واجتناب التشويه »[11] .

وقال أيضاً : « والهزل أو المزاح تمثيل الصغار من غير غضب يقترن بهذا التمثيل ، ومن غير إيلام للمحاكى . . . إن المستهزىء تتسم سحنته بالفرح والانبساط ، لا بالانقباض والغم والأذى ، فالمضحك نوع دميم أو مشوه ، لا يبلغ حد الإيلام لنا أو الإيذاء »[12] .

---

(8) سورة الحجرات : الآية 11.

(9) الشيخ سيد سابق : إسلامنا ، طبعة المطبعة الحديثة ، مصر ، 1976 م ، ص 284.

(10) فيلسوف يوناني (384 - 322ق.م) كان تلميذاً لأفلاطون وصديقاً له ، ولكنه القائل « أفلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن الحق أصدق منه » .

(11) أرسطو ، فن الشعر ، ص 173 (تحقيق عبد الرحمن بدوي) والحوفي الفكاهة في الأدب العربي ، ص 10.

(12) أرسطو : فن الشعر ، من ترجمة ابن سيناء ، ص 174
وعباس محمود العقاد : جحا الضاحك المضحك ، ص 53.

ولأن الفكهين المتندرين ، يريدون للنادرة أن تستحوذ على القلب حتى تبلغ مبلغها من الإضحاك ، رأوا أن تكون النفس خالية هادئة . قال « برجسون »[13] : « . . وإن مجتمعاً مؤلفاً من عقول محضة ، ربما لا يبكي أبداً ، ولكن يظل يضحك . أما النفوس المتأثرة دائماً المتصلة بأوتار الحياة ، فإنها تهتز للعواطف هزات عاطفية ، ولذلك لن تعرف الضحك »[14] .

ويرى هذا الفيلسوف : أن الإنسان حينما يضحك إنما يضحك بعقله لا بقلبه ولا شعوره ، فلكي يضحك الإنسان لا بد أن يتوقف قلبه لحظة عن الشعور ، كما يقرر أن العقل الضاحك لا يمكن أن يضحك وحده ، بل لا بد له من عقول تشاركه وتجاوبه حتى يتأثر بالشيء المضحك فيضحك ، ويقول في هذا الصدد : « فلكي يُحدث المضحك ما يُحدثه من تأثير ، لا بد أن يتوقف القلب برهة عن الشعور ، لأنه يتوجه إلى العقل المحض ، وينبغي لهذا العقل أن يكون على صلة بعقول أخرى ، وهذه هي النقطة التي أردنا أن نلفت إليها النظر ، فنحن لا نتذوق المضحك في حالة شعورنا بالعزلة ، والضحك في حاجة إلى صدى »[15] .

وقد سبق « الجاحظ » الفيلسوف الفرنسي « برجسون » ، إلى تقرير هذه الحقيقة ، حيث قرر « الجاحظ » أن الضحك لا بد له من جماعة تشترك في انفعال واحد ، وأن الضحك ضحك الإنسان وحده لا يكون على قدر مشاركة الأصحاب . ففي معرض حديثه عن حادث عرض له ، وضحك منه مع «محفوظ النقاش»[16] ، يقول « الجاحظ » : « . . . فما ضحكت كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً ، فما هضمه إلاَّ الضحك ، والنشاط والسرور فيما أظن ، ولو كان معي من يفهم طيب ما

---

(13) هنري برجسون (1859 - 1941م) فيلسوف فرنسي معاصر من أنصار مذهب الحدس .

(14) برجسون : الضحك ، ص 15 .

(15) هنري برجسون : الضحك ، ترجمة سامي الدروبي ، ص 15 وعباس محمود العقاد جحا الضاحك المضحك ، ص 35 وما بعدها ود. عبد الحكيم بلبع : النثر الفني ، ص 275 ، ود . أحمد الحوفي : الفكاهة في الأدب ، ص 11

(16) يبدو أنه أحد أصدقاء « الجاحظ » وأصفيائه .

تكلم به لأتى على الضحك ، ولقضى علي ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الصحاب »[17] .

* * *

وقد اتخذ المرح والسخر ، في أدبنا العربي ، ألواناً شتى وأساليب عدة نجعلها فيما يلي :

أولاً : مزاح رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وسلم) ومداعبته :

قال صلى اللَّه عليه وسلم : « لا خير فيمن لا يَطرَب ولا يُطرِب»[18].

وقال صلى اللَّه عليه وسلم : « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلت عميت »[19] .

وكان ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ « من أفكه الناس مع صبي ، وكان من أفكه الناس إذا خلا مع أهله »[20] .

وقد كان يمازح ويداعب بالكلام من أجل السرور والمؤانسة ، واستمالة القلوب، مع تجنب إيذاء الغير. قال أبو هريرة[21]: قالوا: يا رسول اللَّه ، إنك تداعبنا ، قال : « إني وإن داعبتكم فلا أقول إلاَّ حقاً »[22] .

ومن مداعباته عليه السلام ، التي اتخذت لوناً من التورية أو الكناية :

1 ـ عن «أنس»[23] أن رجلاً قال: يا رسول اللّه ، احملني (أي أعطني دابة أركبها)

---

(17) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 123 - 124

(18) النويري : نهاية الأرب ، د 4 ، ص 2 ، وابن عبد ربه : العقد الفريد جـ 3 ، ص 307 .

(19) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، د 3 ، ص 307 والنويري نهاية الأرب ، د 4 ، ص 1 .

(20) لسان العرب (مادة : ف ك هـ) .

(21) أبو هريرة (هو عبد الرحمن بن صخر) من أكثر الصحابة رواية للحديث لملازمته للرسول صلى اللَّه عليه وسلم وكني بهذه الكنية لهرة صغيرة كان يلعب بها في صغره مات بالمدينة سنة تسع أو ثمانٍ وخمسين وله من العمر ثمان وسبعون سنة .

(22) رواه « الترمذي » .

(23) أنس : أنس بن مالك خادم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وسلم) عشر سنين دعا له رسول اللَّه بالبركة في ماله فكان

فقال (صلى اللَّه عليه وسلم) : « إنا حاملوك على ولد الناقة » ، قال الرجل : « وما أصنع بولد الناقة ؟ » ، فقال له النبي صلى اللَّه عليـه وسلـم : « وهل تلد الإبل إلَّا النوق ؟ »[24] .

2 ـ وعن أنس ، أيضاً كان النبي (صلى اللَّه عليه وسلم) يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير : « يا أبا عمير ، ما فعل النُّغَيْر ؟ »[25] .

3 ـ وعن « الحسن »[26] : أنه (صلى اللَّه عليه وسلم) قال لامرأة عجوز يوماً : « لا يدخل الجنة عجوز » فحزنت ، فقال لهـا : « إنك لست يـومئذ بعجـوز » ، ثم قرأ : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكاراً * عرباً أتراباً** ﴾[27] .

4 ـ وقال « زيد بن أسلم »[28] إن امرأة يقال لها « أم أيمن » جاءت إلى النبي (صلى اللَّه عليه وسلم) فقالت : إن زوجي يدعوك . قال : ومن هو ؟ أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت : واللَّه ما بعينه بياض . قال (صلى اللَّه عليه وسلم) : إن بعينه بياضاً[29] . فقالت : لا واللَّه . فقال (صلى اللَّه عليه وسلم) : ما من أحد إلَّا وبعينه بياض .

ثانياً : سخريات بعض الصحابة وفكاهات بعض السلف الصالح :

وكمـا داعب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليـه وسلم) ومـازح ، فقـد فعـل ذلـك صحابته الكرام ، والتابعون لهم بإحسان :

= له بستان يحمل مرتين في السنة وفي ولده فكان أكثر الصحابة ولداً ، وبطول عمره فعاش مائة سنة وبمغفرة ذنبه فكان يقول : « وإني لأرجو الرابعة » . ولد بالمدينة سنة 10 قبل الهجرة ، ومات سنة 93هـ) .

(24) رواه « الترمذي » ، و « أبو داود » .

(25) رواه الترمذي و « أبو داود » والنُّغير تصغير نُغْر ، وهو البلبل .

(26) الحسن هو الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي اللَّه عنـه) سبط رسول اللَّه (صلى اللَّه عليـه وسلم) ولد في المدينة المنورة سنة 3هـ ، وتوفي مسموماً سنة 50هـ .

(27) رواه « الترمذي » و « أبو داود » و « أتراباً » : جمع ترب ، أي مستويات في السن .
والآيات من سورة الواقعة : الآيات 35 - 37 .

(28) زيد بن أسلم . صحابي من صحابة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وسلم) الأجلاء راوية للحديث .

(29) رواه « الترمذي » و « أبو داود » . والمقصود بـ « بياض العين » : البياض المحيط بالحدقة .

1 ـ قال « عمرو بن العـاص »[30] لـ « معاويـة »[31] : رأيت البارحـة في المنام كـأن القيامة قد قامت ووضعت الموازين ، وأحضر الناس للحساب ، وأنت واقف قد ألجمك العرق ، وبين يديك صحف كأمثال الجبال . فقال معاوية : فهل رأيت شيئاً من دنانير مصر[32] ؟ .

فـ « عمـرو » عرض بـذنوب « معـاوية » ، و « معـاوية » عـرض باستغـلال « عمرو » لولايته على (مصر) ، وغناه منها .

2 ـ لقي «ابن أبي عتيق» عمته السيدة «عائشة»[33]، وهي على بغلة، وقال لها: إلى أين يـا أماه ؟ قـالت : لأصلح بين حيين تقـاتـلا . فقـال : عـزمت عليـك إلاّ رجـعتِ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل[34] ، حتى نرجع إلى يوم البغلة[35]! .

3 ـ دخل « شريك بن الأعور »[36] على « معاوية بن أبي سفيان » ـ وكان « شريك » دميمـاً ـ فقال لـه «معاويـة»: إنك لـدميم ، والجميل خيـر من الدميم ، وإنـك لشريك وما للّه شريك ، وإن أباك الأعور ، والصحيح خير من الأعور ، فكيف سـدت قومـك ؟ فقال لـه : إنك « معـاوية » ، ومـا « معاويـة » إلاّ كلبة عـوت فاستعوت الكلاب ، وإنك « ابن صخـر » ، والسهل خيـر من الصخر ، وإنـك « ابن حرب » ، والسلم خير من الحرب ، وإنك « ابن أمية » ، وما أمية إلاّ أمة صُغّرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ ثم خرج وهو يقول :

أيشتمني «معـاوية بن حـرب» وسـيفي صارم، ومعي لساني؟
وحـولي من ذوي يـزن ليـوث ضـراغمة تهش إلى الـطعـان
يعيـر بـالـدمـامـة من سـفـاء وربات الحجال من الغواني[37]

---

(30) عمرو بن العاص ، بن وائل بن سهم بن سعيد بن سعد توفي بمصـر وله تسعـون سنة صحـابي مجاهـد من كبار الفاتحين في الإسلام . وكانت وفاته سنة 43هـ.

(31) معاوية بن أبي سميان : كاتب الوحي لرسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) أسلم عام الفتح ، ولي الشام من قبل عمر ثم أسس الدولة الأموية سنة 40هـ وتوفي بدمشق وله من العمر تمان وسبعون سنة

(32) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، جـ 1 ، ص 318

(33) عائشة : أم المؤمنين وزوجة رسول اللّه ﷺ وابنة أبي بكر الصدّيق .

(34) يشير إلى موقعة الجمل بين أنصار علي وأنصار معاوية .

(35) صادق الملائكة : ذوو الفكاهة ، ص 107

(36) شريك بن الأعور بن أبي أنمر الليثي .

(37) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، جـ 1 ، ص 55.

4 ـ كان «أبو الأسود الدؤلي»[38] جالساً في دهليز، وبين يديه رطب، فجاءه رجل من الأعراب يقال له : « ابن أبي الحمامة » فسلم ثم قال : هل أدخل ؟ قال « أبو الأسود » : وراءك أوسع لك . قال الأعرابي : إن الرمضاء قد أحرقت رجلي . قال أبو الأسود : بُلْ عليها أو أقصد الجبل فاستظل به . قال الأعرابي : هل عندك شيء تطعمنيه ؟ قال «أبو الأسود» : نأكل ونطعم عيالنا ، فإن فضل شيء فأنت أحق به من الكلب . قال الأعرابي : ما رأيت قط ألأم منك ، أنا ابن أبي الحمامة . قال « أبو الأسود » : كن ابن أبي طاوسة . وألقى إليه ثلاث رطبات ، فوقعت إحداهن في التراب ، فأخذها الأعرابي ، وجعل يمسحها بثوبه فقال له « أبو الأسود » : دعها ، فإن الذي تمسحها منه ، أنظف من الذي تمسحها به . فقال الأعرابي : إنما كرهت أن أدعها للشيطان . قال « أبو الأسود » : لا ، واللّه ولا لـ « جبريل »[39] و « ميكائيل »[40] تدعها[41] .

5 ـ سأل أعرابي « عبد الملك » ، فقال له : أسأل اللّه . فقال الأعرابي : سألته فأحالني عليك . فضحك منه وأعطاه[42] .

6 ـ عزل الوليد بن عبد الملك بن مروان[43] أخاه عبد اللّه عن ولاية مصر ، وولى مكانه « قرة بن شريك العبسي » (90 - 99هـ) ، وكان ظلوماً عسوفاً ماجناً ، فكتب شاعر مصري إلى الوليد : عجبت ما عجبت حين أتانا أن قد أمرت قرة بن شريك :

وعزلت الفتى المبارك عنا ... ثم قيلت فيه رأي أبيك[44]

---

(38) أبو الأسود الدؤلي البصري أول من أسس النحو ، وأول من نقط المصحف وكان من سادات التابعين ، وكان شيعياً . توفي سنة 67هـ بطاعون الجارف .

(39) جبريل : ملك من ملائكة اللّه ، وهو سفير اللّه ـ بالوحي ـ إلى أنبيائه .

(40) ميكائيل : ملك من ملائكة اللّه ، وهو الموكل بالأرزاق .

(41) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ 11 ، ص 104 .

(42) محاضرات الأدباء : د ، ص 340 .

(43) الوليد بن عبد الملك بن مروان بويع بالخلافة سنة 125هـ ثم قتل بالبخراء وعمره أربعون سنة .

(44) السيوطي : حسن المحاضرة جـ 2 ، ص 7 .

وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ 1 ، ص 244 قيلت : أبطلت .

فالشاعر يتهكم بـ « الوليد » : لعزلة الوالي الصالح الذي ولاه أبوه ، وتولية الفاسد مكانه .

7 ـ جلس « أبان بن عثمان »[45] في حديقه قصره المثمرة المزدهرة ، مجلسه الفكه المعتاد ، وكان من جلسائه « أشعب الطماع » المزاح ، ولم يكن يشغل أشعب في مجلسه إذ ذاك إلاَّ الضحك ، ثم أقبل أعرابي ومعه جمل قوي معجب ، فقال « أبان » : ادعوا لنا هذا الأعرابي لنبلوه . فأسرع إليه غلام « أبان » ، وقال له : إن الأمير « أبان بن عثمان » يدعوك . فسأله الأعرابي : ولم ؟ وليس وقتي يتسع للقائه . فقال له الغلام : لا تعجل ، فعسى أن تجد في لقائه خيراً يسرك فقال الأعرابي : ما لقيت خيراً في لقاء أحد من الأمراء ، وليس أميرك إلاَّ على شاكلتهم . لكن الغلام جعل يحلم عليه ويحاوره ، وما زال به حتى مشى معه إلى الأمير ، فسلم في صوت خشن غليظ كأنه ضبع من ضباع البادية ، مشتمل بشملة ، ثم جلس القرفصاء كأنه يصطلي ، فسأله « أبان » عن نسبه ، فانتسب له ، فقال له : يا خال ، إني منذ زمان أطلب جملاً مثل جملك هذا ، في ضخامته ، وارتفاعه ، وهامته ، وقوائمه وأخفافه ، والحمد للَّه أن جعل طلبي عندك ، فهل تبيعني جملك ؟. فقال الأعرابي : نعم ، أيها الأمير ، بكم ؟. فقال « أبان » : بمائة دينار ، تقبضها الساعة فسر الأعرابي ، وانتفخ ، وأيقن أنه قد تغفل الأمير ، وحدث نفسه بأن جمله لا يساوي أكثر من ثلاثين ديناراً ، فإما أن يكون الأمير مضطراً إلى شرائه جاهلاً بأثمان الإبل وإما لمزية فيه لم يجدها في غيره حقاً فلم يسوم جمله بما يستحقه ، وإما أنه رزق ساقه اللّه إليه .

ونظر « أبان » إلى الأعرابي فتبين في وجهه الطمع ، وأثر المفاجأة واستعظام الثمن ، فأقبل على « أشعب » وقال له : ويحك يا أشعب ، إن خالي هذا من أهلك وأقاربك ، يريد أنه على شاكلته في الطمع ، فأوسع له مما عندك . فأجاب « أشعب » في خبث : نعم ، وسأزيده على ما قلت .فقال « أبان » : يا خال ، إنما زدنك في

(45) أبان بن عثمان بن عفان (رضي اللّه عنه) . ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

الثمن على بصيرة من أن الجمل يساوي ستين ديناراً، ولكنني بذلت لك مائة دينار، وسأعطيك بها عروضاً لقلة النقد عندنا . فازداد الأعرابي طمعاً ، إذ منى نفسه بأن أشعب سيزيده ، وبأنه سيأخذ عروضاً قيمتها أكثر من مائة دينار ، ثم يذهب فيبيعها بأكثر من قيمتها ، فقال : قد قبلت ذلك أيها الأمير .

ومال « أبان » على « أشعب » ، وأسر إليه حديثاً . فذهب « أشعب » وعاد يحمل شيئاً مغطى ، فقال له « أبان » : أخرج ما جئت به . فأخرج عمامة بالية تساوي أربعة دراهم ، فنظر إليها الأعرابي في دهشة وجزع وقال « أبان » لـ « أشعب » : قومها يا أشعب . فقال : هذه عمامة الأمير ، يشهد فيها الأعياد ، والجمع ، ويلقى فيها الخلفاء ، قيمتها خمسون ديناراً . فقال له «أبان»: ضعها بين يدي الأعرابي . فأخذ الأعرابي ينظر إليها مذهولاً ، فاغراً فاه يهم أن يركلها أو يطوحها بيده ، لكنه أمسك حتى يعرف عاقبة ما يفعل هؤلاء المجانين وراءه أن « أبان » قال لكاتبه : أثبت قيمتها . فكتب قيمتها . ثم قال «أبان»: اخرج ما معك ، يا أشعب . فأخرج قلنسوة طويلة بالية، قد علاها الوسخ والدهن، لا تساوي درهماً، فقال «أبان»: قومها، يا أشعب . فقال : قلنسوة الأمير ، تعلو هامته ، ويصلي فيها الصلوات الخمس ، ويجلس فيها للحكم ، قيمتها ثلاثون دينار . فقال « أبان : ضعها بين يدي الأعرابي . وقال لكاتبه : أثبت قيمتها . فاربد وجه الأعرابي ، وجحظت عيناه ، وفغر فاه ، وهم بأن يثب من مكانه ، ولكنه تماسك ليرى ما بقي من أحوال المجانين ثم قال « أبان » لـ « أشعب » : هات ما بقي عندك فأخرج خفين خلقين ، قد نصل لونهما، وذهب بهاؤهما. فقال له «أبان»: قوم، يا أشعب. فقال: خف الأمير يطأ به الروضة، ويعلو به المنبر، قيمته أربعون ديناراً . فقال « أبان » : ضعه بين يدي الأعرابي . وقال لكاتبه : أثبت قيمته . فبلغ الغيظ من الأعرابي مبلغه ، وزمجر زمجرة ، قطعها «أبان» بقوله: اضمم إليك متاعك يا أعرابي، ويا غلام، قم مع الأعرابي، واقبض لنا ما بقي عليه من ثمن المتاع الذي أعطيناه، وهو عشرون ديناراً.

كان الجالسون مع « أبان » يكتمون ضحكاتهم فتهتز أجسامهم ، وينظرون إلى الأعرابي ، ولا ينظر بعضهم إلى بعض ، مخافة أن يغلبهم الضحك فيفسد ما دبر أبان و « أشعب » وما أطلقهم من كتمانهم هذا إلَّا أن الأعرابي أمسك العمامة ، والخفين

في حركة سريعة خاطفة ، وضرب بها وجه القوم في غير مبالاة ، ونهض كـالمجنون وجرى إلى بعيره ، فأخذ بزمامه ، ومضى وهو يصيح : متاع لا يساوي بعرات يريدون أن يقدموه ثمناً لك ! .

فضحـك « أبان » حينـذاك حتى استلقى ، وضحك من معـه حتى استلقـوا ، و « أشعب » يقـول للأعـرابي في صوت جهيـر : عد لنـزيدك . فـرد عليه الأعـرابي بقوله : تركت لك الأصل والزيادة ، فاهنـأ بما معـك من خلقان ، فـإنها قيمتـك يا شيطان[46] .

هذا . . ولقد اشتهر بعض الصحابة بالفكاهة وحب الدعابـة ، كأبي هـريرة ، وعلي بن أبي طالب الذي قال : أجموا هذه القلوب، والتمسوا لها طرف الحكمـة، فـإنها تمـل كما تمـل الأبدَان، والنفس مؤثـرة للهوى آخذة بالهوينى، جانحة إلى اللهو، وطالبة للراحة، فإن أكرهتها أنصبتها وإن أهملتها أرديتها[47] .

وتناول السخرية والدعابة كثير من السلف ، كـ « أبي الأسود الدؤلي » ، و « أبو دلامـــة »[48] ، و « أبـــو عـتـيــق » ، و « الأصـمـــعـي »[49] ، و « الأعــمش »[50] ، و « هشام بن عبد الملك »[51] وغيرهم .

---

(46) النويري : نهاية الأرب ، جـ 4 ، ص 34 .
ود. أحمد الحوفي : الفكاهة في الأدب العربي ، ص 355 - 359 .

(47) النويري : نهاية الأرب ، جـ 4 ، ص 1 . وابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 306 .

(48) أبو دلامة : هو زيد بن الجون ، كوفي أسود ، من موالي بني أسد ، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم ، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يكن له أيام الدولة الأولى شأن ، لكن نجمه تألق في الدولة العباسية ، فقربه السفاح والمنصـور والمهدي ، لدعـابته وخفـة ظله ، له أشعـار في وصف الريـاض والشراب تـوفي سنة 161هـ .

(49) الأصمعي : سبق التعريف به (انظر هامش 9 : الفصل الأول الباب الأول) .

(50) الأعمش : هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي بالولاء ، الملقب بـ « الأعمش » محدث الكوفة وعالمها في زمانه ، ولد سنة 61هـ وتوفي سنة 148هـ .

(51) هشام بن عبد الملك بن مروان : بويع بالخلافة سنة 105هـ ، وتوفي بأرض فسرين سنة 125هـ ، وهو ابن ثلاث وخمسون سنة ، فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر واحدى عشرة ليلة ، وكان أحول ، خشناً ، فظاً ، غليظاً ، أخذ الناس بالشدة (فلم يُر زمان أصعب من زمانه) .

وكان بجوار هؤلاء المتندرين من يكره المزاح، وينفر من السخر والتندر ولكن « سعيد بن العاص »[52] دعا إلى الاعتدال في المزاح ، وأوصى ابنه بذلك قائلاً : « اقتصد في مزاحك ، فالإفراط به يذهب البهاء ، ويجري عليك السفهاء وتركه يقبض المؤانسين ، ويُوحش المخالطين»[53] .

والتوسط بين الأمرين هو الذي نادى به « الجاحظ » : « وللمزح موضع وله مقدار ، متى جاوزهما أحد ، وقصّر عنهما أحد ، صار الفاضل خضلاً (خطأ) والتقصير نقصاً ، والناس لم يعيبوا الضحك إلَّا بقدر ، ولم يعيبوا المزاح إلَّا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك ، صار المزاح جِدًّا ، والضحك وقاراً »[54] .

ثالثاً : سخريات ومزاح الأدباء والأعراب والمتندرين حتى عصر «الجاحظ» .

العرب بطبيعتهم، يميلون إلى الظرف، وخفة الروح، والسخرية والتهكم، والمزاح والفكاهة ، إيثاراً للضحك والمرح ، وسرور النفس ، وانشراح القلب ، فرصعوا كتاباتهم بغرر الطرائف والدعابات ، فشفّت بنفثات سحرهم وقوة روحهم ، فتعددت ألوانها واختلفت طرائقها ، لأنها عبرت عن واقعهم المعاش وحياتهم الملموسة ، نوجزها فيما يلي :

(أ) القلب وعكس المراد من الجواب أو الجواب ، لون من السخر والفكاهة . وقد جاءت نوادر شتى من هذا اللون ، منها :

1 ـ دخل « سفيان بن عيينة »[55] (الكوفة)[56] في يوم مطير، فإذا كناس فتح مرحاضاً

---

(52) سعيد بن العاص، بن سعد بن العاص بن أمية سري من سراة المدينة المشهورين ولي امارة الحرمين في خلافة معاوية حتى توفي سنة 59هـ وأحاديث كرمه كثيرة .

(53) محاضرات الأدباء ، جـ 1 ، ص 178 .

(54) الجاحظ : البخلاء جـ 1 ، ص 29 .

(55) سفيان بن عيينة: هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي الكوفي كان محدثاً كثير الرواية ثقة ، توفي سنة 197هـ (البيان والتبيين جـ 1 ص 175) .

(56) الكوفة : أسس العرب مدينة الكوفة سنة 17هـ ، عندما ضاقوا بالبصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها واتخذها « علي بن أبي طالب » ـ فيما بعد ـ حاضرة للخلافة ، بدلاً من « المدينة المنورة » .

ووقف على رأس البئر وهو يقول :

بلدة طيبة ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير

ثم قال لصاحبه : انزل . فأبى صاحبه ، فنزل وهو يقول :

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من يطيق النزولا[57]

قيل : البيت الأول في الإشادة ببلدة جميلة في يوم مطير ، وقيل : في الإعجاب بروضتها وبغديرها ، وشتان ما بين هذا ، وما يراه القائل . وقيل الثاني في الاندفاع إلى الحرب عند جبن الأعداء وإن كانوا أشاوس ، وأين من هذا نزول القائل إلى ما نزل فيه ؟

2 ـ ساوم « أشعب » رجلاً في قوس ، فقال الرجل : أقلُّ ثمن لها دينار . قال « أشعب » : واللّه لو أنك إذا رميت بها طائراً في السماء ، فوقع مشوياً بين رغيفين ، ما اشتريتها منك بدينار أبداً[58] .

3 ـ رأى « الحسن » عَلَىٰ رجُلٍ طيلسان صوف ، فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟ قال : نعم . إنه كان على شاةٍ قبلك[59] .

4 ـ قالت امرأة لـ « أشعب » : هب لي خاتمك . قال : لماذا ؟ قالت : لأذكرك به قال : اذكريني بالمنع[60] .

❊ ❊ ❊

(ب) السخرية والتهكم بالبخل ، والجبن ، والشره ، والصفاقة ، والغرور ، والجبن :

---

(57) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 333 .

(58) الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، جـ 3 ، ص 291 ، وابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 329 ، وأبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ 17 ، ص 92 .

(59) أبو هلال العسكري : الصناعتين ، ص (143)

(60) أبو هلال العسكري : الصناعتين ، ص 19 والأغاني : جـ 17 ، ص 91

1 ـ قال « الرشيد »[61] لـ « الجماز »[62] : كيف مائدة محمد بن يحيى البرمكي[63] ؟ فقال : شبر في شبر ، وصفحة من قشر الخشخاش ، وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة ، وبين اللون واللون فترة نبي . قال الرشيد : فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون . فضحك « المهدي » ، وقال : لحاك اللّه من رجل[64] .

2 ـ قال «أشعب» : ابعثوا لي امرأة أتجشأ في وجهها فتشبع ، وتأكل فخذ جرادة فتتخم[65] .

3 ـ وقال «أبو الشمقمق مروان بن محمد »[66] في طعام « جعفر بن زهير »[67] :

رأيت الخبز عز لديك حتى ... حسبت الخبز في جو السماء
وما روحتنا لتذب عنا ... ولكن خفت مرزئة الذباب[68]

---

(61) الرشيد : هو أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد بن المنصور العباسي ، بويع بالخلافة سنة 170هـ ، وتوفي سنة 193هـ .

(62) الجماز : هو عبد اللّه محمد بن عمرو، ماجن من أصحاب النادرة بالبصرة، كان رفيقاً لأبي نواس، وكانا يجلسان معاً إلى « أبي عبيدة » (البخلاء: ص 347) وقد أعجب به المتوكل يوماً فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فأخذها وانحدر ، ومات فرحاً بها ! (البيان والتبيين جـ 3 ص 129) .

(63) محمد بن يحيى البرمكي : هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي ، ولكنه أقلهم شهرة وأضعفهم نفوذاً حبس في (الرقة) ، ثم أطلقه (الأمين) ، ثم اتجه نحو المأمون وما يدري ما كان من أمره بعد (البخلاء : ص 343) .

(64) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، جـ 2 ، ص 58.

(65) ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ 1 ، ص 22.

(66) أبو الشمقمق مروان بن محمد : من أعظم شعراء عصره تعبيراً عن الفقر ، وتسجيلاً لصور الجماعات الدنيا وخروجاً على التقاليد الشعرية السائدة في عصره ، وكان قبيح الشكل ، ولكنه حظي بشعبية واسعة في زمنه ، (البخلاء : ص 345 ، 346) .

(67) جعفر بن زهير : ذكره الجاحظ في البخلاء ص 72ت الحاجري فقال : « وكان أبو الشمقمق يعيب في طعام جعفر بن أبي زهير وكان له ضيفان في ضيافة جعفر وهو مع ذلك يقول :

رأيت الخبز عز لديك حتى ... حسبت الخبز في جو السماء

(68) عيون الأخبار ، جـ 2 ، ص 36 ، والعقد الفريد جـ 3 ، ص 234.

روح : بمعنى يروح عليهم ليطرد الذباب . مرزئة : مصيبة ، نخشى أن يحمل الذباب معه شيئاً من الطعام .

4 ـ صحب الغاضري[69] قرشياً من (مكـة)[70] إلى (المدينـة)[71] ، فقال القـرشي لغلامه : يا غلام ، أطعمنا دجاجة . فأتى بها باردة ، فقال القرشي : ويحك ! أسخنها . ورفع غداؤهم ، ولم يحضر الغلام الدجاجة . فلما كان العشاء ، قال القرشي لغلامه : يا غـلام ، هات عشـاءنا . فلمـا أتاهم بـه قال : هـات تلك الدجاجة . فأتى بها باردة ، فقال له : أسخنها. فقال « الغاضري » : أخبـروني عن دجاجتكم هذه ، أمن آل فرعون هي[72] ؟ فإني أراها تعرض على النار غدواً وعشياً . فقال « القرشي » : ويحك يا غاضري ، أكتمها علي ، ولك مني مائة دينار . فقال : واللّه ما كنت لأبيعها بشيء[73] .

5 ـ كان «أمية بن عبد اللّه بن خالد»[74] أكولاً جَبانـاً . فقـال فيه بعض العـرافين ، ساخراً :

إذا صـوت العصفـور طـار فؤاده   وليث حديد النـاب عبد المـوائد

وقال فيه أيضاً :

ضـعيـف العـقــل رعـديــد   عــظيـم الـخـلق والـمـنــظر
رأى فـي الـنــوم عـصــفــوراً   فــوارى نـفـســه أشـهــر[75]

6 ـ قال « ابن أبي الأسود »[76] في السخرية ـ بأكول منهم :

---

(69) الغاضري : أحد المصطنعين للنادرة ، والمعروفين بها من أهل المدينة وقد كان معاصراً لأشعب ومنافساً له في باب الطمع ، عاش إلى عهد المنصور البخلاء ص 405 .

(70) مكة : تأسست مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي وتقع في قلب الحجاز في منخفض تحيط به التلال .

(71) المدينة : هي إحدى مدن الحجاز المتحضرة ، وكانت تسمى « يترب » وتقع فوق هضبـة بلاد العـرب الوسـطى وتمتاز معظم أراضي المدينة بسهولة التربة ، وبكثرة الآبار والأشجار .

(72) فرعون : علم على كل ملك من ملوك مصر القدماء ، المؤرخون يرجحون أن فرعون موسى هو « منفتاح » رابـع الفراعنة في الأسرة التاسعة .

(73) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ 3 ، ص 236 .

(74) أمية بن عبد اللّه بن خالد بن يزيد بن أسد أحد سادة العصر الأموي .

(75) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 1 ، ص 170

(76) ابن أبي الأسود الدؤلي . لعلهُ هو أبو الأسود الدؤلي وقد سبقت ترجمته .

كـأنمـا فيـه أحجـار الـرحـا وكـأنمـا في جـوفـه تنـور[77]

7 ـ أفطر « أشعب » في (رمضان) مع « زياد بن عبد اللّه الحارثي »[78] ، فجاءوا بمضيرة فقال « أشعب » للخادم : ضعها بين يدي فوضعها بين يديه ، فأمعن فيها ، و« زياد » ينظر إليه . فلما فرغوا من الأكل ، قال « زياد » : ما أظن لأهل السجن إماماً يصلي بهم في هذا الشهر ، فليصل بهم « أشعب » . فقال « أشعب » : أصلحك اللّه قال : وما هو؟ . قال : أحلف بالطلاق ألا أذوق (مضيرة) أبداً . فضحك « زياد »[79] . . . » .

* * *

وسخروا بالجور في الحكم :

8 ـ قال المتوكل الليثي[80] في «الشعبي القاضي» (وكانت امرأة وضيئة صبيحة الوجه خاصمت زوجها ، فقضى لها الشعبي[81] على زوجها) :

فتـن الشعـبي لـمـا رفـع الـطرف إلـيـهـا
فـتـنـتـه بـبـنـان وبـخـطى حـاجـبـيـهـا
فقضى جوراً على الخصيم ولـم يـقض عـلـيـهـا
كـيـف لـو أبـصـر منها نحرهـا، أو سـاعـديهـا؟
لـصـبـا حـتى تـراه سـاجـداً بـين يـديـهـا

(77) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني جـ 17 ص 83.

(78) زياد بن عبد اللّه الحارثي : خال السفاح ، ولي المدينة ومكة والطائف واليمامة شارك في تثبيت أركان الدولة العباسية بقي في ولايته من سنة 133 هـ حتى عزله أبو جعفر المنصور .

(79) ابن عبد ربه : الأغاني جـ 17 ، ص 83 ، وفوات الوفيات جـ 1 ، ص 22 والمضيرة (كما أسلفنا) لحم يطبخ باللبن الحامض .

(80) المتوكل الليثي : ذو الأهدام هو متوكل بن عياض بن حكم ، ويسمى المتوكل الكلابي ، وهو كذلك لقب لنويفع ، أو نافع بن سوادة الضبابي وقد هجا كل منهما الفرزدق بشعر ، فرد عليهما الفرزدق بنقيضة طويلة ، في النقائض (انظر المؤتلف ص 179 ومعجم المرزباني ص 410 ، القاموس المحيط) .

(81) الشعبي القاضي : أبو عمرو عامر بن شراحيل بن معبد الشعبي الإمام ، البحر ، الحبر ، العلامة ، العلم ، مضرب المثل في العلم واليقين والفهم والتقوى .

فولع الناس بهذه الأبيات وتناشدوها ، حتى اضطر « الشعبي » إلى الاستغناء عن القضاء[82] .

وكان لسخرهم أيضاً من الغباء :

9 ـ جاء رجل إلى « بشار بن برد »[83] فسأله عن منزل رجل ذكره له ، فجعل « بشار » يصفه له ، ويفهمه ، فلا يفهم ، فأخذ « بشار » بيده ، ومشى به يقوده إلى أن بلغ منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيراً، لا أبا لكمُ   قد ضل من كانت العميان تهديه

فلما وصل إلى منزل الرجل ، قال له : هذا منزله يا أعمى[84] . .

10 ـ لما ضرب « بشار » في هجائه للخليفة « المهدي » ، كان إذا أصابه السوط قال : حسن[85] . فقال بعضهم : انظروا إلى زندقته ، كيف يقول « حسن » ولا يقول « باسم اللَّه » ؟! فقال « بشار » : ويلك ! أطعام هو ، فأسمي اللَّه عليه ؟! فقال آخر : أفلا قلت « الحمد للَّه » ؟ فقال « بشار » : أَوَنعمة هي فأحمد اللَّه عليها[86] ؟! .

11 ـ دخل رجل على « الشعبي » ، وامرأته معه في البيت ، فقال : أيكما الشعبي ؟ قال الشعبي : هذه (وأشار إلى امرأته)[87] . فسخر منه لغبائه ، لأنه لم يفرق بين الشعبي وامرأته .

---

(82) الراغب الأصفهاني . محاضرات الأدباء جـ 1 ، ص 122 .

(83) بشار بن برد : ولد بشار بن برد بن يرجوخ بالبصرة سنة 90هـ ، من أب فارسي وأم رومية ، تفجرت شاعريته في سن العاشرة ، وكان نبوغه في الهجاء ، مما جعل الناس يشكونه لأبيه ، فيؤذيه ، إلى أن صرفهم بقول اللَّه تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج**﴾ ، وتعلم الشعر والأدب واللغة في المسجد و « المربد » واشتهر بالزندقة مما جعل الخليفة « المهدي » يجلده ذات مرة ، سبعين سوطاً مات على إثرها (سنة 168هـ) .

(84) صلاح الدين الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ، تحقيق « أحمد زكي » (باشا) ، ص 129

(85) كلمة تقولها العرب للشيء إذا أوجع .

(86) صلاح الدين الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان : ص 127 .

(87) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، جـ 1 ، ص 316.

12 ـ مر « بشار » برجل ندت من تحته بغلته وهو يقول : الحمد للّه ، وشكراً فقال بشار : استزده يزدك[88].

13 ـ دخل « يزيد بن منصور » الحميري على « بشار » وهو واقف بين يدي « المهدي » ينشدهُ شعراً ، فلما فرغ من إنشاده أقبل عليه « يزيد » وقال : ما صناعتك يا شيخ ؟ فقال له : أثقب اللؤلؤ . فضحك « المهدي » وقال لـ « بشار » : أغرب ، ويلك ، أتنادر على خالي ؟ قال « بشار » : وما أصنع ؟ يرى شيخاً أعمى قائماً ينشد الخليفة مديحاً ، فيقول له : « ما صناعتك ؟ »[89] !

(جـ) السخر من النفس نجاة من عقوبة، أو فراراً من شدة، أو قصداً للدعابة والمرح أو تحايلاً للحصول على شيء، أو تنفيساً عن النفس .

1 ـ قال أعرابي يصور مصيبته من زواج اثنتين ، ويوصي بالعزوبة أو التفرغ للجهاد والتعرض للاستشهاد :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي ... بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت: أصير بينهما خروفاً ... أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجةٍ تُضحي وتُمسي ... تداولُ بين أخبث ذئبتين
رضا هذي يهيج سخط هذي ... فما أعزى من إحدى السخطتين
وألقى في المعيشة كل شر ... كفاك الضُّر بين الضَّرَتَين
لهذه ليلة، ولتلك أخرى ... عقاب دائم في الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً ... من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزباً فإن لم تستطعه ... فضرباً في عراض الجحفلين[90]

2 ـ ولد لـ « أبي دلامة » بنت ليلاً ، فأوقد السراج ، وجعل يخيط خريطة من شقق

---

(88) صلاح الدين الصفدي . نكت الهميان في نكت العميان ، ص 127 .
(89) صلاح الدين الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ، ص 68.
(90) أبو علي القالي : الأمالي ، جـ 2 ، ص 35 ، وسمط اللالىء جـ 2 ، ص 669
و (عراض الجحفلين : تعرض للموت والاستشهاد) .

مستطيلة ، فلما أصبح غدا بالخريطة إلى الخليفة « المهدي »[91] فاستأذن عليه ، وكان لا يحجب ، فأنشده بيتين في المدح فقال له « المهدي » : أحسنت ، فما الذي غدا بك إلينا ؟ قال : ولدت لي جارية ، يا أمير المؤمنين . قال « المهدي » : فهلا قلت فيها شعراً ؟ قال : نعم قلت :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوء إلى لبانها ، وأب لئيم

فضحك المهدي ، وقال له : فما تريد أن أعينك به في تربيتها ؟ قال : تملأ هذه الخريطة ونشرها بين أصبعيه فملأها له ، فوسعت أربعة آلاف درهم[92] .

3 ـ قال « أشعب » : مررت بامرأة تصنع طبقاً ، فقلت لها : باللّه عليك ، زيدي فيه ووسعيه . قالت : لماذا ؟ قلت : لعله أن يهدى إلي فيه شيء ، ولأن يكون كبيراً يسع كثيراً خير من أن يكون صغيراً[93] .

4 ـ دخل « أبو دلامة » على « المهدي » وعنده جماعة من الأشراف ، ومن بني هاشم ، والوزير « محمد بن الجهم » ، فقال « المهدي » لـ « أبي دلامة » : واللّه ، لا تبرح مكانك حتى تهجو واحداً ممن هنا ، وإلاّ قطعت لسانك أو ضربت عنقك .

فنظر إليه القوم ، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن علي رضاك . قال « أبو دلامة » فعلمت أني قد وقعت ، ولم أر أحداً أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة فليس من الكرام ولا كرامة

---

(91) المهدي : محمد بن عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس ، ولكن « أبا عبد اللّه » بويع بالخلافة سنة 158هـ ، كان مولده سنة 127هـ ، وتوفي سنة 169هـ كان أشد خلفاء بني العباس على الزنادقة والملاحدة .

(92) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 1 ، ص 302.

(93) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ 17 ، ص 90 .
وابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، جـ 1 ، ص 22.

إذا لبس العمامة صار قرداً وخنزيراً، إذا نزع العمامة
وإن لبس العمامة كان فيها كثور لا تفارقه الكمامة
جمعت دمامة وجمعت لوماً كذاك اللؤم ، تتبعه الدمامة
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك القوم ، ولم يبق أحد إلاَّ أجازه[94] .

5 ـ قيل لـ « أشعب » : أرأيت أحداً قط أطمع منك ؟ قال : نعم ، كلباً تبعني أربعة أميال على مضغ العلك .

6 ـ سكر « أبو دلامة » ، فأتي به إلى « المهدي » ، فأمر بأن يحبس في بيت الدجاج فلما مضى جزء من الليل صحا « أبو دلامة » من سكره ، ورأى نفسه بين الدجاج فصاح : يا صاحب البيت . فاستجاب له السجان قائلاً : ما لك ، يا عدو اللّه ؟ قال له : ويلك ! من أدخلني هنا مع الدجاج ؟ قال : أعمالك الخبيثة ، أُتي بك إلى أمير المؤمنين وأنت سكران ، فأمر بتمزيق طيلسانك الذي كان قد أهداه إليك ويحبسك مع الدجاج . قال « أبو دلامة » : ويلك أوَتقدر على أن توقد سراجاً ، وتجيئني بدواة وورق ؟ فأتى بدواة وورق ، فكتب إلى المهدي أبياتاً منها :

أمير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني، وخرقت ساجي؟!
أقاد إلى السجون بغير ذنب كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست، لهان وجدي ولكني حبست مع الدجاج!

ثم قال : أوصلها إلى أمير المؤمنين . فأوصلها إليه السجان . فلما قرأها « المهدي » أمر بإطلاقه وإحضاره ، وقال له : أين بت الليلة ؟ قال : مع الدجاج ، يا أمير المؤمنين . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : كنت أقاقي معهن

---

(94) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 331
ونهاية الأرب ، جـ 4 ، ص 43.

حتى أصبحت . فضحك « المهدي » وأمر له بصلة جزيلة ، وخلع عليه كسوة شريفة[95] .

* * *

كما كان هناك سخر بالساسة الذين ضعفوا ، واشتغلوا بالملذات واللهو عن السهر على مصالح الأمة[96] :

7 ـ استوزر الخليفة « المهدي » « يعقوب بن داود »[97] (سنة 163هـ) وكان بارعاً فغلب على أمور « المهدي » كلها ، وزين له الإنفاق ، فأنفق في الشراب والملذات والغناء وانفرد « يعقوب » بتدبير شؤون الخلافة ، فقال « بشار بن برد » :

بَنُو أمية ، هبوا ، طال نومكم — إن الخليفة «يعقوب بن داود»
ضاعت خلافتكم ، ياقوم ، فالتمسوا — خليفة اللّه بين الزق والعود[98]

فـ « بشار » يسخر بضعف الخليفة ، لاستيلاء الوزير على مقاليد الدولة ، وكأنه يستنهض الأمويين لاستعادة الخلافة ، مع أن « بشاراً » لا يريد ذلك للأمويين ولكنه يبالغ من الإيلام والإيجاع للعباسيين ، حتى يسيطر الخليفة على كل شيء .

* * *

وسخروا بعيوب اجتماعية سارية في المجتمع :

---

(95) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 1 ، ص 302 . الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود .

(96) ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ 1 ، ص 22 وأبو الفرج الأصفهاني : الأغاني جـ 17 ، ص 94

(97) يعقوب بن داود : أدار الجاحظ له (ليعقوب بن داود) مع رجل في اختيار الحمام فقال : وحدثني بعض من أثق فيه أن يعقوب بن داود ، قال لبعض من دخل عليه وقد ذهب عنه اسمه ونسبه ، بعد أن كنت عرفته ، أما ترى كيف أخلف ظننا ، وأخطأ رأينا ، حتى عم ذلك ولم يخص ؟!... الخ راجع كتاب : الحيوان للجاحظ ص 226 جـ 3.

(98) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ 2 ، ص 437

8 ـ أوصى « طفيلي » العرائس [99] ابنه « عبد الحميد » ، وهو في علته التي مات فيها بقوله : إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، فإن كان العرس كثير الزحام فلا تنظر في عيون أهل المرأة ، ولا في عيون أهل الرجل ، ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، فإن كان البواب غليظاً فابدأ به ، ومره وانهه ، من غير أن تعنف به ثم أنشد ابنه :

لا تجزعن من الغريـ ـب، ولا من الرجل البعيد
ادخل كأنك طابخ بيديك مفرمة الحديد
متدلياً فوق الطعا م تدلي الباز الصيود
لتلفّ ما فوق الموا ئد كلها لف الفهود
واطرح حياءك، إنما وجه الطفيلي من حديد
لا تلتفت نحو البقو ل ، ولا إلى غرف الثريد
حتى إذا جاء الطعا م ضربت فيه كالشديد
وعليك بالفالوذجا ت، فإنها عين القصيد
والعرس لا يخلو من اللو زينج الرطب الفريد
فإذا أنت به محو ت محاسن الجام الجديد
وتنقلن على الموا ئد، فعل شيطان مريد
وإذا انتقلت عبثت بالكعك المجفف، والقديد
يا رب، أنت رزقتني هذا على رغم الحسود
واعلم بأنك إن قبلت نعمت، يا «عبد الحميد»[100]!

* * *

(د) السخرية من التغافل الذي يتخذونه تقية ، أو تفكهاً ، أو هروباً من شيء في نفوسهم :

---

(99) طفيلي العرائس : ذكره « الثعالبي » فقال: «طفيلي العرائس ، ويقال له طفيل العرائس ، وهو من غطفان . . . وكان يتبع العرائس فيأتيها من غير أن يدعى إليها ، وهو أول من فعل ذلك ، وإليه ينسب الطفيليون » . (ثمار القلوب ص 84) .

(100) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 141 . الفالوذج : « البالوظة ».
اللوزينج : حلوى بدهن اللوز . الجام : الإناء من فضة ، الباز : الصقر .

1 ـ عاد رجل مريضاً فقال له : ما علتك ؟ قال : وجع ركبتي ، فقال الرجل : إن « جريراً »[101] يقول بيتاً ذهب عني صدره ، وآخره هو : « وليس لداء الركبتين دواء » فقال له : ليتما ذهب عنك صدره مع نفسك[102].

2 ـ دخل « أبو دلامة » على « أم سلمة المخزومية »[103] زوجة « السفاح »[104] ليعزيها في وفاته ، وهو يبكي ، وأنشدها قصيدة رثائه ، فلما أتم إنشادها قالت له : ما أصيب أحدٌ بـ « السفاح » غيري وغيرك . فقال لها : لم يصب به أحدى سواي أنت لك ولد منه تتسلين به ، وأنا لا ولد لي منه .

فضحكت « أم سلمة »[105] ، ولم تكن ضحكت منذ مات زوجها ، وقالت له : يا « زند » (هذا هو اسمه) ، أنت لا تدع أحداً إلَّا أضحكته[106] .

3 ـ أُتي « الحجاج »[107] بسفط مقفل ، قد أصيب في بعض خزائن « كسرى »[108] ، فأمر بالقفل فكسر ، فإذا فيه سفط آخر مقفل ، فقال : من يشتري هذا السفط بما فيه ؟ . فتزايد فيه أصحابه حتى بلغ خمسة آلاف دينار . فأخذهُ « الحجاج » ، ونظر فيه وقال : ما عسى أن يكون فيه إلَّا حماقة من حماقات العجم ؟ . ثم أنفذ البيع ، وعزم على المشتري أن يفتحه ويريه ما فيه ، ففتحه

(101) جرير : هو أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفي التميمي ، ولد في منطقة الرياض في خلافة « عثمان بن عفان » بين قوم ليس لهم شأن من بني تميم (بني يربوع) ومن ثم نشأ فقيراً يرعى غنماً لأبيه ، وكان ممن أوتي موهبة الشعر ، حيث كان جده وأبوه وأخوه من الشعراء فنشأ « جرير » متعلقاً بالشعر ، توفي سنة 110هـ .

(102) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، جـ 2 ، ص 272.

103) أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد اللّه بن الوليد بن المغيرة المخزومي وهي كانت زوجة لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فلما توفي تزوجها هشام . ثم تزوجها أبو العباس السفاح وأنجب منها « محمداً » و « ريطة » وغلبت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع أمراً إلَّا بمشورتها وتأميرها ولم يجمع عليها غيرها حتى توفى .

(104) السفاح هو عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب بويع بالخلافة سنة 132هـ وتوفي في سنة 136هـ ، ولقب بـ « السفاح » لكثرة ما أراق من دماء بني أمية .

(105) سبق التعريف بها (انظر الهامش 103) .

(106) صادق الملائكة : ذوو الفكاهة في التاريخ ، ص 72.

(107) الحجاج : هو « الحجاج بن يوسف الثقفي » الذي كان له فضل توطيد عرش « عبد الملك » وعرش أولاده من بعده (من الأمويين) ، ولد سنة 41هـ ، وقد راول تعليم الصبيان في مقتبل حياته ، ولكن مقدرته الحربية ، وانتصاره على « ابن الزبير » رفعهُ إلى مرتبة الولاية ، توفي سنة 95هـ .

(108) كسرى : كسرى أنو شروان ، ملك الفرس ، الذي انهزم على يد المسلمين وقضى عليه .

بين يديه ، فإذا فيه رقعه مكتوب فيها : من أراد أن تطول لحيته فليمشطها من أسفل[109] .

4 ـ قال « أشعب »[110] جاءتني جارية بدينار ، وقالت : هذا وديعة عندك . فجعلته تحت الفراش ، فجاءت بعد أيام تنظر الدينار . فقلت : ارفعي الفراش ، وخذي ولده ـ وكنت تركت إلى جانبه درهماً ـ ، فتركت الدينار ، وأخذت الدرهم ، وعادت بعد أيام ، فوجدت معه درهماً آخر ، فأخذته، وعادت في الثالثة كذلك . فلما جاءت الرابعة تباكيت ، فقالت : ما يبكيك ؟ قلت : مات الدينار في النفاس . فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ . فقلت : يا حمقاء ، تصدقين بالولادة ، ولا تصدقين بالنفاس[111] .

* * *

هـ ـ السخرية بالذين يقولون كلاماً وينقضونه بكلام آخر أو ينقضون ما يسمعون :

1 ـ حدث بين الأعمش[112] وامرأته جفوة ، فسأل بعض الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل الرجل إليها ، وقال لها : إن « أبا محمد » شيخ كبير ، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه ، ورقة ساقيه وضعف ركبتيه ، ونَتَنُ إبطيه ، وبخر فمه ، وجمود كفيه . فقال له « الأعمش »[113] : قم قبحك اللّه ، فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه[114] ! .

2 ـ صلى أعرابي في جماعة ، فقرأ الإمام : ﴿قل أرأيتم إن أهلكني اللّه ومن

---

(109) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 332.

(110) أشعب : هو أبو العلاء أشعب بن جير ، مدني ، من أصحاب النوادر ، كان أزرق ، احول ، اكشف ، اقرع ، ألثع ، ولكنه كان حسن الصوت بالقرآن ، وكان أطيب أهل زمانه عشرة وأكثرهم نادرة ، وأحسن الناس أداء الغناء وسمعه ، وأعلم أهل دهره بجمع القزلة ، كان يفتن في نوادر الطمع . قال « الفضل بن الربيع » : كان « أشعب » عند أبي سنة أربع وخمسين ومائة ، ثم خرج إلى المدينة فلم يلبث أن جاء نعْيه . (انظر البخلاء : ص 379) .

(111) ابن شاكر فوات الوفيات جـ 1 ص 22

(112) الأعمش سبق التعريف به .

(113) الأعمش (سبق التعريف به) .

(114) الأبشيهي : المستطرف ، جـ 2 ، ص 216

معي أو رحمنـا ، فمن يجير الكـافرين من عـذاب أليم ؟ ﴾[115] . فقـال الأعـرابي : أهلكك اللّه وحـدك، إيش كان ذنب الذين معـك ؟! فقـطع القـوم الصلاة من شدة الضحك[116] .

3 ـ ضرب « الحجاج » أعرابياً سبعمائة سوط ، وهو يقول عند كل سوط : شكراً لك يا رب . فلقيه « أشعب »[117] ، فقال له : أتدري لِـمَ ضربك « الحجاج »[118] سبعمائة سوط ؟ قال : ما أدري . قال : لكثرة شكرك ، أما علمت أن اللّه تعالى يقول : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾[119] .

4 ـ كتب « المنصور »[120] إلى « زياد بن عبد اللّه الحارثي »[121] أن يقسم مـالاً بين القـواعد والعميـان ، والأيتام ، فـدخل عليـه « أبو زيـاد التميمي »[122] فقال : أصلحك اللّه ! اكتبني في القواعد . فقال له : عافاك اللّه ! القواعد هن النساء اللاتي قعدن عن أزواجهن . فقال اكتبني في العميان . قال : اكتبوه فيهم ، فإن اللّه تعالى يقول : ﴿ . . . **فإنها لا تعمي الأبصار ، ولكن تعمي القلوب التي في الصـدور** ﴾[123] قال « أبـو زياد » : واكتب ابني في الأيتـام . قال : نعم : من كنت أباه فهو يتيم[124] .

5 ـ روى « مالك بن أنس »[125] أن بعض الشطار صلى خلف رجل ، فلما قرأ الرجل

---

(115) سورة الملك : الآية (28)

(116) الأبشيهي : المستطرف ، جـ 2 ، ص 214.

(117) أشعب : سبق التعريف به .

(118) الحجاج : سبق التعريف به .

(119) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 2 ، ص 329.

(120) المنصور : سبق التعريف به (أنظر الهامش 15 من هوامش الفصل الأول الباب الأول) .

(121) سبق التعريف به (انظر الهامش 78 من هوامش هذا الفصل) .

(122) أبو زياد التميمي هو : يزيد بن عبد اللّه بن الحر بن همام بن دهن بن ربيعة بن عمرو بن نفاثة بن عبد اللّه بن عامر بن صعصعة . قال ابن النديم ص 67 قدم بغداد أيام المهدي حين أصابت الناس المجاعة، ونزل قطيعة العباس بن محمد فأقام بها أربعين سنة ، وبها مات ، وكان شاعراً .

(123) سورة الحج : من الآية (46)

(124) النويري : نهاية الأرب ، جـ 4 ، ص 17.

(125) مالك بن أنس : أحد أئمة المذاهب الأربعة ، المذهب المالكي الذي يشيع في شمال أفريقيا وبعض البلدان الأخرى من العالم الإسلامي .

ارتج عليه فلم يدر ما يقول ، فجعل يردد : « أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » ، فقال : ما للشيطان ذنب ، إلاَّ أنك لا تحسن أن تقرأ[126] .

* * *

و ـ ومن سخرياتهم التخلص في الجواب ، برد يبعث على الضحك :

1 ـ سأل رجل « الشعبي »[127] : ماذا كان اسم امرأة إبليس[128] ؟ فقال « الشعبي » : ذاك زواج ما شهدناه[129] .

2 ـ كان « نعيمان »[130] ، من أصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) البدريين مولعاً بالمزاح والدعابة ، مر يوماً بـ « مخرمة بن نوفل الزهري »[131] ـ وهو ضرير ـ فقال : قدني حتى أبول . فأخذ بيده ، حتى إذا كان في مؤخرة المسجد ، قال له : اجلس فجلس « مخرمة » ليبول فصاح الناس : يا أبا المسور ، أنت في المسجد . فقال : من قادني ؟ قالوا : « نعيمان » قال : للّه علي أن أضربه بعصاي ، إن وجدته .

فبلغ ذلك « نعيمان » ، فجاء يوماً إلى « مخرمة » ، فقال : يا أبا المسور ، هل تريد « نعيمان » ؟ قال : نعم . فقال له : هوذا يصلي . وأخذ بيده ، وجاء به إلى « عثمان بن عفان »[132] وهو يصلي ، فقال له : هذا « نعيمان » . فعلاه « مخرمة » بعصاه فصاح به الناس : ضربت أمير المؤمنين . فقال : من قادني ؟ قالوا : « نعيمان » فقال : لن أعرض له بسوء أبداً[133] .

---

(126) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 109.

(127) سبق التعريف به (انظر الهامش 81 من هوامش هذا الفصل) .

(128) إبليس : اسم للشيطان (والبلس من عنده إبلاس وشر : مختار الصحاح) .

(129) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 128.

(130) نعيمان : صحابي من صحابة رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) .

(131) مخرمة بن نوفل الزهري ، ذكره المرزباني فرد نسبه ، ثم قال إنه كوفي إسلامي معروف ولم يزد .

(132) الخليفة الثالث (23 - 35هـ = 644 - 656م) ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين توفي رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وهو عنهم راض .

(133) النويري : نهاية الأرب : جـ 3 ، ص 470

3 ـ استشار « زياد » رجلاً من ثقاته في امرأة يريد أن يتزوجها ، فقال له صديقه : لا خير فيها ، إني رأيت رجلاً يقبلها . فتركها « زياد » ، ثم خطبها صديقه وتزوجها . فلما علم « زياد » أرسل إليه ، وقال له : أما قلت لي إنك رأيت رجلاً يُقبلها ؟ قال : نعم ، رأيت أباها يُقبلها[134] .

4 ـ قال « الأصمعي » : رأيت بهلولاً قائماً ، ومعه خبيص[135] ، فقلت : ايش معك ؟ قال خبيص . قلت : أطعمني منه قال : ليس لي . قلت : إيش هو ؟ قال : هو لـ « حمدونة بنت الرشيد »[136] ، بعثته إلي ، لآكله لها[137] .

5 ـ انفرد « الحجاج »[138] يوماً من عسكره ، فلقي أعرابياً ، فقال : يا أعرابي ، كيف « الحجاج » ؟ قال : ظالم غاشم . قال « الحجاج » : فهلا شكوته إلى « عبد الملك »[139] ؟ فقال الأعرابي : لعنه اللّه ! إنه أظلم منه وأغشم . ثم لحق العسكر بالحجاج ، فقال لهم : أركبوا ألبدوي . فأركبوه ، فسألهم عن رئيسهم ، فقالوا : هو « الحجاج » فركض الأعرابي فرسه خلف « الحجاج » ، وقال : يا حجاج . قال له : ما لك يا أعرابي ؟ . فقال : السر الذي بيني وبينك لا يطلع عليه أحد . فضحك « الحجاج »[140] ، وخلاه[141] .

6 ـ مر « ابن أبي علقمة » بمجلس جماعة من بني ناجية ، فكبا حماره على وجهه ، فضحكوا منه ، فقال لهم : ما يضحككم ؟ إنه رأى وجهاء (قريش) فسجد[142] .

---

(134) ابن عبد ربه العقد الفريد ، جـ 2 ، ص 470.

(135) خبيص : الخبيص : طعام عربي ، يعمل من التمر والسمن ، وصار يعمل بعد ذلك : من العسل بدلاً من التمر.

(136) إحدى بنات الخليفة العباسي « هارون الرشيد » .

(137) النويري : نهاية الأرب ، جـ 4 ، ص 23 ، وفوات الوفيات ، جـ : 2 ، ص 304

(138) الحجاج بن يوسف الثقفي (سبق التعريف به) .

(139) عبد الملك : هو عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي الخامس (65 - 86هـ = 685 - 705م) ولد في المدينة سنة 36هـ ، وتوفي سنة ' ـــ 86 هـ .

(140) الحجاج (سبق التعريف به) .

(141) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 95.

(142) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، جـ 2 ، ص 204.

7 ـ كان « إبراهيم بن علي بن هرمة » ، الشاعر الفكه المزاح ، مغرماً بالشراب ، وقد امتدح الخليفة « أبا جعفر المنصور » ، فقال له « المنصور »[143] : سل حاجتك . قال : تكتب إلى عاملك بالمدينة ألا يُحدَّني إذا وجدني سكران . فقال « المنصور » : هذا حد لا سبيل إلى تركه . فقال « إبراهيم » : ما لي حاجة غيرها . فقال « المنصور » لحاجبه : اكتب إلى عاملنا بالمدينة : « إذا أتاك « ابن هرمة » سكران فاجلده ثمانين واجلد الذي جاءك به مائة » ! .

فكان الشرط يمرون به وهو سكران ، فيقولون : من يشتري ثمانين بمائة ؟ فيرونه ويتركونه[144] .

8 ـ صلى أعرابي خلف إمام ، فقرأ الإمام : ﴿ . . . **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي** . . ﴾[145] ، ووقف عندها ، وجعل يرددها كثيراً ، حتى ملّ الأعرابي فقال : يا فقيه ، إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل ، نبيت نحن وقوفاً إلى الصباح ! وتركه وانصرف[146] .

9 ـ تحاكم « الرشيد »[147] و « زبيدة »[148] إلى « أبي يوسف »[149] القاضي في (الفالوذج) و (اللوزينج) : أيهما أطيب طعاماً ، وأحلى مذاقاً ؟ . فقال « أبو يوسف » : أنا لا أحكم على غائب . فأمر « الرشيد » بإحضارهما ، وقدما إلى « أبي يوسف » ، فجعل يأكل من هذا مرة ، ومن ذاك مرة ، حتى أكل نصف الصفحتين ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أصدق منهما ، كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته[150] .

---

(143) أبو جعفر المنصور : الخليفة العباسي الثاني (136 - 158هـ = 754 - 775م) ويعتبر عصره من أهم عصور الخلافة العباسية ، وشيدت في عهده مدينة (بغداد) .

(144) صادق الملائكة : ذوو الفكاهة في التاريخ ، ص 12.

(145) سورة يوسف : من الآية (80) .

(146) الأبشيهي : المستطرف ، جـ 2 ، ص 215.

(147) الرشيد (سبق التعريف به : الهامش 16 من الفصل الأول من الباب الأول) .

(148) زبيدة : زوجة هارون الرشيد ، وأم « الأمين » ، توفيت في بغداد سنة 316هـ.

(149) أبو يوسف : تلميذ « أبي حنيفة » ، إمام من أئمة المذهب الحنفي (أحد المذاهب الأربعة) .

(150) الأبشيهي : المستطرف ، جـ 2 ، ص 217 وابن الجوزي : الأذكياء ، ص 61

10 ـ دخل « أبو دلامة »[151] على « المهدي »[152] ، فقال له : سلني حاجتك فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي كلباً . فغضب « المهدي » وقال له : أقول لك « سلني حاجتك » فتطلب مني كلباً ؟! . فقال « أبو دلامة » : يا أمير المؤمنين ، الحاجة لك أم لي ؟ قال « المهدي » : بل لك . قال : فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد . فأمر له بكلب صيد . فقال : يا أمير المؤمنين ، هبني خرجت إلى الصيد ، فهل أعدو على رجلي ؟ . فأمر له بفرس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من يخدم الفرس ؟ فأمر له بغلام . فقال : يا أمير المؤمنين ، هبني صدت صيداً وأتيت به المنزل ، فمن يطبخه ؟ فأمر له بجارية . فقال : هل يسكن هؤلاء في العراء ؟ فأمر له بدار . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد صيرت في عنقي جملة من العيال ، فمن أين لي قوتهم ؟ . قال : قد أقطعتك ألف جريب عامراً ، وألف جريب غامراً . قال « أبو دلامة » : أما العامر فقد عرفت ، فما الغامر ؟ . قال « المهدي » : الخراب الذي لا شيء فيه . فقال « أبو دلامة » : أنا أقطع أمير المؤمنين مائة ألف جريب بالبادية ، وأسأله عن كل ألف جريب جريباً واحداً عامراً . فضحك « المهدي » ، وقال له : هل بقيت لك حاجة ؟ . قال : نعم ، تأذن لي أن أقبل يدك . فقال « المهدي » : لا ، ليس إلى ذلك سبيل . قال « أبو دلامة » : واللّه ، ما رفضت لي حاجة أهون علي منها[153] .

11 ـ دخل اللصوص دار « أبي سعيد » ، فأخذوا كل ما فيها ، فلما خرجوا تبعهم وهو يحمل بعض ما تركوه ، فقالوا له : إلى أين يا رجل ؟ وماذا تريد ؟ قال : لم تبقوا لي شيء في داري ، فخرجت وراءكم لأقيم بداركم فضحكوا منه وردوا عليه متاعه[154] .

***

---

(151) أبو دلامة (أنظر هامش 48 من هوامش هذا الفصل)

(152) المهدي (انظر الهامش 91 من هوامش هذا الفصل) .

(153) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ 1 ، ص 191

(154) الحصري : « زهر الآداب » ، ص 160.

ز ـ السخرية من أجل الدعابة والضحك :

1 ـ خرج «أبو دلامة»[155]، مع «المهدي»[156] وبعض حاشيته، في رحلة صيد، فعن لهم ظبي، فرماه «المهدي»، فأصابه، ورماه «علي بن سليمان»[157] فأخطأه، وأصاب الكلب الذي معهم، فضحك «المهدي»، وقال لـ «أبي دلامة»: قل في هذا الذي رأيته فقال:

قد رمى «المهدي» ظبياً شك بالسهم فؤاده
وَعلي بن سليمان رمى كلباً، فصاده
فهنيئاً لهما، كل أمرىء يأكل زاده

فضحك «المهدي» حتى كاد يسقط من سرجه، وأمر له بجائزة سنية، ولقب «علي بن سليمان»، بعد ذلك، «صائد الكلاب»، فغلب عليه[158].

2 ـ كان «زياد الحارثي»[159] يقدم لضيفانه جدياً، ولكنه لا يمسه أحد منهم. وكثر تردد «أشعب»[160] على مائدة «زياد» وكثرت رؤيته للجدي، يجيىء على المائدة ثم يحمل دون أن يمسه أحد، فقال لجاره: امرأته طالق إن لم يكن هذا الجدي بعد أن ذبح وشوي، أطول عمراً منه قبل أن يذبح[161].

* * *

رابعاً: «الجاحظ» يجعل من السخرية فناً أدبياً:

كانت السخرية فيما سبق ـ قبل «الجاحظ» ـ نتفاً، تأتي عفوية تارة، ومقصودة

---

(155) أبو دلامة (سبق التعريف به).

(156) المهدي (سبق التعريف به).

(157) علي بن سليمان: علي بن سليمان أحد أبناء سليمان بن علي عم أبي العباس السفاح، وكان قد ولاه على البصرة وأعمالها، فأقام فيها هو وأولاده، وبنو فيها دورهم وقد كان لهذه الدور ـ فيما يبدو ـ أثر غير قليل في نشاط الحياة العقلية والأدبية بالبصرة.

(158) النويري: نهاية الأرب، جـ 4، ص 44، وابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 2، ص 192.

(159) زياد الحارثي (سبق التعريف به).

(160) أشعب (سبقت الإشارة إليه).

(161) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ 2، ص 23.

لغرض من الأغراض السياسية تارة أخرى دون أن تقوم بالتفاصيل النابضة بالحياة تحليلاً، وتصويراً ، وتشخيصاً ، واستبطاناً لدخائل النفوس ، وإبرازاً لخصائص المجتمع . . لم تقم بالتحليل النفسي الدقيق ، الذي ينم عن عمق التجربة ، أو يعتمد على دقة الملاحظة إلّا نادراً .

ولم يؤلف في السخرية ـ قبل « الجاحظ » ـ كتاب يرد نوادر المجتمع ، ويتسلل إلى أعماقه ، ليظهر دخائله ، بنزعة فنية خالصة ، باستثناء « المدائني »[162] ، في كتابه « الأكلة » الذي كان إخبارياً في نوادره ، و « أبي عبيدة »[163] في كتابه « لصوص العرب » . من هنا كان « الجاحظ » أول مؤلف في تاريخ الأدب يخص كتباً بأكملها في السخرية ، تحليلاً ودراسة، كما فعل في كتابه «البخلاء» ورسالته «التربيع والتدوير» (التي سوف نتناولها بالدراسة والتحليل في الباب الثالث من هذا البحث) .

لقد كان « الجاحظ » في كتابه « البخلاء » دقيقاً في تصويره ، بارعاً في وصفه ، ساخراً مع شخصياته ، داعياً إلى الضحك والمزاح . قال في مقدمة كتابه : « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا قللت الجهد »[164] .

وقد دافع « الجاحظ » عن الضحك ، وبيّن آثاره وفوائده وقرر أنه غريزة ذات قيمة للنفس والجسم ، كما ذكر أن البكاء يفسد الدماغ وقد يورث العمى : « فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؟ . ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة ، والحلي والقصر المبني : « كأنه يضحك ضحكاً » . وقال قال اللّه جل ذكره :

﴿**وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا**﴾[165] فوضَع الضحك بحذاء

---

(162) هو علي بن محمد بن عبد اللّه نسب إلى المدائن بصري المولد والمنشأ ثم انتقل إلى المدائن فعرف بالمدائني ،. عالم إخباري سجل أخبار الحياة الإسلامية متكلماً توفى سنة 224 أو 225هـ أو 228هـ.

(163) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى توفى سنة 211هـ.

(164) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، طبعة دار المعارف ، ص 5.

(165) سورة النجم : 43 ، 44.

الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف اللّه إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص .

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شيء في أصل الطبع ، وفي أساس التركيب ؟ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذي هو عليه سروره ومادة قوته، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بـ «الضحاك»، و « بسام » ، وبـ « طليق » ، وبـ « طلق » . وقد ضحك النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ومزح وضحك الصالحون ومزحوا . وإذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن، وبسام العشيات ، وهش إلى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز . وإذا ذموا قالوا : هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيَّا ، وهو مكفهر أبداً ، وهو كريه ، ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوج »[166] .

فـ « الجاحظ » ألح في إثبات فضل الضحك وبيان حسناته واختج له ، وحرص عليه ، وأولع به ، صادراً فيه عن طبع وفطرة . يقول : « وإن كنا قد أمللنا بالجد ، وبالاحتجاجات الصحيحة والمروجة ، لتكثر الخواطر ، وتشحذ العقول ، فإنا سننشطك ببعض البطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة ، فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه (من السرور والضحك ، والاستظراف) ما لا يبلغه (حشد) أحر النوادر، وأجمع المعاني . وأنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً: أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً ، فإنهما يثيران من غريب الطيب (الهزل والفكاهة) ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ، ولو أن ذلك لا يحل (إشارة إلى احتجاج المتنازعين) في باب اللهو والضحك ، والسرور والبطالة ، والتشاغل ما يجوز في كل فن .

وسنذكر من هذا الشكل عللاً ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججاً . فإن كنت ممن يستعمل الملالة ، وتعجل إليه السآمة ، كان هذا الباب نشيطاً لقلبك ،

---

(166) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، جـ 3 ، ص 5 ، 6

وجماماً لقوتك ، ولنبتدىء النظر في باب الحمام ، وقد ذهب عنك الكلال وحدث النشاط .

وإن كنت صاحب علم وجد ، وكنت ممرناً موقحاً ، وكنت إلف تفكير وتنفير ، ودراسة كتب وحلف تبين ، وكان ذلك عادة لك ، لم يضرك مكانه من الكتاب ، وتخطيه إلى ما هو أولى بك »[167] .

كان حرص «الجاحظ» على الضحك، ليكون تنشيطاً للقلب وجماماً لقوته و « الجاحظ » في كتاب « البخلاء » ، يرى أن أحاديث البخل وأخبار البخلاء ، قبله كانت تسير في اتجاهين : أحدهما شعوبي[168] ، والآخر سياسي ، وكلتا الطريقتين لا تتناول هذه الأحاديث وتلك الأخبار بفنية ، ونزعة أدبية قوية ، فالشعوبية تحقد على العرب ، وترد عليهم كرمهم وتحاول تصويرهم بصورة البداوة الجافة الخشنة ، البخيلة الممسكة ، الكزة الكنود . . والعباسيون[169] قاموا على أنقاض الأمويين[170] ، تتأصل الخصومة في نفوسهم ، والعداوة في قلوبهم ، فاستخدموا الكتّاب والعلماء ضدهم في خدمة حكامهم ومسايرة طريقتهم ، ومساندتهم فيما إليه يرومون وإليه يبتغون ، فقامت الدعابة السياسية ضد الأمويين وصورت حكامهم بالنهمين الجشعين. ويكاد يتفق أسلوب الشعوبية مع أسلوب العداوة العباسية في التشنيع والتهكم والسّخر من الحكام ـ حكام بني أمية ـ واتخاذهم موضوع الشح والبخل ، والمطاعم والمشارب ، مادة للتقاذف بالمثالب . يقول « الجاحظ » ، بعد أن عدد بعض الأهاجي : « . . وهذا الباب يكثر ويطول . . . فإن أردته مجموعاً فاطلبه في كتاب الشعوبية ، فإنه هنالك مستقصي »[171] ويقول في موضوع آخر :

« و (الشعوبية) و (الآزادمردية)[172] ، المبغضون لآل النبي ـ صلى اللّه عليه

---

(167) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، جـ 2 ، ص 5 ، 6.

(168) تسمية فارسية « للارستقراطية » الإيرانية يفتخر بها أنصار الشعوبية ويتحدون بها العرب ، والتراث العربي .

(169) قامت دولتهم من سنة 132هـ واستمرت بعصريها الأول والثاني حتى سقوط بغداد على يد التتار سنة 656هـ.

(170) وقامت دولة بني أمية من سنة 40هـ إلى 132هـ.

(171) الجاحظ : البخلاء تحقيق طه الحاجري ص 237.

(172) هي تسمية فارسية للأرستقراطية الإيرانية يفتخر بها أنصار الشعوبية ويتحدُّون بها العرب والتراث العربي ، ولفظ الشعوبية

وسلّم ـ ممن فتح الفتوح ، وقتل المجوس ، وجاء بالإسلام ، تزيد في جشوبة عيشهم وخشونة ملبسهم وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم »[173] . ثم يقول بعد ذلك : « . . وإذا نظرت في أشعارهم علمت أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه ، لأن الناعم من الطعام لا يكون إلاّ عند أهل الثراء وأصحاب العيش. . . »[174] . ثم ذكر أشعار « زياد بن فياض »[175] ، و « أمية بن أبي الصلت »[176] ، و « الهذلي »[177] ، و « ابن هرمة »[178] ، و « كامل بن عكرمة »[179] ، و « بشر بن أبي خازم »[180] ، و « أبو الصلت بن ربيعة »[181] ، وغيرهم ، في نقض دعاوى الشعوبية وسواهم .

واستجابة للدعوتين السابقتين ، ذكر « الفخري »[182] في « الآداب السلطانية » شح « معاوية » ونهمه فقال : « . . . كان يأكل في كل يوم خمس أكلات ، آخرهن أغلظهن ، ثم يقول : يا غلام ! ارفع ، فواللّه ما شبعت ولكن مللت ، وأنه أصلح له عجل مشوي ، فأكل معه دستاً من الخبز السميذ ، وأربع فراني ، وجدياً حاراً ، وآخر بارداً ، سوى الألوان ، ووضع بين يديه رطل من الباقلا الرطب فأتى عليه ! .

المشتق من العبارة القرآنية ﴿ شعوباً وقبائل ﴾ لم يستعمله أنصار الوطنية الإيرانية على أنفسهم . وأشرف لقب عندهم (الأزدمردية) الذي تعني الرجل الكريم والنبيل وبعيد الهمة لأن (آزد) تعني الحر و (مرد) تعني المرء .

(173) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 228.

(174) المصدر نفسه : ص 229.

(175) سري من سراة قريش في الجاهلية يضرب به المثل في الكرم ، ويضرب المثل بجنانه التي كان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد .

(176) هو أمية بن عبد اللّه بن أبي الصلت بن ربيعة الثقفي شاعر جاهلي من الطراز الفريد نظر في الكتب وقرأها وحرم الخمر ، وشك في الأوثان ، والتمس الدين ، وطمع في النبوة ، في شعره ترديد للقصص والأساطير الدينية .

(177) هو صخر بن عبد اللّه الخيثمي الهذلي ، لقب بصخر الغي لخلاعته ، وشدة بأسه وكثرة شره كانت له مخاطرات ضد بني المصطلق من خزاعة ، أحاطوا به ، فظل يرميهم ويقاتلهم حتى قتلوه .

(178) ابن هرمة من بني الحارث بن فهر شاعر حجازي من مخضرمي الدولتين ولد سنة 90هـ كان قصيراً دميماً متقلباً. كانت إقامته بالمدينة .

(179) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، ولم يعرفه بشيء أكثر من إيراد بيتين من الشعر هما :

أرى كل عام موعداً غير ناجز ... وخلفاً إذا ما رأسي حول تجرما

وإني أوعدت شراً أتى قبل وقعة ... وإني وعدت خير أراث واعتما

(180) جاهلي قديم مى بني أسد شهد حرب أسد وطيء والحلف بينهما قتل في إحدى الحروب .

(181) هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة كان شاعراً يمدح سيف بى ذي يزن المتقدم ذكره.

(182) الفخري : في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . ط بيروت 1966م.

وأما شحه على الأكل ، فإن « أبا بكرة »[183] دخل عليه ومعه ابنه ، فجعل ابنه يأكل أكلاً مفرطاً ، و « معاوية » يلحظه ، وفطن « ابن أبي بكرة » لحظ « معاوية » ، وأراد أن ينهي ابنه عن كثرة الأكل ، فلم يتفق له ذلك ، وخرجا من عند « معاوية » .

ففي الغد حضر الأب وليس معه ابنه ، فقال له « معاوية » : ما فعل ابنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، انحرف مزاجه . قال : علمت أن تلك الأكلة ما كانت تتركه حتى تهيضه »[184] .

وتحدثوا عن جشع وبخل ونهم « سليمان بن عبد الملك »[185] ، و « عبد الملك بن مروان »[186] ، و«هشام بن عبد الملك»[187] ، و«خالد بن عبد اللّه التستري»[188] و«خالد بن صفوان المنقري»[189] ، و«المغيرة بن عبداللّه الثقفي»[190] ، و«زيادالحارثي»[191] ،

---

(183) أبو بكرة الثقفي ، نفيع بن الحارث الذي أكل ابنه عبد الرحمن على خوان معاوية وقد ادعى أبو بكرة على المغيرة بن شعبة ادعاء باطلاً مما جعل عمر بن الخطاب يستدعي المغيرة للتحقيق وتثبيت براءته ويقام حد القذف على أبي بكرة الثقفي .

(184) الفخري : الآداب السلطانية ، مصر ، المطبعة الرحمانية ، 1927 م ، ص 80.

(185) سليمان بن عبد الملك بويع بالخلافة سنة 96هـ وتوفي بمرج دابق سنة 99هـ كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليالٍ توفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وعهد إلى عمر بن عبد العزيز بالخلافة بعده .

(186) بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة سنة 65هـ بعث الحجاج إلى عبد اللّه بن الزبير بمكة فقتل عبد اللّه سنة 73هـ توفي عبد الملك بن مروان سنة 86هـ دامت خلافته إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصف . وكان عمره 66 سنة . كان يحب الشعر والفخر .

(187) هشام بن عبد الملك بن مروان : بويع بالخلافة سنة 105هـ وتوفي هشام بالرصافة سنة 125هـ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة .

(188) خالد بن عبد اللّه التستري : كان والياً على العراق من قبل سليمان بن عبد الملك وقد غضب عليه وجلده مائة جلدة ثم عفا عنه . قتل سنة 126هـ.

(189) خالد بن صفوان المنقري : خطيب أموي من الطراز الأول أدرك السفاح ومات في عهده كان من المقدمين عند الخاصة ، مليحاً ، عظيم القدر جليلاً ، يتدارس الأخبار والآثار ، والأشعار .

(190) المغيرة بن عبد اللّه الثقفي : ذكره الطبري في حوادث سنة 87 ، 89 ، 90 : أنه كان على حرب الكوفة من قبل « الحجاج ابن يوسف الثقفي » .

(191) زياد بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي : خال الخليفة أبي العباس السفاح ولي المدينة ومكة والطائف واليمامة ، بقي في الولاية من سنة 133هـ إلى سنة 141هـ إلى أن عزله « أبو جعفر المنصور » .

و « بلال بن أبي بردة »[192] ، و « الحكم بن أيوب الثقفي »[193] . . وكانوا موضع التندر من « الأصمعي »[194] ، و « المدائني »[195] ، و « أبي عبيدة »[196] . . .

إن الكتابة عن البخلاء ، قبل « الجاحظ » ، تتسم بالكتابة الإخبارية عن الماضي ، فليس فيها إبداع ، ولا تحليل ، ولا تشخيص ، خالية من النزعة الفنية في رسم الشخصيات وتصويرها ، وتصوير المجتمع ، غلب عليها الطابع السياسي ، والمعرفة المجردة .

أما كتاب « البخلاء » الذي وضعه « الجاحظ » ، فكان : « مظهراً من مظاهر النزعة الأدبية الجياشة القوية الحس ، السريعة الاستجابة . . . أخذ « الجاحظ » هذا الموضوع . . . ، فجعله موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتعة فنية رائعة ، وكان رهيناً بالأغراض الموقوفة التي أثير من أجلها ، فصار خالداً خلود النفس الإنسانية يمتح منها ويصدر عنها ولها[197] .

لقد عبر الكتاب عن قوة « الجاحظ » الفنية ، بأحاديثه المسهبة ، ورسائله الطويلة التي وضعت وضعاً ، وحققت رسالة « الجاحظ » الفنية تحقيقاً رائعاً .

إن البراعة الأدبية ، التي صاغ بها « الجاحظ » كتابه ، والمقدرة الفنية التي ترقرقت فيه ، وسرت في موضوعاته ـ أسلوباً وغاية ـ جعلته المتفرد في هذا الميدان الذي لم يسبق إليه من قبل .

ولأن « الجاحظ » مرح طروب بطبيعته ، فقد سرت روح السخر في كتابه ، ورصعه بغرر من دعاباته وطرائفه « التي تقصد إلى الأذواق المترفة ، والمدارك المرهفة ، حتى لقد يرى بعض القراء هذه الصورة أو تلك من صوره الساخرة ـ فلا

---

(192) هو بلال بن عامر بن أبي موسى الأشعري : أحد الأمراء القضاة الذين ولوا إدارة البصرة وقضاءها من سنة 109هـ إلى سنة 125هـ ، كان داهية لقناً أديباً ذا نظر في الشعر ، مات في حبسه بعد أن نكل به « الحجاج » .

(193) كان الحكم بن أيوب الثقفي عاملاً للحجاج على البصرة .

(194) الأصمعي : (سبق التعريف به) .

(195) المدائني : (سبق التعريف به) .

(196) الجاحظ : البخلاء ، ص 66 ، 148 ، 152 ، ومقدمة طه الحاجري لـ « البخلاء » .

(197) الجاحظ · البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 33 . والمقصود بالموضوع : البخلاء .

يكاد يتنبه إلى مواطن السخرية فيها ، إذ كانت سخرية الذهن الدقيق ، والذوق الرفيع المهذب ، والفن الخالص المتمكن »[198] .

فكان هذا الكتاب مثلاً رائعاً لهذه المقدرة على التصوير الساخر ، الذي يتغلغل في أعماق النفس ، ويستبطن كل ما فيها ، ويصور جميع حركاتها وخلجاتها ، بأسلوب تتسع فيه هذه النظرة التهكمية التي تنبعث من روح « الجاحظ » وفنه .

وما أشبه مذهب « الجاحظ » بما ذهب إليه « أناتول فرانس »[199] ـ أحد مشاهير الساخرين في فرنسا ـ الذي يقول : « لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلاَّ إذا ازددت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها : التهكم ، والشفقة . فالتهكم بابتسامة ، يحبب إلينا الحياة ، والشفقة ـ بدموعها ـ تقدس هذه الحياة . والتهكم الذي أرغب فيه ، ليس فيه شيء من القساوة ، إنه لا يستهزىء بالحب والجمال ، فهو رقيق ، وفيه عطف يكظم من الغيظ ، وهذا التهكم هو الذي يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمقى ولولاه لأفضى بنا الضعف إلى كراهيتهم »[200] .

فالتهكم كما صوره « أناتول فرانس » ، وكما انتهجه « الجاحظ » ، هو منهج الأقوياء في هذه الحياة ، حيث يتخذونه وسيلة للتنفيس عن نفوسهم ، حتى لا تضعف أمام شرور الناس وحمقهم ، فتمتلىء بكراهيتهم ، والحقد عليهم ، ثم تمتلىء بكراهية الحياة والحقد عليها .

إن سخر « الجاحظ » متصل بطبيعته المرحة وفنه ، وبموقفه من الحياة ـ وهو موقف التوجيه والنقد ، فالسخرية عنده لم تقم على عاطفة شخصية عارضة ـ كما تبدو عند من سبقه ، ولم تقم على الهجاء الممض ، ولا الشتم المقذع ، وإنما هي راجعة

---

(198) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 56.

(199) « أناتول فرانس » : ولد في باريس سنة 1844م ومات سنة 1924م في « سان سيرلوار » وهو كاتب مشهور في العالم ، وقد ترجمت إلىالعربية عدة روايات من تأليفه منها : « الزنبقة الحمراء » ، و « تاييس » ، و « جريمة سلفستر بونار » وأجزاء من « حديقة أبيقور » . والكل يعرف روح السخرية البادية في فنه ، وملكة النفاذ ، وخفة الأسلوب وجماله ، وقد كان عضواً بالمجمع اللغوي الفرنسي .

(200) شفيق جبري ، الجاحظ معلم العقل والأدب ص 200 .

ود: عبد الحكيم بلبع في النثر الفني ص 277.

إلى طبيعته ومزاجه : « فقد كان رجلاً مرح النفس ، متهلل الخاطر ، منطلق الوجه ، نزاعاً إلى الضحك »[201] ، فقال عن المزاح : « من يغضب من المزاح إلاَّ كزّ[202] الخلق ومن يرغب عن المفاكهة إلاَّ ضيق الفطن »[203] ، وقال أيضاً : « الجسد مبغضة ، والمزح محبّة »[204] .

ولقد جاء كتاب بخلاء « الجاحظ » صورة مركزة لما كان يسود مجتمعه ، فقد «تحدث عن طوائف المتسولين، والمشعوذين، والشطار ، والصيادين ، فالبحارة ، وكذبة المحدثين ، وطوائف المغنين ، ومروجي بضاعة القيان ، كما تحدث عن الطوائف العليا في بنية المجتمع البغدادي والبصري آنذاك، فاضحاً الضعف البشري في كل مظاهره . . . فلا غرو أن ينفرد (البخل) بواحد من أهم مؤلفاته ، وهو نقيصةٌ بشرية ، مفيضاً في شرحها والحديث عنها وعن أصحابها ، وبعضهم من وجوه المجتمع البصري والبغدادي ـ مثيراً الضحك والابتسام والأسى على ما يعتري الطبيعة البشرية من أمراض نفسية ، وما يعتورها من نقص عن بلوغ الأمثل والأجمل في الفكر وفي الحياة »[205] .

سخر « الجاحظ » من الأشرار والحمقى ، والتقى رنين الضحك بلذعات السخرية في إظهار نقائصهم وعيوبهم ، بأسلوبه التأليفي ، المميز لكتاب « البخلاء » ، الذي وصفه بأنه في : « نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز في باب الجد »[206] ، مراوحاً بين الأحاديث الطويلة بالطرف القصيرة دفعاً للسآمة والملل . يقول « الجاحظ » : « ألا إني لا أشك على حال أن النفوس ـ إذا كانت إلى الطرائف أحق ، وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أصب ـ إنها خليقة باستثقال الكثير ، وإن استحقت تلك المعاني

---

(201) مقدمة «البخلاء» لطه الحاجري ، ص 54.

(202) كز الخلق : الكزازة : اليبس والانقباض (الصحاح : مادة ز ز) .

(203) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ص 200 وما بعدها .

(204) المصدر نفسه : ص 220

(205) د . أنس داود : دراسات نقدية في الأدب ، ص 209

(206) الجاحظ . البخلاء ، ص 1 تحقيق الحاجري .

الكثيرة ، وإن كان ذلك الطويل أنفع وذلك الكثير أردأ»[207] . فإذا انتهى بتحليله وتصويره ، وهزئه وسخره ، من أصحاب ملحه وطرائفه أخذ في أحاديث الأعراب والعرب . يقول « الجاحظ » : « احتجنا عند الطويل ـ وحين صار الكتاب طويلاً كبيراً ـ إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب ، وطعامهم ، وما يتمادحون به ، وما يتهاجون به ـ شيء ، وإن قل ـ ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب ، ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس ، لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب »[208] .

***

ومن الأنماط الجميلة التي حفلت بسخريات « الجاحظ » الهجائية الملفوفة بثياب المدح : رسالة « التربيع والتدوير » (التي ستتناولها بالتفصيل في الباب الثالث) ، وفيها يتهكم بـ « أحمد بن عبد الوهاب » ، ويصوره دعياً حقوداً مني بالجهل وسوء الخلق وتشويه الخلق ، ولكنه ، مع هذا ، يدعي الجمال في كل شيء .

خامساً : أثر السخرية الجاحظية في الأدب العربي

امتدت آثار الجاحظ الفريدة ، مع الزمن ، في ميدان الأدب الساخر ، حتى وصلت إلى العصر الذي نعيش فيه .

كان « للجاحظ » عشاق ، ينهلون من مورده ، وينسجون على منواله ، ويرتشفون من رحيق فنه الساخر الفياض، الذي يخلط فيه الجد بالهزل، ترويحاً عن النفس ، بما كان يدمجه فيه من الطرف ، والفكاهات ، والنوادر. . . كما أشار إلى ذلك في كتابه « الحيوان » ، فقال : « . . . وعلى أني ربما وشحت (هذا الكتاب) ، وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام ، وطرف أخبار ، وغرر

(207) الجاحظ : الحيوان ، مطبعة الحلبي ، مصر ، جـ 6 ، ص 8 ، 9

(208) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 213.

أشعـار ، مع طـرف مضاحيـك ، ولولا الـذي نحـاول من استعـطاف على استتمـام انتفاعكم ، لقد كنا تسخفنا وسخفنا شأن كتابنا هذا »[209] .

* * *

ونستطيع أن نرى أثر السخرية الجاحظية واضحاً في أدب كثير من الكتاب ، منذ عصر « الجاحظ » وحتى يومنا هذا ، ومن هؤلاء الكتّاب :

١ ـ ابن قتيبة[210] .

تأثر « ابن قتيبة » بـ « الجاحظ » في سخـره ، واحتجاجـه لذكـر طرفـه ومزحـه وفكاهاته وسوق الهزل في موضع الجد . يقول في مقدمة كتابه « عيون الأخبار » :

« . . وسينتهي بـك كتابنـا هذا إلى بـاب المـزاح والفكـاهـة ، ومـا روي عن الأشراف والأئمة فيهما . فإذا مر بك ـ أيها المتزمت ـ حديث تستخفه أو تستحسنه ، أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به ، واعلم أنك ـ إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك ـ فإن غيرك ، ممن يرخص فيما تشددت فيه ، محتاج إليه ، وإن الكتـاب لم يعمل لـك دون غيرك ، فيهيـأ على ظاهـر محبتك ، ولـو وقع فيـه توقي المتزمتين لذهب شعر بهائـه ، وشطر مـائه ، ولأعـرض عنه من أحببنـا أن يقبل إليـه معك »[211] .

ويكـاد يتفق حجـاج « ابن قتيبـة » مـع احتجـاج « الجـاحظ » في خلط الجـد بالهزل ، والدفاع عن الفكاهة والضحك ، يقول « الجاحظ » في كتاب « الحيوان » : « وإن كنا قد أمللناك بالجد ، والاحتجاجات الصحيحة والمروحة ، فسأنشطك ببعض

---

(209) الجاحظ : الحيوان ، جـ 6 ، ص 15 مفاعيل جمع فات المعاجم وتقدير مفرده مضحك أو مضحكة ، وزيدت الياء في الجمع على طريقة الكوفيين، والمعروف أضحوكة وأضاحيك .

(210) ابن قتيبة : هو أبو محمد بن عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين ، من كتبه « أدب الكاتب » و « عيون الأخبار » ، ولد سنة 213هـ ببغداد ، وقيـل بالكـوفة ، وأصله فـارسي أو تركي من « مـرو » بخراسان ، تعلم علوم اللغة والشريعة ، حتى لمع اسمه بين الفقهاء ، فتولى القضاء بـ « دينور » ، ثم اشتغل بالتدريس في بغداد حتى توفي سنة 276هـ . ومع أنه سني محافظ ، فلقد أكب على كتب الجاحظ يدرسها ويمثلها ، وألف كتابه « مشكل القرآن » و « تأويل مختلف الحديث » ، وقد حمل فيه على الجاحظ والمعتزلة حملة بل حملات شعواء ! .

(211) ابن قتيبة : عيون الأخبار (المقدمة) ، س: ل .

البطالات . . . ولو أن ذلك لا يحل ، لكان في باب اللهو ، والضحك ، والسرور ، والبطالة ، والتشاغل ما يجوز في كل فن . . . الخ »[212] .

وقد اتفق « ابن قتيبة » مع « الجاحظ » في ذكر العورات والسوءات ، وتأثر به فيها تصويراً للحقيقة كما هي ، يقول « الجاحظ » : « وبعض الناس ، إذا انتهى إلى ذكر . . . ارتدع وأظهر التقزز ، واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف ، والكرم ، والنبل ، والوفاء ، إلاّ بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلاّ عن لؤم مستعمل ، ونذالة متمكّنة »[213] .

ويستخدم « ابن قتيبة » هذا الأسلوب في وصف العورات متأثراً بالجاحظ ، فيقول : « وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة ، تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مر بك حديث فيه إفضاح بذكر عورة أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تُصعّر خدك ، وتعرض وجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثر ، وإنما المآثم في شتم الأعراض ، وقول الزور ، والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب »[214] .

و « الجاحظ » يقص نوادر الأعراب والمولدين على ما هي عليه بلحنها ، ويرى أن الإعراب يفسدها ، وكذلك يصنع « ابن قتيبة » . يقول « الجاحظ » : « . . وأنا أقول : إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع ذلك الكلام أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العبارة » .

فإذا أدخلت على هذا الأمر ـ الذي إنما أضحك بسخفه ، وبعض كلام العجمة التي فيه ـ حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته إلى صورة الأعراب الفُصَحاء

---

(212) ارجع إلى ص 130 ، والمصدر هو نفسه (الحيوان جـ 3 ، ص 5 ، 6) .
(213) الجاحظ : الحيوان ، جـ 3 ، ص 40 .
(214) ابن قتيبة : عيون الأخبار (المقدمة) ، س ، ل .

وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته »[215] .

ويقول « ابن قتيبة » : « . . . وكذلك اللحن ، إن مر بك في حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدنا وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها وسأمثل لك مثالاً : قيل لـ « مزيد المديني » ، وقد أكل طعاماً كظه : قيء! قال : ما أقيء نقا ولحم جدي ، مراتي طلاق ، لو وجدت هذا قيئاً لأكلته .

ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها ، وكان أحسن أحوالها أن يكافىء لطف معناها ثقل ألفاظها »[216] .

وهكذا نرى « ابن قتيبة » يسير وراء « الجاحظ » في نهجه السخري ، وأسلوبه السحري .

2 ـ أبو المطهر الأزدي[217] :

صرح « أبو المطهر » في حكايته بأنه اتبع نهج « الجاحظ » في سخريته وحكايته ، فقال : « بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله . . . أما الذي اختاره من الأدب فالخطاب البدوي والشعر القديم العربي ، ثم الشوارد التي اخترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدب ، والنوادر الذي اخترعها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء هذا الذي أحصله من أدب غيري وأقتنه ، وأتحلى به وأدعبه ، وأروجه من

---

(215) الجاحظ : الحيوان ، جـ 1 ، ص 282.

(216) ابن قتيبة : عيون الأخبار (المقدمة) ، ص : م .

(217) لم تهتم كتب التراجم والأخبار به ، والذي شهره حكايته التصويرية التي نشرها الأستاذ « آدم ميتس » وطبعت في « هيدلبرج » عام 1902م ، وحقق الدكتور « زكي مبارك » انتماءه لكتاب القرن الرابع الهجري ، والذي لفته لهذا نص حكايته التي يقول فيها « أبو المطهر » : « . . . وكعهدي لهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت أنا وجماعة بـ (الكرخ) أربعمائة وستين جارية في الجانبين ، وعشر حرائر ، وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحذق والظرف ما يفوق الوصف » والذي لفته لهذا أيضاً أنه ـ في العقبة ـ يتحدث عن رجال هم من أعيان القرن الرابع الهجري ، لا شك في ذلك (يراجع الدكتور « عبد الحكيم بليع) : النثر الفني ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مصر ، 1969م ، ص 304 - 305)

ملح ما تنافسوا فيه ويصدق شاهد عليه أشعار لنفسي دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادي ، كنت أعاشره برهة من الدهر ، فيتفق منه ألفاظاً مستحسنة ومستخشنة ، وعبارات عن أهل بلدة مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم . . .

ولعلي صرت ، في ذلك ، كما قال « أبو عثمان » في فصل من كلامه : « وأنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن ، مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئاً . . »[218] .

صور «أبو المطهر» أخلاق البغداديين، ومجونهم، وعبثهم في إبداع ودقة وإتقان ، كما كان يصنع « الجاحظ » . واختار لحكايته بطلاً مزعوماً من البغداديين ، سماه « أبا القاسم البغدادي » ، واستنطقه وحاوره وداوره ، بمرح وهزل ، كما كان يصنع « الجاحظ » مع بخلائه . ونقل « أبو المطهر » صورة العبث ، التي تتسم بالانحلال الخلقي عند البغداديين في التغزل بالغلمان في صراحة ، كما فعل « الجاحظ » في تصوير مجتمعه البصري والبغدادي . يقول « أبو المطهر » في حكايته : « كم تشغلني يا أبله ، وتسألني عن الأباطيل ، وتقطع كلامي بما لا يفيدك ؟! ما أرى واللّه ، على رأس أحدكم غلاماً نظيفاً ، غنج الحركات ، حلو الشمائل ، خنث الأعطاف ، بابلي الطرف ، يمشي بخنصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعته الخالق ، خده جلنار ، وعيناه نرجس ، وشاربه زمرد ، وشفتاه مرجان أو عقيق ، وثغره در ، وريقه رحيق ، كأنه دينار منقوش ، أو جرْعَةُ عسل . . لو جذب عضو منه انفطر ، أرق من نسيم الهواء ، وألذ من الماء بعد الظمأ ، كأنه طاقة ريحان ، أو غصن بان ، أو قضيب خيزران ، أو طاقة آس ريان ، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط قلم ، وكأن عينيه عينا جؤذر ، وكأن أنفه حد سيف ، وكأن وجنته الخمر، أو لون الراح ، أو خمرة التفاح »[219] .

---

(218) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم البغدادي ، هيدلبرج ، مطبعة كرك ونتر ، عام 1902م.

(219) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم البغدادي ، ص 65.

وفي سوقه للنوادر والفكاهات لا يتقيد بالإعراب ، لأنه يرى أن الإعراب يفسدها ويذهب برونقها ، وفي هذا يلتقي ، تماماً ، مع « الجاحظ » . يقول « أبو المطهر » : « . . . وإذا قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره ، أو ليلة كذلك ، وإنما يمكن استيفاؤها واستغراقها في مثل هذه المدة فمن نشط لسماعها ، ولم يعد تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه ، ولا لحناً يرد فيها من عبارتهم قصور معرفة يعيرني بها ، لا سيما مع انتهائه منها إلى الحكاية البدوية الأدبية التي أردفتها بها ، ومع قول أحد البلغاء : « ملح النادرة في لحنها ، وحلاوتها في قصر متنها ، وحرارتها في حسن منطقها ، كانت له من البسط جهده المتعب . . . »[220] .

احتلت السخرية حيزاً كبيراً في أدب « الجاحظ » حيث مزج الجد بروح الدعابة والسخر ، و « أبو المطهر » متأثر بأستاذه في هذا الفن ، فقد ألف حكايته تهكماً بالمنافقين مشوباً بروح الدعابة ، مبيناً طبائعهم ، ولكن في وصف سطحي ، غير مستبطن للدخائل والإغائص في الأعماق (على نحو ما سنجده عند استاذه « الجاحظ » في تصويره شخصية « أحمد بن عبد الوهاب » ، في رسالة « التربيع والتدوير ») .

3 ـ الوشاء[221] :

إنه صاحب كتاب « الموشى » أو « الظرف والظرفاء » الذي حاول أن يضع فيه ـ للظرف والظرفاء ! قوانين ، بعد أن خالط علْيَة القوم رجالاً ونساء ، وخبر طوائف مجتمعه . فقال : « . . . واعلم أن الظرف ليس بمستغنى عنه ، ولا هو مما يخل منه ، ولا يعنف فيه صاحبه ، ولا ينذر عليه طالبه ، بل هو أنبل ما استعمله العلماء ، وصبا إليه الأدباء ، وتزينوا به عند أودائهم ، وتحلوا به عند أخلائهم ، وربما تكلفه

---

(220) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم البغدادي (المقدمة) .

(221) هو أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء . أحد أئمة الأدب في القرن الثالث وصدر الرابع ، أخذ النحو على « المبرد » ، وعلم في قصور الخلفاء ، وتتلمذت على يديه بعض الفتيات (مثل « منية » جارية المعتمد على الله) توفي سنة 325هـ .

قـوم ليس من أهله فظرف ، وعـانـاه فلطف ، وأنـه من المـطبـوعين أحسن منـه من المتكلفين ، وللمتكلف علامات تـظهر في حـركاتـه وتبين في لحظاتـه ، لا يسترهـا بتصنعـه ، ولا تغيب بتستره ، وإن المـطبـوع على الـظرف ليشهـد لـه القلب ـ عنـد معاينته ـ بحلاوته ، وتسكن النفس ـ عند لقائه ـ إلى مجالسته ، وتصبو إلى محادثته ، وترتاح إلى مشاهدته ، وهو بين في شمائله ، ظاهر في خلائقه ، بيّن في منطقه ، غير مستتر عند صمته ، دلائله واضحة في مشيته وزيه ولفظه ، يُستدل عليه بظاهر حركـة المـلاحة ، دون اختبـار باطن حـلاوتـه ، ألا تـرى أن من زيهم التقـزز ، والنـظافـة والمـلاحة ، واللطافـة ، وإظهار البِـزّة ، وطيب الرائحـة ، فالنفـوس إليهم تـائقـة ، والقلوب وامقة ، والعيون رامقة ، والأرواح عاشقة ، وإن من زيهم الوقـار والخشوع والسكـون والخضوع ، والتصنـع بالأخـلاق الوضيـة ، والشيم السنيـة ، والمـذاهب الجميلة ، والهمم الجليلة »[222] .

وتابع « الوشاء » حديثه عن مذهب الظرفاء بألفاظ ممتعة مختارة ، ومعان دقيقة رائعة ، وجمل موسيقية بديعة ، تبدو عليها الديباجـة الجاحـظية الكـريمة : في رقـة ألفاظه ، وروعة معانيه ، وتعادل جمله . .

وجعـل « الوشـاء » من مذهب الـظرفاء الميـل إلى مغازلـة النساء ومـداعبتهن وحبهن ، فقال : « . . . وهن (النساء) على ما فيهن من سرعـة الملل ، وما طبعن عليه من البدل متمكنات من القلوب ، ميرآت ـ عند محبتهم ـ من العيوب ، وإن من محمود مذاهب الظرفاء الميل إلى مغازلة النساء ، ومـداعبة الفتيـات ، وحب النساء عندهن من حسن الاختيار وهو أشبه بمـذاهب ذوي الأخطار ، وليس هـوى الغلمان عندهن بمحمود ، ولا هو في سيرهن موجود ، وإنما آثروا هوى النساء على الغلمان ، ومدحوهن بكل لسان ، لمليح براعتهن وتكامل ملاحتهن ، وعجيب شكلهن ، وبديع دلهن . . . »[223] وقال : « اعلم أن من كمال أدب الأدباء ، وحسن تظرف الظرفاء ، صبرهم على ما تولدت بـه المكارم ، واجتنـابهم لخسيس المآثم ، وأخـذهم بالشيم

---

(222) الوشاء : الموشي ، ص 36 ، 37 ، المطبعة الحسينية ، مصر 1324هـ.
(223) المصدر السابق : ص 71.

السنية ، والأخلاق الرضية ، وإنهم لا يداخلون أحداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قاريء في كتابه، ولا يقطعون على متكلم كلامه، ولا يستمعون على مسر سره، ولا يسألون عما وري عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه ، يتسرعون إلى الأمور الجليلة ، ويبطأون عند الأشياء الرذيلة ، فهم أمراء مجالسهم ، بهم يفتح عسر الأعلاق ، وبهم يتألف متنافر الأخلاق ، تسمو إليهم الآماق ، وتنثني عليهم الأعناق ، ولا يقدر على مثالبهم الطالب . . . »[224] .

وقد وشي « الوشاء » كتابه بغرر من الطرف والملح ، والفكاهة والسخر ، مزيلاً بذلك ، عن القلوب عناءها ، ومبدداً عن النفوس لأواءها ، سالكاً طريقة من سبقه في الفن الهزلي ، وإن لم يكن مثل « الجاحظ » في ضحكه وإضحاكه ، إلَّا أنه أبهج النفوس ، وأسر الخواطر ، بطرائفه ونوادره .

4 ـ الحسن التنوخي[225] :

يجعل « التنوخي » الحياة مصدراً لأدبه ، مثلما كان يفعل « الجاحظ » يقول « التنوخي » : « حدثني أحمد بن محمد المدائني قال : وقفت في جامع المدينة بـ (بغداد) على حلقة صوفية يتحاورون على الخطرات والوساوس، ومسائل تشبه الوساوس لم أفهمها ، وخطر لي أن أمجن بهم ، فقلت له : أيها الشيخ المصدّر ، مسألة . فقال : هات . فقلت : أخبرني إذا كنت شيخاً في معناك حلْساً في ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرقب خرْزك على سبيل العلم ، وكنت تحت الإرادة ، فهل تصير أوصافك شيء ، مع تعلقك بحبل القدرة يا بطال ؟ قال : فوقع لمن حوله أنها مسألة ، وأخذوا يتعاطُون الجواب . وفطن الشيخ ، فخفت أن يأمرهم بي ، فانسلكت »[226] .

---

(224) المصدر السابق : ص 119 وما بعدها .

(225) يتحدث « ياقوت » في معجمه (جـ 16 ، ص 92) عن « الحسن التنوخي » فيقول : « هو من أبرز الكتاب الذين عرفوا في القرن الرابع (الهجري) ، ولد بـ « البصرة » سنة 329هـ وتوفي بـ « بغداد » سنة 384هـ» ويذكر ياقوت أن للتنوخي من المصنفات : كتاب « الفرج بعد الشدة » في ثلاث مجلدات ، وكتاب « نشوار المحاضرة » في أحد عشر مجلداً ، وقد اشترط فيه ألا يضمنه شيئاً نقله! ولكنه لم يف بشرطه .

(226) حسن التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص 54.

ومن طريف ما أورده من النوادر قوله : « حدثني أبو الحسن بن عباس ، قال : كان يألف « أبا القاسم بن الحـواري » رجل من أهل (عزراء) يخطب بأهلها ، وكان ماجناً خفيف الروح ، مليح الحديث والكلام ، طيب النثوار والأدب ، يكنى بـ « أبي عصمة » ، وكان يؤاكله دائماً ويختصه وينفق عليه ، وكان « أبو القاسم » شديد البـر بأمه ، وكان يتبعض لها الماء فضلاً عما سواه ، ولا يتهنأ بأكل شيء إلاَّ ما أكلت منه ، وكان إذا استطاب لوناً أن ينفذ من مائدته إليها . فأكل عنده « أبو عصمة » هذا أول يوم وهو لا يعرف رسمه ، فقدم غير لون طيب ، فما شبع منه « أبو عصمة » حتى أمر به « أبو القاسم » فرفع إلى والدته ، وقـدمت مضيرة بفـراخ مسمنة ، ودجـاج هنديـة ، ودهن الجوز والخردل ، فما أكلوا منها حسياً ، حتى أمر « ابن الحواري » برفعها إلى والـدته ، فـأخذ « أبـو عصمـة » رغيفـاً وقـام يمشي مـع الغضـارة ، فقـال لـه « ابن الحواري » : إلى أين يا ابن عصمة ؟ فقال : إلى الوالدة يـا سيدي آكـل معها هـذه المضيرة ، فإن هذه المائدة خراب ، والخصب عندها ! فضحك « ابن الحواري » ، ورد اللون إليه »[227] .

وقد اتسمت فكاهة « التنوخي » بالصراحة في الوصف والتصوير ، والصدق في رسم مناحي الحياة: من حيل اللصوص ، وقطاع الطرق ، والبخـلاء ، والسخفاء ، والحمقى ، والمـوسوسين . . . وغيـرهم . يقول « التنـوخي » : ومن طـريف حيـل اللصوص الواقعة في عهدنا : أن « أبا القاسم بن عبد اللّه بن محمد الخفاجي » شاهد لصاً أخذ ، وتشاهدوا عليه أنه يغشى الأقفال في الدور اللطاف التي نخمن على أنها لعزب ، فإذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة كأنها بئر النرد ، وطرح فيها جوزات كأن إنساناً كان يلاعبه ، وأخرج منديلاً فيه مقدار مائتي جوزة ، نثره إلى جانبها ، ثم دار يكور ما في الدار مما يطيق حمله ، فإن لم يفطن به أحد ، خرج من الدار ، وحمل ذلك كله ، وإن جاء صاحب الدار ، ترك عليه قماشه ، وطلب المقـاتلة والخروج ، فإن كان صاحب الدار جلداً ، فواثبه ، ومنعه ، وهم بأخذه ، وصاح : اللصـوص ، واجتمع الجيران ، أقبل عليه وقال له : ما أبردك ! أنا أقامرك بالجوز منذ شهور ، قد

(227) حسن التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص 63.

أفقرتني وأخذت مني كل ما أملكه، ما صحت وإلا فضحتك بين جيرانك ، وأنت لما قامرتـك الآن قماشك ، أخذت تدعي علي اللصوصية ، يا غث يا بارد ؟! »[228] .

ويستمر « التنوخي » في تصوير مجتمعـه ، ذاكراً عيـوبه ونقـائصه كمـا رآها ، فيحكى بعد كلام طويل ، عن بطل هذه الحكاية : « . . . وكان سبب سقوط محله ـ على ما أخبرني به « أبو الحسين بن عياش » القاضي ـ قصة ابنته : فإنه ذكر أن الخبر استفاض بـ « بغداد » أنه دخل داره ، فوجد مع ابنته رجلاً ليس لها بمحرم ، فقبض عليه ، وعمل على ضربه بالسياط ، فاشير عليه ألا تفعل ، وقيل له : « إن في ذلك هتكاً لابنتك ولك ، فأطلق الرجل ، وقيـد المرأة واحفـظها . فلم يقبـل ، واستدعى صاحب الشرطة فضرب الرجل بالسياط على باب داره . وكان الرجل ظريفاً ، فأنشأ يقول متمثلاً ، وهو يضرب :

«لهـا مثل ذنبي اليـوم، إن كنت مـذنبـاً ولا ذنب لي، إن كان ليس لها ذنب »!

يا قوم أيحد أحد الزانيين دون الآخر ؟! أخرجوا صاحبتي ، وإلاَّ فأفرجوا عني . قال : فافتضح بذلك وانتهك ، وتناوله الشعراء الخطباء والناس ، حتى سقط محله . وكان من ذلك ما قاله له « ابن بسام » ، في قصيدة أولها :

يـا قـومنـا، إن القيـامـة دانيـة زان يحـد ولا تحـد زانيـة»![229]

ويحكي « حسن التنوخي» مصوراً فشـو اللعب في مجتمعه ، فيقول : « حدثني أبي ، قـال : كـان لي صـاحب يخـدم أبـي ، ويخـدمـني بـعـده ، من أهـل (أنطاكية)[230] ، يقال له « أبو إبراهيم » ، وكان مستهتراً يلعب « الشطرنج » ، وكان له فيها عجائب ، منها : أن غلماني كانوا يلاعبون بها ، وكان إذا لعب بها برك على الأرض ، واتكأ على ذراعيه كالنائم ، فيجيء أحدهم من ورائه، فيعبىء على ظهره

---

(228) حسن التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص 78 - 79.

(229) حسن التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص 167.

(230) أنطاكية : ذكر ياقوت أنها مدينة على الساحل ببلاد الشام ، وهي تابعة لتركيا الآن منذ سنة 1939م .

عدة مخاد ولا يشعر بها ، فإذا انقض الدست أحس بذلك على ظهره وشتم »[231] .

* * *

إن هذه الأمثلة تؤكد تأثر « التنوخي » بـ « الجاحظ » في هزله ، وصراحته في تصوير عيوب مجتمعه ، ولكنه ـ كما نرى ـ لا يصل إلى ما وصل إليه « الجاحظ » في عمقه ، وتحليله ، واستبطانه دخائل النفوس .

5 ـ أبو حيان التوحيدي[232] :

ممن وضح تأثره بـ « الجاحظ » : « أبو حيان التوحيدي » ، الذي احتذى مذهب « الجاحظ » في كل شيء ، وبلغ في ذلك مبلغاً كبيراً ، كما قرر ذلك الأستاذ «حسن السندوبي» في شرح «المقابسات» لـ «أبي حيان»، إذ يقول: «وكان من خصائصه احتذاء « الجاحظ » في الفن في كل شيء ، مطبوعاً على ذلك إلى الحد الأقصى . غير أنه أولع بوضع الأحاديث ، والأسماء ، ووقائع التاريخ في الصورة الروائية ، فلا يكتفي بإيراد الحادث على ما عرف وتناقله الرواة ، بل يعرض له ، ويرسل صيباً مدراراً من فائض بلاغته ، وزاخر بيانه ، فإذا هو قصة ذات وقائع ، وأشخاص ، وأبطال ، إذا مثلت ، وتروق إذا قرئت ، وتملك المشاعر والقلوب إذا استمعت . . ومع ما يُدخله عليها من أصباغ ، وما يطليها به من ألوان ، فهو لا يعدو في النتيجة أن يمثل الحقيقة في أصدق مظاهرها ، فهو الكاتب القصصي الماهر الذي أهدته إلينا الأعصار الأولى ، وله طبع دافق وفكر سابق وعقل فياض بالحكمة وفصل الخطاب ، ومن أخص مزاياه أنه يمزج الأدب بالحكمة ، والنصوص بالفلسفة ، ويولد ، من هذا المزيج ، مذهباً خاصاً لم يسبق إليه »[233] .

---

(231) حسن التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص 340.

(232) هو « علي بن محمد بن العباس التوحيدي » وكنيته « أبو حيان » . كان من أهل الحكمة ، والعلم ، والتصوف ، والأدب ، والفلسفة ، ومن كبار المحققين من رجال المعتزلة ولذلك لقب بـ « التوحيدي » ، فالمعتزلة كانوا يسمون أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » ويعتبر « أبو حيان » من الطبقة الأولى من كتاب القرن الرابع الهجري ، الذين نبه شأنهم ، وعرفت منزلتهم ، اتخذ « الجاحظ » قدوته وإمامه ، وتأثر به ، وسلك مسلكه . قال عنه « ياقوت » : « إنه كان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلك « الجاحظ » (راجع د. عبد الحكيم بلبع : النثر الفني ، ص 291) .

(233) أبو حيان التوحيدي : المقابسات ، شرح « السندوبي » ، ص 17.

إن « أبا حيان » أحيا تراث « الجاحظ » ، لأنه تلقاه بالمتابعة ، لتأثره به ، وإقباله عليه ، وتعشقه لطريقته ، وشغفه به : « اختص « التوحيدي » بوصف آراء المفكرين والنظار على وجه لم يؤثر عن غيره ، حاشا « الجاحظ » واضع هذه الطريقة ، فكأنه تلقى باليمين ذلك الأسلوب الذي كاد يموت بموت « الجاحظ » وأتمه بما حدث بعد « أبي عثمان » من فنون القول ، وضروب المعاني ، ولو كان روح « التوحيدي » غير معذب بالإخفاق والإملاق ، كروح «الجاحظ» الشفاف البراق ، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه ، واطمأن بما تطمئن به روح من تهنأ العيش ، لجاء « التوحيدي » كـ « الجاحظ » إلَّا قليلاً[234] . وقد تأثر « أبو حيان » بأستاذه « الجاحظ » في الدعوة للسخر والهزل ، فقال : « إن النفس تمل ، كما أن البدن يكل ، وكما أن البدن ـ إذا كل ـ طلب الراحة ، كذلك النفس ـ إذا كلت ـ طلبت الروح ، كما لا بد للبدن أن يستعد ويستفيد بالجمام ، كذلك لا بد للنفس أن تطلب الروح عند تكاثف الملل الداعي إلى الحرج »[235] .

وقد ختم بعض مجالسه ، في كتابه « الإمتاع والمؤانسة » ، بفكاهة ، وجعل مجلسه ، في الليلة الثامنة عشرة ، فكاهات ومجوناً ، وقال على لسان الوزير : « تعال ، حتى نجعل ليلتنا هذه مجونية ، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر ، فإن الجد قد كدنا ، ونال من قوانا ، وملأنا قبضاً وكَرْباً ، هات ما عندك . . وربما عيب هذا النمط كل العيب ، وذلك ظلم ، لأن النفس تحتاج إلى بشر ، وقد بلغني أن « ابن عباس »[236] كان يقول في مجلسه ، بعد الخوض في الكتاب ، والسنة والفقه والمسائل : احمضوا . وما أراه أراد بذلك إلَّا تعديل النفس ، لئلا يلحقها كلال الجسد ، ولتقتبس نشاطاً في المستأنف ، ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع »[237] .

---

(234) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 544

(235) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، جـ 3 ، ص 27 (تحقيق الدكتور أحمد أمين) .

(236) ابن عباس : هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . لقبه : الحبر، أدرك الرسول وعاصره وهو غلام ، وقبض الرسول ولما يبلغ ابن عباس سن الرجولة ، كان عابداً ، زاهداً ، عالماً ، ذكياً ، شجاعاً ، أميناً ، حصيفاً توفي في عامه الحادي والسبعين بمدينة الطائف ، حيث شهدت مشهداً حافلاً لمؤمن يزف إلى الجنان .

(237) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، جـ 2، ص 60

وهو ـ « التوحيدي » ـ متفق مع أستاذه « الجاحظ » في هذا . وكان أبو حيان ملماً بأطراف الموضوعات التي طرقها قبله أستاذه فكتب عن أخلاق الحيوان وطباعه ، وما ينبغي أن يتوفر للإنسان من طباع الحيوان مازجاً العلم بالأدب ، فيقول في الليلة التاسعة : « وعدت ليلة أخرى ، فقال : فاتحة الحديث معك ، فهات ما عندك . فكان من الجواب أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان هو صفو الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كدر النوع الذي هو الإنسان ، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صفواً ومصاحباً بهذا النظر ، انتظم فيه ضرب من الحيوان خلق وخلقان أو أكثر ، وظهر ذلك عليه ، وبطن أيضاً بالأمل والأكثر والأغلب والأضعف، كالكمون الذي في طباع السبع والفأرة ، والثبات الذي في طباع الذئب ، والتحرز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل ، والحذر الذي هو في طباع الخنزير ، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثلاً بصاحب المقدمة ، وكذلك ضد ذلك في الخنزير تمثلاً بصاحب الساق ، وكالحراسة التي هي في طباع الكلب ، وكأوب الطير إلى أوكارها التي تراها كالمعاقل ، وغيرها بالدغل والأشب والغياض ، ولهذا قال بعض الحكماء : « خذ من الخنزير بكوره في الحوائج ، ومن الكلب نصحه لأهله ، ومن الهرة لطف نفسها عند المسألة » . .

وقالت الترك : ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاج ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركي ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن بعرواً ـ وهي دابة بخرسان ـ تسمن على التعلي والشقاء . . . »[238] .

لقد تمرس « أبو حيان » بأساليب « الجاحظ » ، وتأسى به ! فناً وسخراً وفلسفة ، وإلماماً بالمعارف ، وتشخيصاً لأمراض مجتمعه ، حتى صار امتداداً لفنه ، إن لم يكن ثمرة من ثمراته ، ونفثة من روحه .

---

(238) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، حـ 3 ، ص 143 - 144

6 ـ ابن الجــوزي[239] :

انتهج « ابن الجوزي » في كتاباته طريق السخر والتهكم ، والطرف والملح ، والظرف والتظرف.

وقد ألمّ بأخبار الحمقى والمغفلين ، والأذكياء ، على اختلاف طبقاتهم ، وذكر كثيراً من حوادثهم ونوادرهم . .

و « ابن الجـوزي » ، وهو يجمـع أخبار حمقـاه ، وأذكيائـه ، ومغفليه يتـدخل بأسلوبه في عرض أخبارهم وحكاياتهم ، لأنـه جمعها من عصـور مختلفة ، وأجيـال متباينة وهذا يجر إلى اختلاف الأساليب تبعاً لذلك ولكن الذي يقرأ هذه الأخبار ، رغم اختلافها ، يجدها بأسلوب واحد ، مما يؤكد تـدخل « ابن الجـوزي » في صياغتهـا بأسلوبه ، إلاَّ في الأخبار المنقولة برمتهـا ، لما بهـا من جوانب فنيـة ، تفيد النكتـة الأدبية المعروضة وفيما يلي نماذج منها :

1 ـ قال : « حدثنا محمد بن كعب القرظي » ، قال : جاء رجل إلى « سليمان »[240] النبي (صلى اللّه عليـه وسلم) فقال : يـا نبي اللّه ، إن لي جيرانـاً يسـرقـون إوزي . فنادى : الصلاة جـامعة . ثم خـطبهم ، فقال في خـطبته : وأحـدكم يسرق إوز جاره ، ثم يدخل المسجـد والريش على رأسـه . . . ! فمسح رجـل برأسه ، فقال « سليمان » : خذوه ، فإنه صاحبكم »[241] .

---

(239) هو « عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي البغدادي ، أبو الفرج » علامة عصره في التاريـخ ، والحديث ، كثير التصانيف ، مولده ووفاته بـ « بغداد » (508 - 597هـ) (راجع الزركلي : الأعلام ، جـ 4 ، ص 89 - 90 ، الطبعة الثالثة ولم يمنعه من اتجاهه نحو السخر أنه عـالم ديني جليل ، حضـر « المستضيء باللّه » درسـه مرات وحرزت حلقه بمائة ألف. وقيل: إن براية أقلامه التي كتب بها حديث الرسول ﷺ جمعت فكانت كـومة كبيـرة، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ، فأغنت ، وبقي منها ! .

(240) هو سليمان بن داود (عليه السلام) ، أحد أنبياء بني إسرائيل ، وقد علمه اللّه الحكمة ، وجعل جنوده من الجن والإنس والطير ، وقصته مع « بلقيس » (مـلكة سبأ) مشهورة (ورد ذكره في العديد من سـور القرآن الكـريم ، وخاصة سورة النحل) .

(241) ابن الجوزي . الأذكياء ، ص 24

2 ـ ومن المنقول عن « عيسى »[242] عليه السلام : إن إبليس جاء إليه فقال له : ألست تزعم أنه لا يصيبك إلاّ ما كتب اللّه لك ؟ قال : بلى . قال : فارم بنفسك من هذا الجبل ، فإنه إن قدر لك السلامة تسلم . فقال : يا معلون إن للّه عز وجل ، أن يختبر عباده ، وليس للعبد أن يختبر ربه عز وجل »[243] .

3 ـ عن « إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي » ، عن أبيه ، قال : كان « حويطب بن عبد العزى » قد بلغ مائة وعشرين سنة ، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام فلما ولي « مروان بن الحكم »[244] المدينة ، دخل عليه « حويطب »، فقال له : « مروان » : ما نيتك ؟ . فأخبره . فقال له : تأخر إسلامك أيها الشيخ ، حتى سبقك الأحداث . فقال : واللّه ، لقد هممت بالإسلام غير مرة ، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك ، وينهاني ، ويقول : تدع دين آبائك لدين محمد»؟ ، فأسكت «مروان»، وندم على ما كان»[245].

4 ـ قال « أبو حنيفة » : خدعتني امرأة ، أشارت إلى كيس مطروح في الطريق ، فتوهمت أنه لها ، فحملته إليها ، فقالت : احتفظ به حتى يجيء صاحبه[246] .

5 ـ قال بعضهم : خرجت في الليل لحاجة ، فإذا أعمى على عاتقه جرة ، وفي يده سراج ، فلم يزل يمشي حتى أتى النهر ، وملأ جرته ، وانصرف راجعاً ، فقلت : يا هذا ، أنت أعمى ، والليل والنهار عندك سواء . فقال : يا فضولي ، حملتها لأعمى القلب مثلك يستضيء بها ، فلا يعثر بي في الظلمة ، فيقع علي ، فيكسر جرتي »[247] .

---

(242) عيسى بن مريم (عليه السلام) نبيّ المسيحية، وكليم المهد، حاول اليهود قتله وصلبه، وادّعوا ذلك فعلاً، ولكن « رفعه اللّه إليه » .

(243) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 24 أيضاً .

(244) بويع مروان بن الحكم بالخلافة كرهاً وتوفي مروان بدمشق سنة 65هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وكان قصيراً أحمر ، ومولده لسنتين خلتا من الهجرة . وكان لمروان عشرون أخاً وثماني أحوات ، وله من الولد احد عشر ذكراً وتلاث بنات . وقد جعل الخلافة لابنه عبد الملك بعده ، وكانت من خلافته تسعة أشهر وأيامٌ وقيل ثمانية أشهر .

(245) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 25 (246) ، (247) : المصدر نفسه : ص 25

6 ـ ومما عرضه « ابن الجوزي » ، في ذكر طرفة من فطن عقلاء المجانين ، هذا النقد الجيد لبعض الأشعار التي كان يتداولها « المبرد »[248] ، قال : انصرفت من مجلس « المبرد » يوماً فجزت بخربة ، فإذا بشيخ قد خرج منها ومعه حجر ، فهم أن يرميني به ، فترست بالمحبرة والدفتر، فقال : مرحباً بالشيخ . فقلت : وبك قال : من أين أقبلت ؟. قلت : من مجلس « المبرد » . قال : البارد . ثم قال : ما الذي أنشدكم ؟ ، فكان من عاداته أن يختم مجلسه ببيت أو بيتين من الشعر . فقلت له : أنشدنا :

أعار الغيث نائله إذا ما ماؤه نفدا
وإن أسدٌ شكا جبناً أعار فؤاده الأسدا»

فقال : أخطأ قائل هذا الشعر . قلت : كيف ؟. قال : ألا تعلم أنه إذا أعار الغيث نائله بقي بلا نائل ؟ وإذا أعار الأسد فؤاده بقي بلا فؤاد ؟. قلت : فكيف كان يقول ؟ فأنشده :

علم الغيث الندا ، فإذا ما وعاء علم البأس الأسد
فإذا الغيث مقر بالندى وإذا الليث مقر بالجلد

قال : فكتبتها ، وانصرفت . ثم مررت يوماً آخر بذلك المكان ، فإذا به قد خرج وبيده حجر ، فكاد يرميني ، فترست فيه ، فضحك وقال : مرحباً بالشيخ . فقلت : وبك . قال : من مجلس « المبرد » ؟. قلت : نعم . قال : وما الذي أنشدكم ؟ قلت أنشدنا :

إن السماحة والمروءة والندى قبر يمر على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به كوم الجياد، وكل طرف سابح»

(248) المبرد : هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد ، النحوي ، اللغوي ، الأديب ، الإخباري ، المفسر . ولقب بـ « المبرد » من أستاذه « المازني » ، حين أجاب عن دقيق وعويص كتاب « الألف واللام » ، قال له : « قم ، فأنت المبرد أي المثبت للحق ، كان زعيم البصريين في الوقت الذي كان فيه « أحمد بن يحيى ثعلب » زعيم الكوفيين . وكان لبقاً فصيحا ، كيِّساً ، عالي البيان ، ذا حُظوة عند الخلفاء والأمراء ومن هؤلاء « الفتح بن خاكان » و « محمد بن عبد اللّه بن طاهر » وقد ولد « المبرد » غداة عيد الأضحى من سنة 210هـ ، وفارق الحياة في سنة 285هـ .

فقال : أخطأ قائل هذا الشعر . قلت : كيف؟ . قال : ويحك ! لو نحرت يخت (خراسان) لما أبر في حقه . قلت : كيف كان يقول ؟ فأنشد :

احملاني إن لم يكن لكما عقر   إلى جنب قبره فاعقراني
وانضحا من دمي عليه، فقد كان   دمي من نداه لو تعلمان

فلما عدت إلى « المبرد » قصصت عليه القصة ، فقال : أتعرفه ؟ قلت : لا . قال : ذلك « خالد الكاتب » ، تأخذه السوداء أيام الباذنجان »[249] .

إن أسلوب « ابن الجوزي » يتسم بالسهولة والترسل دون تأنق يذكر ، ولكنه كان يعرض حكاياته بأسلوبها ولفظها ، دون تحرز من ذكر ما يمس الجانب الخلقي تصريحاً أو تعريضاً ، وهذا الذي يجمعه بـ « الجاحظ » ، التصريح بذكر العورات والسوآت. ومن ذلك: ما روي عن «أيوب الوزان»، قال: «المفضل»[250]: « دخلت على « الرشيد » وبين يديه طبق ورد ، وعنده جارية مليحة شاعرة أديبة ، قد أهديت إليه ، فقال : يا مفضل ، قل في هذه الوردة شيئاً تشبهها بهً ، فأنشأت أقول :

كأنه خد مرموق بقلبه   فم الحبيب وقد أبدى به خجلاً

فقالت الجارية :

كأنه لون خد، حين يدفعني   كف الرشيد لأمر يوجب الغسلا

فقال : يا مفضل ، قم فاخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيجتنا ، فقمت ، وأرخيت الستور »[251] .

وقد يعرض « ابن الجوزي » حكاياته مع تعفف في الأسلوب ، ورقي في المساجلة الأدبية ، كما كان يفعل « الجاحظ » ، في مثل هذه الرواية : قال « الجاحظ » : رأيت جارية بسوق النخاسين بـ (بغداد) ينادى عليها ، وعلى خدها خال ، فدعوت بها ، وجعلت أقلبها ، فقلت لها : ما اسمك ؟ . قالت : « مكة » . فقلت : اللّه أكبر ، قرب الحج ، أفتأذنين أقبل الحجر الأسود ؟ . قالت : إليك

(249) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 29.

(250) المفضل : هو أبو عباس المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، راوية عالم بالأدب توفي سنة 168هـ.

(251) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص 41.

عني ! ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ . . **لم تكونوا بالغيه إلَّا بشق الأنفس** ﴾[252]؟ .

فمن ذلك قول « ابن الجوزي » : « عرض على رجل جاريتان : بكر وثيب فمال إلى البكر ، فقالت : لم رغبت فيها ، وما بيني وبينها إلَّا يوم ؟! فقالت البكر : ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ ، فأعجبتاه ، فاشتراهما »[253] .

وقد عرض « ابن الجوزي » في كتبه الأذكياء ، « أخبار الحمقى والمغفلين » ، « الظراف والمتماجنين » ، لبعض مجالس الغناء والسخر ، وهي تجمع بين طلاوة الشعر ، وجودة الأداء . وهذه الأشعار المنتقاة تمتاز بالرقة والجمال ، وروعة الأسلوب ، وشبوب العاطفة ، فهي من مختارات الشعر، وأقربها وقعاً على النفس .

كما أنه جمع أطراف ما قالت العرب على اختلاف طبقاتهم العلمية والاجتماعية: من ملح وفكاهات، في البوادي والمدن وفي قصور الخلفاء والأمراء، وفي المدارس والمساجد . . . من صدر الإسلام ، حتى مطلع المائة السابعة للهجرة تقريباً .

وكان يمزح ـ كأستاذه « الجاحظ » ـ بين العلم والأدب ، فنجده (على سبيل المثال) يذكر تحليلاً لصفات الحمقى ، يقوم على حقائق « علم الفراسة »[254] المعروفة أو المتعارف عليها ، في زمنه ، فيقول : « قال الحكماء : إذا كان الرأس صغيراً رديء الشكل دل على رداءة في هيئة الدماغ . قال « جالينوس »[255] : « لا

---

(252) المصدر نفسه ، ص 41 أيضاً والآية من سورة النحل رقم 7.

(253) المصدر نفسه ، ص 42 والآية من سورة الحج الآية : 47.

(254) علم الفراسة : علم يستدل به من ظاهر الإنسان على طباعه ، وأول من بحث في هذا العلم اليونان القدماء ، وللكاتب العربي الأديب « جورجي زيدان » مصنف جيد في ذلك أسماه « علم الفراسة الحديث » .

(255) جالينوس : ظهر جالينوس بعد ستمائة وخمس وستين سنة من وفاة « أبقراط » ، وانتهت إليه الرياسة في عصره ، وهو الثامن من الرؤساء الذين أولهم « اسكليادس » مخترع الطب ويذكر « ابن النديم » أنه : منذ وفاة « جالينوس » إلى عهدنا هذا (أي إلى عهد ابن النديم المتوفي سنة 438هـ / 1046م) على ما أوجبه الحساب الذي ذكره « يحيى النحوي » و « إسحاق بن حنين » بعده تسعمائة سنة . وكان « جالينوس » كثيراً ما يلتقي مع « الإسكندر الأفردوسي » . . . وبين « جالينوس » و « المسيح » (س) سبع وخمسون سنة ، المسيح أقدم منه (الفهرست ص 288 - 289) (انظر هامش ص 332 من كتاب : حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، لرشيد حميد حسن الجميلي ، طرابلس 1982م) .

يخلو صغر الرأس البتة من دلالة على رداءة هيئة الدماغ ، وإذا قصرت الرقبة دلت على ضعف الدماغ وقلته ، ومن كانت بنيته غير متناسبة كان رديئاً حتى في همته وعقله ، مثل الرجل العظيم البطن ، القصير الأصابع ، المستدير الوجه ، العظيم القامة ، الصغير الهامة اللحيم الجبهة والوجه والعنق والرجلين ، فكأنما وجهه نصف دائرة . كذلك إذا كان مستدير الرأس واللحية ، ولكن وجهه شديد الغلظ ، وفي عينيه بلادة وحركة ، فهو ، أيضاً ، من أبعد الناس عن الخير . فإن جحظتا ـ يعني العينين ـ فهو وقح مهذار . فإن كانت العين ذاهبة في طول البدن ، فصاحبها مكار لص . وإن كانت العين عظيمة مرتعدة ، فصاحبها كسلان ، بطال ، أحمق ، محب للنساء . والعين الزرقاء التي في زرقها صفرة كأنها زعفران ، تدل على رداءة الأخلاق جداً والعين المشبهة لعين البقر ، تدل على الحمق. وإن كانت العين كأنها ناتئة ، وسائر الجفن لاطيء ، فصاحبها أحمق . وإن كان الجفن من العين منكسراً ، أو متلوناً من غير علة ، فصاحبها كذاب ، مكار ، أحمق . . . ومن طالت عنقه ورقت ، فهو صياح ، أحمق ، جبان . ومن كان أنفه غليظاً ممتلئاً ، فهو قليل الفهم . ومن كان غليظ الشفة فهو أحمق غليظ الطبع . ومن كان شديد استدارة الوجه فهو جاهل . ومن عظمت أذنه ، فهو جاهل ، طويل العمر . وحسن الصوت ، دليل على الحمق ، وقلة الفطنة . واللحم الكثير الصلب ، دليل على غلظ الحس والفهم والغباوة والجهل في الطول أكثر . . . »[256] .

7 ـ النويري[257] :

هناك من خصص في كتبه الضخمة باباً للمجون ، والنوادر ، والسخرية . ومن هؤلاء « النويري » ، في كتابه « نهاية الأرب » ، قال في الباب الذي خصصه لذلك : « هذا الباب مما تنجذب النفوس إليه ، وتشتمل الخواطر عليه ، فإن فيه راحة للنفوس إذا تعبت وكلت ، ونشاطاً للخواطر إذا سئمت وملت ، لأن النفوس لا تستطيع ملازمة الأعمال ، بل ترتاح إلى تنقل الأحوال ، فإذا عاهدتها بالنوادر في بعض الأحيان ،

---

(256) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 28 - 29

(257) هو « شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري » ، المتوفي سنة 732هـ ـ 1330 م ، من أشهر مؤلفاته « نهاية الأرب في فنون الأدب » .

ولاطفتها بالفكاهات في أحد الأزمان ، عادت إلى العمل الجد بنشطة جديدة ، وراحة في طلب العلوم مديدة »[258] .

ثم أتي بحشد هائل من الملح والطرف ، والهزء والسخر ، وكأنه حلقة في مدرسة « الجاحظ » السخرية التي تضم إليها الفكهين ، والمتندرين ، والساخرين .

8 ـ يوسف الشربيني[259] :

تتوالى مسيرة الساخرين المتأثرين بـ « أبي عثمان » حتى نلتقي ـ في القرن الحادي عشر للهجرة ـ بالشيخ « يوسف الشربيني » ، الذي رأى العلل تدب في أوساط مجتمعه المصري ، بسبب العنف الذي يعانيه على أيدي العثمانيين[260] ، فقد عم البؤس القرى ، فأصيب بالفقر والجهل والمرض ، وسرت العلة حتى إلى فقهائها ، مما جعل الشيخ « الشربيني » ينظم قصيدته : « أبا شادوف » . . . قصيدة ساخرة هازئة، شرحها ـ فيما بعد ـ في كتاب سماه : « هز القحوف ، في شرح قصيدة أبي شادوف » .

سخر الشيخ « الشربيني » ـ في كتابه ـ من خطباء القرية ، فجعل ينظم لهم خطباً في الطعام والمؤاكلة ـ على طريقة خطبة الجمعة، هازئاً بهم ، وممعناً في السخر منهم ، يقول في الخطبة الأولى .

« الحمد للّٰه مستحق الحمد على التحقيق ، الذي وفق بين الفرج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقري للعسل النحل رفيق ، أحمده حمد

---

(258) النويري : نهاية الأرب جـ 4، ص 1 .

(259) الشيخ « يوسف الشربيني » عالم من علماء الأزهر ، عاش مجتمعه وخبر أمراضه وعلله ، وأحس ببؤس الفلاحين وجهلهم ، فنظم قصيدته « أبو شادوف » ، ثم شرحها في كتابه « هز القحوف ، في شرح قصيدة أبي شادوف » توفي 1098هـ.

(260) العثمانيون : أو الأتراك العثمانيون : هم ـ في الأصل ـ إحدى القبائل التي كانت تسكن آسيا ، والتي انتقلت من موطنها الأصلي ، هرباً من جيوش المغول إلى آسيا الصغرى ، حيث منحهم أمير الأتراك السلاجقة جزءاً من أراضيه ، وبذلك نشأت دولتهم ، التي اتسعت فيما بعد بفضل سياسة وشجاعة أميرهم « عثمان » الذي نسبت الدولة إليه فسميت فيما بعد « الدولة العثمانية » . . وقد استطاعوا إخضاع الوطن العربي كله لحكمهم ، بما في ذلك مصر (موطن الشربيني) عدا مراكش .

من عنده من الجوع دسيسة ، وأغاثهُ اللّه بقصعة من البسيسة ، بالفطير الرقيق ، فملأ منها بطنه ، وأحسن باللّه ظنه ، وأشهد ألا إلّـه إلّا اللّه وحده لا شـريك لـه ، شهادة تحمي قائلها من الضيق ، وأشهد أن « محمداً » عبده ورسولـه ، الناطق بـالصدق ، والموصوف بالحق والتحقيق . . . .

أيهـا الناس : مـا لي أراكم عن الزبـدة بالعسـل النحـل غـافلون ؟ وعن الأرز المفلفل باللحم الضاني تاركون، وعن البقلاوة في الصواني معـرضون ؟ وعن الإوز السمين والدجاج المحمر لاهون ؟ فاغتنموا ـ رحمكم اللّه ـ ! هذه الموعظة ، ودعوا أكل المغلظة ، كالعدس ، والبيسار ، والمدمس ، والفول الحار . .

روي عن « مهلب بن مهلب » ، عن « زلطاح بن النطاح » ، ابن قليل الأفراح ، أنه قال : « . . . . إلخ »[261] . ومما قاله « الشربيني » في الخطبة الثانية .

« الحمد للّه مزيل الحزن ، ومزين الأرز باللبن ، وأشهد أن اللحم الضاني سيد الأطعمة ، ومصلح البدن ، واعلموا أن (القشطة) لا تترك ، وأن (المهلبية) أحسن وأبرك »[262] .

وقد شرح قصيدته ـ « أبا شادوف » ـ في كتـابه « هـز القحوف » مـازجاً الجـد بالهزل، والحقيقة بالنكتـة المرحـة، مصوراً شقـاء المصريين بـالعثمانيين، واستئثـار « آل عثمان » بخيرات البلاد . وكان في خلطه بين الجـد والهزل نـاقداً سـاخراً على طريقة « أبي عثمان الجاحظ » ، وإن كان أسلوب « الشربيني » لا يسمو إلى أسلوب أستاذه أو يجاريه ، إلاَّ أنه أحد أتباع هذه المدرسـة التي أخذت على عـاتقها تقـويم الخطأ ، وإصلاح المعوج ، وإمتاع النفوس بمزحها وسخرها .

9 ـ عبد العزيز البشري[263] :

ومن القرن الحادي عشر للهجرة ـ الذي عاش فيه الشيخ « الشربيني » ـ ننتقل

---

(261) الشربيني : هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف ، ص 176 وما بعدها .

(262) يوسف الشربيني : هز القحوف ، ص 174 .

(263) عبد العزيز البشري : تخرج في الأزهر ، وولي القضاء الشرعي مدة ، ثم استقال واشتغل بالتحرير في الصحف والمجلات ، يطالع الجمهور بمقالاته الأدبية والاجتماعية بأسلوب شيق ، ونهج رائع ، ويعـد في طليعة الأدبـاء الممتازين ، والكتاب القديرين توفي رحمه اللّه في الثلث الأول من القرن العشرين .

إلى القرن الرابع عشر للهجرة في عصرنا الحاضر ، حيث نلتقي بأديب آخر ، أديب يجاري « الجاحظ » في أسلوبه وسخرياته ، وخفة روحه ، وبارع نكتته ، وعذوبة حديثه ، ومزجه الجد بالهزل : إنه الشيخ « عبد العزيز البشري » .

لقد حاكى « الجاحظ » في براعة وصفه ، ودقة تصويره ، فرسم ببيانه الساخر ـ في المرآة ـ « زيور باشا »[264] السمين البدين ، كما رسم « الجاحظ » معاصره « أحمد بن عبد الوهاب » في رسالة « التربيع والتدوير » . قال « البشري » : أما شكله الخارجي ، وأوضاعه الهندسية ، ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية ، فذلك كله يحتاج ، في وصفه وضبط مساحاته ، إلى فن دقيق ، وهندسة بارعة . والواقع أن « زيور باشا » رجل ـ إذا صح هذا التعبير ـ يمتاز عن سائر الناس في كل شيء . ولست أعني ، بامتيازه في شكله المهول ، طوله ولا عرضه ، ولا بعد مداه ، فإن في الناس من هم أبدن منه ، وأبعد طولاً وأوفر لحماً ، إلاَّ أن لكل منهم هيكلاً واحداً . أما صاحبنا ، فإذا اطلعت عليه أدركت ـ لأول وهلة ـ أنه مؤلف من عدة مخلوقات ، لا تدري كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وإنك لترى بينها الثابت ، وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، وما يدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر ، وفيها المسترخي المترهل ، وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعابها إلى الأمام شعبةٌ طويلة ، أطل من فوقها على الوادي رأس فيه عينان زائغتان ، طلة من يرتقب السقوط إلى قرارة ذلك المهوى السحيق . وإنك لتجد ناساً يصفون « زيور » بالدهاء وسعة الحيلة ، بينما نجد آخرين ينعتونه بالبساطة ، وقد يتدلون به إلى حد الغفلة ، كما تجد خلقاً يتحدثون بارتفاع خلقه ، وتنزهه عن النقائص ، إذ غيرهم ينحطون به إلى ما لا يتجاوزه مكرمة ، ولا يسكن إليه خلق محمود »[265] .

كذلك « زيور » عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشابكة ، فهو عندهم كريم وبخيل ، وهو شجاع ورعديد ، وهو ذكي وغبي ، وهو طيب وخبيث ، وهو وطني

---

(264) زيور باشا : أحد الساسة المعاصرين للبشري ، وقد تولى رئاسة الوزراء (في مصر) فترة من الزمن ، وكان رجلاً مفرط البدانة ، يميل إلى المرح .

(265) عبد العزيز البشري : المرآة ، ص 8.

حريص على مصالح البلاد ، وهو مستهتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتلاد .

هذه المتناقضات تبعث على الدهشة والاستغراب ، فإذا كان هذا لا يمكن في الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد ، فقد غلط الناس إذ حسبوا « زيور باشا » رجلاً واحداً ، والواقع أنه عدة رجال ، وعلى الصحيح هو عدة مخلوقات ، لا ندري كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، فإذا أدهشك التباين في أخلاقه ، وراعك هذا التناقض في طباعه ـ فذلك لأن هذا الجرم العظيم الذي تحسبه شيئاً واحداً ، مؤلف في الحقيقة من عدة مناطق ، لكل منها شكله ، وطبعه ، وتصوره ، وحظه من التربية والتهذيب : فمنها العاقل ومنها الجاهل ، والحليم ، والغِر ، والكريم والبخيل ، والمصري والجركسي ، والفرنسي والإنجليزي . . . . . كل يجري في مذهبه ، ويتصرف في الدائرة الخاصة به ، فلا عجب إذاً صدر عن تلك المجموعة « الزيورية » كل ما ترى من ضروب هذه المتناقضات . والظاهر أن « زيور باشا » ، برغم حرصه على هذه الممتلكات الواسعة ، عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف ، وما دامت الإدارة المركزية قد فشلت ، فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها « الحكم الذاتي » ، على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج في سبيل الرقي والكمال ، وحسب عقله ، في هذا النظام الجديد ، أن يتوافر على إدارة رجليه وحدهما ، ولعله يستطيع أن يسترهما في طريق الأمن والسلام ! »[266] .

فهذه صورة تهكمية لاذعة ، لا تجود بها كل قريحة ، ولا تقوى عليها كل موهبة . لقد شوه صاحبه ، وشوه خلقه ، واستعان على ذلك بفن الرسوم الساخرة فأبدع وأوجع ، وترك الناس حوله يضحكون ويعجبون ! .

لقد اصطنع « الجاحظ » ، وترسم خطاه . . . . على أن « الجاحظ » ، في رسمه « لأحمد بن عبد الوهاب » لم يقف عند حد تشويه الخلقة ، وتقبيح الظاهر ، بل شوه ـ أيضاً ـ عقل غريمه ، وجرده من العلم والأدب ، إذ جعله « لا يعرف من الكتب إلَّا أسماءها ، وليس في يده من جميع الآداب إلَّا الانتحال لاسم الأدب »[267] .

---

(266) محمد نبيه حجاب : بلاغة الكتاب ص 306.

(267) محمد نبيه حجاب : بلاغة الكتاب ، المطبعة الفنية الحديثة ، الطبعة الأولى مصر 1385هـ ـ 1965هـ.

ثم أراد أن يفصل ما أجمل ، فطرح عليه مائة سؤال في مختلف العلوم ، هو على يقين من أنها فوق طاقته ، ولن يجد لها جواباً ، وعندها سيتضح للملأ عجزه وجهالته ، وتلك أراد[268] . . . وهو لا ينسى ، هنا ، أن يقرنه بأسلوبه الساخر ، بأحداث الماضي البعيد ، تندر بكبر سنهٔ ، وتقادم ميلاده ، في الوقت الذي يدعي فيه الشباب . استمع إليه يقول :

« يا عقيد الفلك : كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهيولى[269] : كيف أصبحت ؟ حدثني : كيف رأيت الطوفان[270] ؟ ومتى كان سيل العرم[271] ؟ وكم لبثتم في السفينة[272] ؟ ومنذ كم ظهرت الجبال ، ونضب الماء عن الجف ؟ وأي هذه الأودية أقدم : أنهر النيل[273] ، أم الفرات[274] ، أم دجلة[275] ، أم جيجان وسيحان[276] ؟ وخبرني عن « هرمز »[277] : أهو « إدريس »[278] ؟ وعن « أرميا »[279] : أهو « الخضر »[280] ؟ وعن « يحيى بن زكريا »[281] : أهو « إيلياء »[282] ؟ وعن « ذي

---

(268) المرجع السابق : ص 306.

(269) الهيولي: إحدى المبادىء الخمسة القديمة عند بعض الفلاسفة، ومنهم الرازي وهي الباري تعالى، والنفس الكلية، والهيولي الأولى، والمكان المطلق، والزمان المطلق (انظر: ت ، ح . دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام: ص 92).

(270) الطوفان الذي أرسله الله على قوم نوح فأغرقهم.

(271) سيل العرم : السيل الجارف الذي هدم سد مأرب (في بلاد العرب الجنوبية ، نتيجة كفر أهل سبأ وجحودهم نعمة ربهم) (وقد ورد ذلك في سورة سبأ) .

(272) السفينة : ربما كان يشير إلى سفينة نوح ، التي نجا فيها هو وأتباعه من الطوفان .

(273) نهر النيل : ثاني أنهار الدنيا طولاً ، وينبع من الحبشة (أثيوبيا) ويصب بالبحر المتوسط .

(274) الفرات : أحد نهرين يجريان في العراق (ومعنى الفرات في اللغة : العذب) .

(275) دجلة : النهر الثاني في العراق ، وبالقرب منه بنيت العاصمة « بغداد » .

(276) نهران ببلاد فارس ، وهما ـ الآن ـ بالاتحاد السوفيتي .

(277) هرمز : ملك من ملوك فارس .

(278) إدريس : أحد أنبياء الله إلى خلقه ، قال تعالى (في سورة مريم) : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً ﴾ (56 - 57) .

(279) آرميا : أحد الأنبياء الذين ورد ذكرهم في العهد القديم (التوراة) .

(280) الخضر : رجل صالح ، كان معاصراً لموسى (عليه السلام) وردت قصته في سورة الكهف

(281) يحيى بن زكريا : أحد أنبياء الله ، رزق الله به زكريا استجابة لدعائه وقد تقدمت به السن .

(282) إيليا: أحد الأنبياء الذين ورد ذكرهم في العهد القديم (التوراة) ،وكانت مدينة القدس ، تسمى باسمه «إيلياء».

القرنين » : أهو « الإسكندر »[283] ؟ وما القول في « هاروت » و « ماروت »[284] ؟ وما عداوة ما بين الديك والغـراب ؟ وأين كان ملك (الأزد) من ملك (أشكـان)[285] ؟ وأين كـان من ملك « بني ساسـان »[286] ؟ وأين كـان « أبـرويـز »[287] من « أنـو شروان »[288] ؟ وخبرني : كيف كـان أصل المـاء في ابتدائـه ، في أول ما أفـرغ في إنائه ، أكان بحراً أجاجاً استحـال عذبـاً زلالاً ؟ أم كان زلالاً عـذباً استحـال أجاجـاً بحـراً؟ وكيف طمع «الـدهري»[289] في مسـألة (البيضـة والدجـاجة)[290]، مـع تقادم ميلادك ، ومرور الأشياء على بدنك ؟ .

جوهرك فلكي ، وتركيبك أرضي ، ففيك طول البقـاء ، ومعك دليـل الغناء ، فأنت علة للمتضاد ، وسبب للمتنافي .

جعلت فداك ! قد شاهدت الإنس منذ خلقوا ، ورأيت الجن قبلَ أن يحجبوا ، وشاهدت العلل وهي تولد ، والأسباب وهي تصنع . خبرني : ما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ ، والبياض ينصبغ ولا يصبغ ؟ وما دار بينك وبين « أرسطاطاليس » ؟ وأين كان

---

(283) الإسكندر الأكبر ، أو الإسكندر المقدوني ، من أبـرز ملوك اليونـان القدمـاء ، ويقول المفسـرون إنه هـو « ذو القرنين » الوارد ذكره في سورة (الكهف) .

(284) هاروت وماروت : ملكان من الملائكة ، ورد ذكرهما في سورة البقرة .

(285) الأزد من القبائل العربية التي ملكت وحكمت في البصرة .

(286) بنو ساسان : هم ملوك الفرس وقت أن فتح العرب تلك البلاد ، وقد رحب الفرس « بالعرب الذين خلصوهم من استعباد آل ساسان » انظر التـاريخ الإسـلامي العام للدكتـور علي إبراهيم حسـن ، مصـر ، مكتبة النهضـة ، بلا تاريخ ؟) .

(287) أبرويز : هو أبرويز بن هرقر ، أحد ملوك الساسانيين في عهد بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفي عهده حدثت الحرب بين الفرس والروم (التي تشير إليها سورة الروم ، في القرآن الكريم) ، كمـا كانت وقعـة « ذي قار ، في عهده أيضاً » .

(288) أنو شروان : كسرى أنو شروان ، أحد ملوك الفرس (في القرن الميلادي) .

(289) الدهري : نسبة إلى الدهرية ، القائلين باستحالة البعث : ﴿وما يهلكنا إلَّا الدهر﴾ ! وهم الذين لا يؤمنون بخالق للكون (تاريخ الفلسفة في الإسلام : ت : ح . دي يور : ص 93) .

(290) تدور هذه المسألة حول : أيهما وجد قبل الآخر : البيضة ، أم الدجاجة ؟ ، وهي مسألة لا سبيل إلى البت فيها ، كما ترى ! .

« إقليدس »[291] من « فيثاغورس »[292] ؟ ومن صاحب الشطرنج[293] ؟ ومن صاحب كليلة ودمنة [294] ومن صاحب الأسطرلاب[295] ؟ لم أسألك عن الحداد وإنما سألتك عن الفيلسوف . قد تعجب ناس من إطالتي ، ومن كثرة مسألتي ، وتعجبي من تعجبهم أشد ، ولو رغبوا في العلم رغبتي لاستقلوا من ذلك ، وما استكثروا . ستقول : ما دعاك إلى التنويه بذكري ، وتعريف الناس مكاني ، وقد تعرف حشمتي وانقباضي ؟ ولولا أنك ـ جعلت فداك ! ـ مسؤول كل زمان ، والغاية في كل دهر ، لما تفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسي بالجواب ، ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لـ « أفلاطون »[296] ، ثم لـ « أرسطاطاليس » ، ثم أحببت «معبد الجهني »[297] ، و « غيلان الدمشقي »[298] ، و « عمرو بن عبيد »[299] ، و « واصل بن عطاء »[300] . .

---

(291) إقليدس : عالم يوناني رياضي ، اشتهر بالإسكندرية على عهد بطليموس الأول (306 - 282ق . م) .

(292) فيثاغورس : أو « فيثاغورث » ، (572 - 497ق . م) : فيلسوف يوناني قديم ، اهتم بدراسة الأعداد والأشكال والحركات والأصوات .

(293) الشطرنج : لعبة من أصل فارسي أو صيني ، تلعب على رقعة مؤلفة من أربعة وستين مربعاً ، ولها اثنان وثلاثون قطعة وجمعها : شطرنجات . (الرائد : ص 880 مادة : ش ط ر) .

(294) كليلة ودمنة : ينسب هذا الكتاب إلى (بيديا) الفيلسوف الهندي ، وقد نقلهُ إلى اللغة العربية البهلوانية الطبيب برزويه الطبيب الخاص بالملك كسرى أنو شروان في القرن السادس الميلادي وترجمه عبد الله بن المقفع من اللغة البهلوانية إلى اللغة العربية حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي وهو كتاب حكايات وعظية يجري على لسان الحيوان أو الطير .

(295) الأسطرلاب: ومعناه (مقياس النجوم)، في اللغة اليونانية وأول ما صنع هو الأسطرلاب السطحي وهو أداة من المعدن يشبه شكلها صورة قرص، له عروة تتصل بحلقة يتعلق منها بحيث يكون رأسي الوضع، ثم الأسطرلاب الخطي ويسمى (عصى الطوسي) نسبة إلى مخترعه «المظفر بن المظفر الطوسي» المتوفي عام 610هـ/1213م، ثم الأسطرلاب الكري أو الأكري وهذا الأسطرلاب يمثل الحركة اليومية للكرة بالنسبة لأفق مكان معلوم، فهو إذن صالح لقياس ارتفاعات الكواكب عن الأفق ويعين الزمن، وحل طائفة من مسائل علم الفلك الكري (دائرة المعارف الإسلامية مادة أسطرلاب).

(296) أفلاطون : فيلسوف يوناني قديم (427 - 347ق . م) كتب مؤلفاته في صورة محاورات تضمنت آراء في الفلسفة ، والسياسة ، والتربية ، والفن ، والأخلاق .

(297) معبد الجهني : أول من تكلم في القدر (فيما يقول مؤرخو علم الكلام) .

(298) غيلان الدمشقي : هو غيلان الدمشقي أبو مروان . قالوا أول من تكلم في القدر ، معبد الجهني أخذه « هشام بن عبد الملك » فصلبه بباب دمشق .

(299) عمرو بن عبيد : هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب ، أحد شيخي المعتزلة الأولين ، كون هو وصديقه « واصل بن عطاء » فرقة المعتزلة ، وكان ذا شخصية مترفعة ، وسمعة حليلة ، وزهد أصيل ، توفي سنة 142 أو 143 أو 144هـ .

=

فتربية كفك ، والناشىء تحت جناحك أحق وأولى »[301] .

وقد كاشفه بجهله ، وعجزه عن الإجابة ، وأحاله « الجاحظ » إلى كتبه ، ليعرف الجواب وفصل الخطاب ، فقال له : « وقد سألتك ، وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها صحيح ، وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتبي ، ولزوم بابي[302] .

وبالمقارنة بين « زيور » البشري و « ابن عبد الوهاب » الجاحظي ، ندرك أن « البشري » حاول أن يسير ـ أو يسير فعلاً ـ على « خطا « الجاحظ » ، في هزئه وسخره ، محاكياً إياه في طريقته وفنه ، محاولاً إحياء مدرسته في الأدب الحديث » .

* * *

إن الإلمام بجميع أفراد الأسرة الجاحظية السخرية لا يتسع له المقام ، لأن مدرستها ضخمة ، وتضم عدداً أوفر ، فمسيرة الأدباء على هذا الدرب تتتابع ، وتستمر حتى عصرنا الحديث . .

لقد كان تأثير « الجاحظ » في غيره من الكتاب عظيماً ، لأنه خلق فناً جديداً من الكتابة لم يسبق إليه ، وتفرد بخصائص ومميزات جعلته يتربع فوق قمة عليا ، يتطلع إليها طلاب الأدب في عصره ، وما تلاه من العصور .

ولا تعجب إذا كان أعلام الكتابة من الأدباء ، في العصر الحديث ، قد تربوا على مائدة « الجاحظ » ، أمثال : « طه حسين »[303] ، و « العقاد »[304] ،

= (300) واصل بن عطاء : كان تلميذاً للحسن البصري ، فلما ظهر الخلاف في مسألة مرتكب الكبيرة ، وقال الخوارج بكفر مرتكب الكبيرة ، وقال الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر ، خرج « واصل » من الفريقين وقال : إنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين الفريقين أو المنزلتين ، فطرده « الحسن » من مجلسه فاعتزل عنه فقيل لأتباعه معتزلة .

(301) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، حسن السندوبي ص 118 .

(302) الجاحظ : مجموعة رسائل الجاحظ ص 142 .

(303) « طه حسين » : عميد الأدب العربي (1889 - 1973م) ، نشأ في أسرة فقيرة وفقد بصره وهو في الثالثة من عمره ، وتعلم بالأزهر الشريف ، تم سافر في بعثة إلى فرنسا حيث حصل على (الدكتوراه) ، وقد تولى وزارة =

و « الـــرافعي »[305] ، و « أحمـــد أميـن »[306] ، و « أحمـــد حسن الـــزيـــات »[307] ، و « المازني »[308] ، وأساتذة الأدب في الجامعات العربية وغيرها ، يقول الأستاذ « أحمد الشايب » في كتابه « الأسلوب » : « . . « طه حسين » متأثر بـ « الجاحظ » في أسلوبه ، لا يهجم عليـك بـرأيـه ، فيلقيـه إلقـاء الأمـر ، وإنمـا يلقـاك صـديقـاً ، لــطيفـاً ، ثم يأخذ بيدك أو بعقلك وشعورك ويدور معك مستقصياً المقدمات ، محللاً ، ناقداً ، يشركك في البحث حتى يسلمك الرأي ناضجـاً ، ويلزمك به في حيطة واحتياط ، ثم يتركك ويقف غير بعيد متحدياً لك أو ضاحكاً منك وذلك في عبارات رقيقة عذبة ، أو قوية جزلة ، فيها ترديد « الجاحظ » وتقسيمه . . . .

فإذا أقصى أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء ، ودخل إلى أعماق الشعور وجوانب النفوس ، مدققاً ، مستقصياً ، يخشى أن يفـوته شيء ، ولا يخشى الملال في شيء ، دقيق الشعور ، صافي الذهن ، نبيـل الجدل ، جـاد ، يسير مـع

المعارف (التعليم) ، في الخمسينات من هـذا القرن . ومن آثـاره « الشعر الجـاهلي » ، « الفتنة الكبـرى » ، « علي وبنوه » ، و « على هامش السيرة » ، و « الأيام » (الذي هو ترجمة ذاتية لحياته الحافلة) .

(304) عباس محمود العقاد : ولد سنة 1889م بـ « أسوان » (جنوب مصر) ، اشتغل بالصحافة والسياسة ، كان ـ رحمه اللّه ـ كاتباً كبيراً ، وشاعراً رصيناً ،وناقداً بصيراً ، ومؤرخاً دقيقاً ، وباحثاً اجتماعياً عميقاً ، فهـو متنوع الثقـافة ، متعدد المواهب وللعقاد إنتاج غزير ترجم كثير منه إلى لغات شرقية وغربية ، فضلاً عن آلاف المقالات التي نشرت في مختلف الصحف . انتخب عضواً بعدة مجامع وهيئات علمية ، توفي سنة 1964م .

(305) «مصطفى صادق الرافعي » : من كبار الكتاب المحدثين أصله من « طرابلس » الشام ، ولد ومات بمدينة « طنطا » (في مصر) ، وقد أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به ، له عـدة مؤلفات في الأدب وتـاريخه ، منهـا : أوراق الورد ، السحاب الأحمر ، إعجاز القرآن ، كما صدر له ديوان شعر ، توفي سنة 1937م .

(306) «أحمد أمين» : ولد بالقاهرة ، وتعلم بالأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ، عمل مدرساً ، فقاضياً ، فأستاذاً بكلية الآداب ، ثم عميداً لها (1939م) ، أشرف على « الإدارة والثقافة » وانشأ « جـامعة الثقـافة الشعبيـة » ، وألف « لجنة التـأليف والترجمة والنشر » وظل رئيساً لها طوال حياته ، كذلك أنشأ مجلة « الثقافة » التي استمرت نحو عشـرين عامـاً ، وكان عضواً بعدة مجامع علمية ، وله عدة مؤلفات في الفلسفة ، والأخلاق ، واللغة ، والتاريخ ، والفقه ، توفي سنة 1954م .

(307) ولد «الزيات» سنة 1885م ، وتلقى علومه في الأزهر ، اشتغل بالتدريس ، كان صاحب مدرسة أدبية معروفة ، وقد أنشأ مجلة « الرسالة » ، ورأس تحرير مجلة « الأزهر » وانتخب عضواً بمجمع اللغة العربية سنة 1949م ، ونال جائزة الدولة في الأدب 1962م توفي سنة 1968م .

(308) « إبراهيم عبد القادر المازني » أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة ، ولد بالقاهرة ، واشتغل بالـتدريس ، والصحافـة ، والسياسة ، له عدة مؤلفات في الأدب والنقد انتخب عضواً بمجمع اللغة العربية سنة 1947م ، توفي سنة 1949م .

خصمه ، حتى إذا أنس منه الغضب أو التدلي ، تركه وانصرف »[309] .

و « أحمد أمين » يبدو متأثراً بـ « الجاحظ » ، على نحو ظاهر في دعوته للضحك ، إذ نجده يقول :

« إن الطبيعة عودتنا أن نجعل لكل باب مفتاحاً ، ولكل كرب خلاصاً ، ولكل عقدة حلاً ، ولكل شدة فرجاً. فلما رأت الإنسان يكثر من الهموم ، ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب ، أوجدت لكل ذلك علاجاً ، فكان الضحك . . » .

« والطبيعة ليست مسرفة في المنح فلما لم تجد للحيوانات كلها هموماً ، لم تضحكها ، ولما وجدت الإنسان وحده هو المهموم المفحوم ، جعلته وحده هو الحيوان الضاحك » .

« إن انفجار الإنسان بضحكة يجري في عروقه الدم ، فيحمر وجهه ، وتنتفخ عروقه ، وفوق هذا فللضحكة فعل سحري في شقاء النفوس ، وكشف الغم وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن ، وإعداد الإنسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب . ولو أنصفنا لعددنا مؤلفي الروايات المضحكة ، والنكت والنوادر البارعة ، التي تستخرج من الضحك ، وتثير فيه الإعجاب والطرب ، وهؤلاء الذين يضحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم . . . لو أنصفنا لعددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس ، ويعالجون الأرواح ، ويزيحون عنا آلاماً ، أكثر مما يفعل أطباء الجسوم .

« الضحك بلسم الهموم ، ومرهم الأحزان ، وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال ، ويحط عنك الصعاب ، ويفك منك الأغلال ، ولو إلى حين .

« ومن مظاهر رقي الأمم : أن نجد نواحي المضحكات ملائمة لاختلاف الطبقات ، فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم ، ولعامة الشعب مثل ذلك ،

---

(309) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص 128 وما بعدها .

وللخاصة ولذوي العقول الراقية المثقفة ملاهيهم وأنديتهم ومضحكاتهم »[310] .

* * *

وهكذا ، فإن قضية التأثر ، تأثر أدبائنا المعاصرين بـ « الجاحظ » ، واضحة ولا تحتاج إلى بيان .

(310) أحمد أمين : فيض الخاطر ، جـ 1 ، ص 91.

الفصل الثاني

عوامل نبوغ «الجاحظ» في الأدب الساخر

1 ـ الوراثة .

2 ـ المجتمع والبيئة .

أ ـ بيئته العامة .

ب ـ بيئته الفكرية .

3 ـ التكوين الشخصي (شخصيته) .

أ ـ مزاجه وطبعه .

ب ـ دمامة خلقته وقبح هيئته .

تمهيد

خلق « الجاحظ » من السخرية فناً أدبياً مستوي القامة وطيد الأركان ، سامق البنيان ، بقدرته على التصرف في فنونها ، وتنويع أشكالها وضروبها .

وإنما يقدر على السخرية ، ويوفيها حقها ، الشخص المرح ، الفكه المجلس ، الحلو الحديث ، البارع التصوير ، السريع الملاحظة ، الدقيق المقارنة ، الحاضر البديهة ، المتخير اللفظ الموجز ، ذو الأسلوب السهل ، والكلمات المعبرة ، والمعتمد على التعريض والتلويح ، والكناية والرمز ، واللفتة والإشارة .

* * *

فما العوامل التي خلقت من « أبي عمرو » رائد الأدب الساخر ؟

1 ـ الـوراثــة :

كان جد « الجاحظ » أسود ، يقال له « فزارة » ، وكان جمالاً لـ « عمرو بن فلح الكناني »[1] وقد كان هذا الجد فكهاً مرحاً فسرت روح الخفة إليه ـ إلى الحفيد ـ من الجد « فزارة » .

وأم « الجاحظ » كان فيها ميل واضح إلى السخرية . فقد روي أن « الجاحظ » كان في حداثته مشتغلاً بالعلم وأمه تمونه ، فطلب منها الطعام يوماً ، فجاءته بطبق فيه كراريس ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به .

فخرج « الجاحظ » مغتماً ، وجلس في الجامع ، و « يونس بن عمران » جالس ، فلما رآه مغتماً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه ، الحديث ، فأدخله منزله ، وقرب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق ، واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرته الأم ، وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدمتها إلي[2] .

فالميل إلى المرح والفكاهة والسخرية ـ لدى « الجاحظ » ـ يرجع في جانب منه إلى الوراثة .

2 ـ المجتمع والبيئة :

أ ـ بيئته العامــة :

نشأ « الجاحظ » : « يبيع الخبز والسمك بـ (سيحان)[3] ، وكان يختلف إلى كتاب القرية ، يتلقى مبادىء العلوم مع أمثاله من الصبيان ، وهذان مجتمعان يموجان بالنوادر ، ويحفلان بالأفاكيه والطرائف ، ويعتمدان النكتة الساخرة والغمزة

---

(1) ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ 16 ، ص 74.

(2) المرتضي ـ المنية والأمل ص 38 . محمد كرد علي ، أمراء البيان ، جـ 2 ص 318.

(3) ياقوت : معجم الأدباء ، تحقيق د . أحمد فريد رفاعي ، جـ 16 ص 47.

الضاحكة ، تنبعث على الرفاق المشترين أو المعلمين وغيرهم .

وفي مجتمعه ، أيضاً ، ظهرت طبقات ـ أو طوائف ـ البخلاء ، والحمقى ، والمغفلين ، والشطار ، والمتعلمين ، و . . . ، وسط سرت فيه روح الخفة والتهكم ، وعمه الميل إلى العبث والتندر .

وقد كان هذا المجتمع ، حافلًا بالمتناقضات ، مليئاً بالمخالفات ، « وكان على « الجاحظ » أن يقاوم ـ أثناء مكثه في « بغداد » ـ تياراً عاماً من الجد والكآبة والصرامة ، وهذا ما يعلل إشاراته العديدة إلى فوائد[4] الضحك » .

ثم إن « أبا عمرو » ـ بما ركب في طبعه من لماحية ، وميل وراثي إلى السخرية ـ نراه يلتقط النوادر ، ويحفظ الطرف ، ويتسمع الفكاهات ، ويصغي إلى الأحاديث الهازلة ، فتتسع مداركه ، ويتفاعل مع ما يسمعه ويراه ، فيولد الجديد ، وينسج العجيب ، ويوشح كتبه بتلك المضاحيك ، فإذا هو ذلك الأديب الساخر ، وإذا الدنيا بأسرها تقبل على كتبه الساخرة ورسائله المتهكمة ، لما نجد فيها من المتعة الذهنية ، وأنماط من الكتابة المبتدعة ، خلط فيها الجد بالهزل ، والعبوس بالضحك ، والسخرية الماجنة بالسخرية الهادفة . . . مما يشهد له بالحذق والأستاذية ، وعلو الكعب ، وقوة التأثير .

* * *

ب ـ بيئته الفكرية :

كان لبيئته الفكرية أثرها الكبير في نمو السخرية عنده ، وحذقه لها ، وبراعته فيها .

فلقد نشأ في الكتاب حتى كبرت سنه ، ثم قصد شيوخ (البصرة)[5] ، وأئمتها في العلم والأدب ، ولزمهم . ومن شيوخ (البصرة) الذين ما يضيعون فرصة السخرية

---

(4) مارون عبود: أدب العرب، دار الثقافة ، بيروت 1960 ، ص 403.

(5) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 75

إذا سنحت لهم ، ويخلقونها خلقاً إن لم تأتهم طوعاً ، « أبو عبيدة معمر بن المثنى »[6] ، وقد كان فكه المجلس ، مولعاً بالتعريض والتلويح ، والتهكم والسخرية . ومنهم « إبراهيم بن سيار النظام » ، وكان مشهوراً بالدعابة والسخرية ، وقد لازمه « الجاحظ » ملازمة شديدة ، تركت أثرها في صفحات عقله وجنبات نفسه .

ومنهم « ثمامة الأشرس »[7] ، وقد نقل عنه تلميذه « الجاحظ » كثيراً من أدبه ، كما كان أستاذاً له في المجون والفكاهة[8] والنادرة اللاذعة .

ومنهم « أبو الهذيل العلاف »[9] إمام الاعتزال المشهور ـ وكانت تشيع السخرية في أحاديثه ـ ، و « أبو سعيد بن أوس الأنصاري »[10] ، و « عبد الملك بن قريب الأصمعي »[11] ، و « أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش »[12] ، الذي كان بارع النكتة ، مشوه الخلق ، أجلح ، وطالت ملازمة « الجاحظ » له ، وتعمقت صلته به ، لتشابههما في الطبع وقبح الشكل .

وفي عهد «الجاحظ» ـ أيضاً ـ تعددت الثقافات ، وكثرت المذاهب، وتعددت النحل والفرق الدينية . . . و « الجاحظ » أديب آمن : « بحرية الفكر ، ولهج بها ، فلم يقلد غيره ، ولم يذب شخصيته في شخصية سواه ، ولهذا تهكم أشد التهكم بما

---

(6) بصري ، كان إماماً في اللغة والأخبار ، توفي سنة 231هـ.

(7) من زعماء المعتزلة ، توفي سنة 223هـ ، نشأ بالبصرة تلميذاً لـ « أبي الهذيل العلاف » ، وكان « المأمون » يجله ويرفع قدره ، وهو الذي أتاح الفرصة لبغداد أن تتمثل العقل البصري إلى جانب العقل الكوفي (انظر البخلاء ص 285 ، 286 ، والبيان والتبيين جـ 1 ، ص 105) .

(8) د. أحمد أمين : ضحى الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر 1936 ، جـ 3 ، ص 151.

(9) أبو الهذيل العلاف : هو أبو الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي ، المعروف بالعلاف ، المتكلم ، كان شيخ البصريين في الاعتزال ، ومن أكبر علمائهم حسن الجدال ، قوي الحجة ، ولد سنة 135هـ بـ « سر من رأى » وتوفي سنة 235هـ أو 236هـ.

(10) كان إماماً في النحو ، واللغة ، والأدب ، والنوادر ، والغريب ، توفي سنة 212هـ.

(11) كان إماماً لغوياً ، أديباً بليغاً توفي سنة 293هـ.

(12) كان عالماً نحوياً شهيراً (وقد سبق التعريف به) .

لا يسيغه العقل ، واعترض على كثير من العلماء والفلاسفة فيما لم يقنع به »[13] .

وما كان كـ « الجاحظ » أحد في سعة اطلاعه ، ووفرة ثقافته ، وغزارة مادته . قال « أبو هفـان » : « لم أر قط ، ولا سمعت ، من أحب الكتب والعلوم ، أكثر من « الجاحظ »[14] . وكان علمه لا يقف عند حـد ، يشهد بـذلك قـوله : « إذا سمعت الرجل يقول : « ما ترك الأول للآخر » فاعلم أنه ما يريد[15] أن يفلح » .

ثم إنه ـ في بلاط « المتوكل » ـ اتصل « الجاحظ » برجال تخصصوا في الهزل والفكاهة والسخرية ، ولم يكن أحد ممن سلف ، من خلفاء بني العباس ، ظهر في مجلسه اللعب ، والضحك ، والهزل قد استفاض في الناس أثره ، إلاَّ « المتوكل » ، فإنه السابق إلى ذلك ، والمحدث له ، ففي بلاطه عـرف « الجاحظ » : « أبـا العنبر الهـاشمي »[16] ، و« أبا العنبس »[17] ، و« الجمـاز »[18] ، ولعله عـرف أيضـاً « أبـا العينـاء » الذي تـربطه بـه صداقـة متينة ، كمـا تشهـد بـذلـك النـوادر المبثـوثـة في الكتب »[19] .

---

(13) محمد عطية الإبراشي : الجاحظ ، ص 48.

ومجلة « دراسات في الإسلام » ، العدد 38.

(14) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 75.

(15) نفس المصدر: ص 18.

(16) أبو العنبر الهاشمي : شاعر ، أديب ، له دعابات كثيرة ، تعددت دعاباته في مجلس المتوكل .

(17) أبو العنبس : هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أبي العنبس بن المغيرة بن ماهان كان شاعراً أديباً مطبوعاً ، وله تصانيف اعتـزالية نحـو الثلاثين ، وكـان قـاضي (الصميـرة) ـ وهي بـالبصـرة على فم نهـر (مصقـل) ـ ، وكـان من نـدمـاء «المتـوكل»، تـوفي سنة 275، تـرجم له «يـاقوت» في «معجم الأدبـاء»، ومعجم البلدان (=حميـرة)، وكـذا «ابن النديم » في (الفهرست) ، و« الخطيب » في (تاريخ بغداد) . (انظر الحيوان ، للجاحظ ، جـ 3 ، ص 264) .

(18) الجماز : هو أبو عبد اللّٰه محمد بن عمرو ، ماجن ، من أصحاب النادرة بالبصرة ، من أسرة سلم بن عمرو الخاسر ، وهم تميميون بالولاء ، كانوا يزعمون أنهم حمير صليبية ، نالهم سباء في خلافة أبي بكر فهم مواليه . وقد نشأ في البصرة رفيقاً لأبي نواس ، وإن كان أكبر سناً منه . وكانا يجلسان معاً إلى عبيدة ، وقد دخل بغداد أيام الرشيد ولم يستوطنها ، ولم يعد إليها إلاَّ في أيام المتوكل ، وقد كانت سوق النادرة رائجة عنده ، ولكن الجماز كان قد أسن فلم يعش بعد ذلك إلاَّ قليلاً . ووصفه « المرزباني » بأنه صاحب مقطعات ولم يكن له إطالة ، وكان ماجناً خبيث اللسان . (يراجع : جمع الجواهر للحصري ص 84 ، وتاريخ بغداد للخطيب جـ 3 ص 125 ، ومعجم الشعراء ص 430 ، والأغاني جـ 4 ص 76 ، ومعجم الأدباء جـ 1 ، ص 160.

(19) المسعودي : مروج الذهب ، جـ 2 ، ص 391 ، كتاب التحرير ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مؤسسة الطباعة ، دار التحرير .

3 التكوين الشخصي (شخصيته) :

أ ـ مزاجه وطبعه :

إذا كان المقصود بالوراثة : « جميع العوامل الموجودة في الكائن الحي من اللحظة التي تتم فيها عملية تلقيح الخلية الأنثية بالخلية الذكرية »[20] ، والمقصود بالبيئة : « جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في الشخص من بدء نموه »[21] ، وقد ألمحنا إلى أثر كل هذين العاملين (الوراثة ، والبيئة) في حياة « الجاحظ » وأدبه ، فما المقصود بـ (التكوين الشخصي) ؟

إنه « المزاج » أو « الطبع » أو هو « مجموع الخصائص الفسيولوجية المؤثرة في الخلق ، هذه الخصائص الناتجة ، من مجموع إفرازات الغدد ، ومما بالدورة الدموية من خصائص ومركبات ، ومن المميزات الطبيعية للمجموع العصبي نفسه ، وهذه الصفات المزاجية التي تلون خلق الإنسان لها أساس جسماني تتحكم فيه الوراثة إلى حد بعيد »[22] .

إن واحدة من طرائق تبسيط « وصف الشخصية » هي حصر الصفات الشخصية في « نماذج أساسية » ، وحينئذ نستطيع وصف الشخص بنسبته إلى « نموذج معين » . وقد وجدت النماذج « الشخصية » منذ بداية ظهور ، الفكر الإنساني ، ولعل أشهرها : « . . ما قام به الطبيب اليوناني «هيبوقراط»[23] في القرن الخامس قبل الميلاد إن « هيبو قراط هو أول من قال ـ فيما نعلم ـ بإمكانية الربط بين (نوع الجسد) و (نوع الشخصية) ، ولقد قال بوجود أربعة نماذج للشخصية ، ردها إلى سيادة واحد من الأخلاط الجسدية : فإذا كان الدم هو السائد كان الشخص دموياً ، واتصف بالمرح ، والفعالية ، والحماس » .

أما إذا سادت الصفراء كان الإنسان صفراوياً سريع الغضب ، والانفعال والتهيج .

---

(20)، (21)، (22) د. عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1980م (الطبعة السادسة) .

(23) أبو قراط · بن إبرافليس ، أبو الطب عند الإغريق .

وأما إذا سادت السوداوية كان الإنسان سوداوياً ، متشائماً ، شاعراً بالانقباض .

وأما إذا ساد البلغم كان الإنسان بلغمياً ، فاتر الشعور ، لا مبالياً »[24] .

ومفاهيم هيبوقراط هذه عن الشخصية وتكوينها قد سادت مدة طويلة من الزمان ، وخلفت في مختلف اللغات أوصافاً للشخصية ما تزال مستعملة ، من مثل : « الدموي » و « السوداوي » و « البلغمي » و « الغضبي » .

وقد عمد عدد عديد من العلماء ، فيما بعد ، إلى محاولة تقسيم الشخصيات البشرية إلى نماذج ، ولعل من أشهر المحاولات العصرية محاولة السويسري « كارل يونغ »[25] ، الذي قال بوجود نموذجين أساسيين هما : الانبساطي ، والانطوائي : « أما الانبساطي : فهو إنسان يتجه بعيداً عن نفسه ونحو العالم الخارجي ، في حين أن الانطوائي : ينظر في نفسه ويجد أهم خبراته في ذاته »[26] .

* * *

ففي ضوء هذه المعلومات السيكولوجية ، ودراسات علم النفس الأدبي ، يمكن أن نصنف شخصية « الجاحظ » (طبقاً لتقسيم « هيبوقراط ») بأنه « دموي » ، إذ يتصنف بـ « المرح والفعالية والحماس » ، أو نصفه (طبقاً لتقسيم « يونج ») بأنه « انبساطي » ـ فكلتا النظريتين ، من نظريات الشخصية ـ التي تزودنا بالمخططات التي نتعرف بواسطتها على بناء الشخصية الفردية ، وتوضح لنا الديناميكية الداخلية للسلوك البشري ، كلتا النظريتين تلتقيان في شخصية « الجاحظ »، الذي طبع على المرح والفكاهة ، وخلقت مع روحه الخفة والدعابة ، وسرى في جبلته السخر سريان الدم في شرايينه . ويكفي دليلاً على سخريته ، وأنها كانت فيه فطرة وسجية : أنه كان يبدأ الناس بالتهكم منهم ، وأنه كان يسخر من نفسه ، ويروي سخريات الناس منه ، دون غيظ أو حنق ، قال :

---

(24) د . فاخر عاقل : علم النفس ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت 1977م ، ص 704.

(25) «كارل يونغ» : عالم نفساني شهير ، سويسري ، عارض ـ مع زميله « الفرد أدلر » ـ آراء « فرويد » في التفسير الجنسي للسلوك الإنساني .

(26) د. فاخر عقل: علم النفس ، ص 704.

« ما غلبني أحد قط إلاّ رجل وامرأة . فأما الرجل ، فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق ، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة ، طويل اللحية ، متزر بمئزر ، وبيده مشط يسفي بـه شقه ويمشـطها بـه ، فقلت في نفسي : رجل قصيـر بـطين ألحى ، فـاستزريتـه ، فقلت : أيها الشيـخ ، قد قلت فيـك شعراً . فتـرك المشط من يده ، وقال : قل ، فقلت :

كـأنك صعـوة في أصل حشّ   أصاب الحسن طشّ بعد رشّ

فقال لي : اسمـع جواب مـا قلت . فقلت : هات . فقـال :

كـأنــك كـنــدر فـي ذنــب كـبش   يــدلــدل هكــذا ، والكبش يمشي

وأما المرأة ، فكنت مجتازاً ببعض الطرقات ، فإذا أنـا بامـرأتين ، وكنت راكباً على حمارة ، فضرطت الحمارة، فقالت إحداهما لـلأخرى : وي . حمـارة الشيخ تضـرط . فغاظني قـولها ، فـاحتديت ، ثم قلت لهـا : إنـه مـا حملتني أنثى قط إلاّ وضرطت . فضربت يدها على كتف الأخرى ، وقالت : كانت أم هذا منه تسعة أشهر على جـهـد جهيـد » [27] وقـال « ياقـوت » : « . . وحدثت أن « الجـاحظ » قـال : نسيت كنيتي ثلاثة أيام ، حتى أتيت أهلي ، فقلت لهم : بِمَ أكنى ؟ فقالوا : « بأبي عثمان » [28]

فهو يبدأ بالسخرية من عرفه ومن لم يعرفه ، بسبب ومن غير سبب ، ثم يروي سخريات الناس منه ، ويخص بالذكر ما أفحمه وأخجله وأغاظه ، فالمرح من صميم طبعه ، والسخرية لا تفارق لسانه ، لتتابع ابتسامته المرحة ، وضحكـاته العـريضة : « وهو ، بذلك ، يلتقي مع « برنادرد شو »[29] في فلسفته تلك ، فقد كان يقول : إذا لم أضحك لم يستطع الناس احتمالي »[30] .

---

(27) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1931م ، جـ 12 ، ص 216.

(28) ياقوت : معجم الأدباء، جـ 16 ، ص 75.

(29) «برنارد شو » : « جورج برنارد شو » كاتب مسرحي انجليزي ، أيرلندي الأصل ، وكان يـدعو إلى لـون من الاشتراكيـة (الاشتراكية الغابية) ، وقد عرف بالسخرية الرفيعة ، والهادفة ، ومن مسرحياته « تابع الشيطان » ، و « بيجماليـون » ، و « القديسة جون » إلخ .

(30) محمد نبيه حجاب : بلاغة الكتاب ، ص 30.

ولقد أنشأ « الجاحظ » عملاً أدبياً كاملاً في السخرية ، السخرية من هيئة « أحمد بن عبد الوهاب» والعبس بما فيه من عيوب جسمية وعقلية ، . . . إلخ ، وهو « رسالة التربيع والتدوير » (التي سنتناولها بالدرس والتحليل في الباب الثالث) .

ب ـ دمامة خلقته وقبح هيئته :

كان « الجاحظ » : قصير القامة ، صغير الرأس ، دقيق العنق ، صغير الأذنين أسود اللون ، جاحظ العينين ، مشوه الخلقة[31] ، قال فيه « أحمد بن سلامة الكتبي »[32] :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً   ما كان دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه   وهو القذى في كل طرف لاحظ[33]

ويروي هو عن نفسه : « ما اخجلني أحد مثل امرأتين : رأيت إحداهما في المعسكر ، وكانت طويلة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلي كلي معنا . قالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا ، وأما الأخرى ، فإنها أتتني وأنا على باب داري ، فقالت لي : إليك حاجة ، وأريد أن تمشي معي . فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي ، فقالت له : مثل هذا . وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها أتت إلي بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان . فقلت : يا ستي ، ما رأيت الشيطان . فأتت بك ، وقالت ما سمعت »[34] .

***

إن لمنظر الإنسان وقوامه أثراً في شخصيته ، فالرجل الصحيح الجسم ، الحسن القامة ، قد لا يحتاج، في إظهار شخصيته ، والتأثير على غيره ، إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ، فبينما نجد الأول طبيعياً ، إذ نجد الثاني يتخذ أحياناً وسائل ثعلبانية وقد يضطر إلى المداعبة في حديثه ،

---

(31) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، جـ 1 ، ص 22 (والقصة من الهامش وهو كتاب « ثمرات الأوراق » لابن حجة الحموي) .

(32) من شعراء العصر العباسي .

(33) جورج غريب : الجاحظ ، ص 20.

(34) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 464 - 465.

فالإنسان، حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية، مثلاً، نراه يعمـل على أن يسد هذا الفراغ ، ويكمل هذا النقص ، يكمله من النـاحية العقليـة ، أو الخلقية ، حتى يظهر شخصيته للملأ . و«الجـاحظ» كان أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، وما لقب إلاَّ لأنه كان جاحظ العينين بارزهما »[35] .

و « جحوظ العينين دلالة على أن صاحبهما وقح مهزار »[36] .

وهكذا رأينا « الجاحظ » أديباً ، بارعاً في الاستدلال والتعليل ، ذا قدرة فائقـة في مجال الفكاهة الساخرة ، حتى إنه ليقدر على أن يجعل الجميـل الوسيم قـرداً ، والبدر المنير قـطعة من الفحم، ومن مكنتـه ـ بلاذع سخـرياتـه ـ أن يخرس الألسنـة الهازئة ، ويخيف من تسول له نفسه أن يناله بلفظ جارح ، أو بإماءة هـازلة : « قيـل لـ « أبي هفان » : لم لا تهجو « الجاحظ » ، وقد ندد بك ، وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله ؟ واللّه ، لو وضع رسالة في أرنبة أنفي ، لما أمست إلاَّ بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت ، لما طن منها بيت في ألف سنة »[37] .

ولقد وضع ـ « الجاحظ » رسالة « التربيع والتدوير » يسخر فيها من « أحمد بن عبد الوهاب » ، فطبقت شهرتها الآفاق ، واستمرت نموذجاً للسخرية اللاذعة على مر الأيام وكر الأجيال .

ولو أنه انتحى فيها ناحية السب الصريح ، والهجاء المكشـوف ، لما ظـل لها هذا الأثر القوي ، ولما كتب لها البقاء والخلود .

* * *

ويروي ، لنا ، التاريخ الكثير عمن سلبوا صبـاحة الـوجه ، وجمـال الخلقة ، ولكنهم عرفوا بالروح الفكهة ، والطبيعة الساخرة :

فشيخ فلاسفة الإغريق « سقراط » كان : « قبيح المنظر فهـو قصير ، بـدين ،

---

(35) محمد عطية الإبراشي : في علم النفس ، جـ 2 ، ص 389 ، مصر المطبعة المصرية 1934م.

(36) ابن الحوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 28 ، بيروت ، ط المكتب التجاري للطباعة والنشر (بلا تاريخ) .

(37) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ 16 ، ص 99

دميم ، بارز العينين ، كبير الأنف في قبح ، واسع الفم ، بالي الثياب »[38] . كما كان : « مشوه الخلق ، جاحظ العينين[39] ، ضخم الشفتين » ولقد كان التهكم من جملة أساليبه في تقرير فلسفته .

وكان « بشار بن برد » : « أعمى ، مشوه الوجه ، من أثر جدري أصيب به ، فصار قبيح المنظر »[40] . وقد ضرب المثل بقبحه ، وقبح الجاحظ ، قال « مخلد بن علي السلامي »[41] في هجاء « ابن المنير »[42] :

رأيتك لا تجلب السود إلا إذا كان هو من عصب وجلد
أراني الله وجهك جاحظياً وعينيك عين بشار بن برد

و«رابيليه»[43] و«موليير»[44] و«فولتير»[45]، وهم أشهر من نبغ في السخرية في فرنسا، وملأت مؤلفاتهم الساخرة الآفاق، كانوا ضعافاً ضئالاً، لا يشكون إلّا من السقم والاعتلال . يقول الأستاذ « العقاد » عن « فولتير » : « إنه كان مشهوراً بضآلته وهزاله ، ورجفانه من فرط العصبية لأقل هياج يعتريه ، وكان مولعاً بالهجاء اللاذع ، والسخر المؤلم »[46] . و « الجاحظ » كان يشبه « فولتير » من وجوه كثيرة : « فقد كان « فولتير » عالماً أديباً ، وفيلسوفاً ساخراً ، وكذلك كان « الجاحظ » . وكان « فولتير » كاتباً من كتاب الثورة الفرنسية ، كما كان « الجاحظ » كاتباً للمعتزلة ، ممهداً للثورة الأدبية ، وذلك بتقريبه موضوعات الأدب من أذهان العامة . وكلاهما كان يمتاز في

(38) د. أحمد أمين : قصة الفلسفة اليونانية ، ص 110 ، جـ 1 لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر 1949م.

(39) محمد عطية الإبراشي : الجاحظ ، ص 6 ، جـ 1 نهضة مصر ، القاهرة .

(40) د. طه حسين وآخرون : المنتخب ، جـ 2 ، ص 182 ، جـ 1 دار الكتب المصرية .

(41) مخلد بن علي السلامي ، كان معاصراً لابن المغيرة ، وقد هجا ابن المنير في البيتين المذكورين .

(42) « ابن المنير » هو : عبد الواحد بن منصور محمد المنير الإسكندري المالكي ، أبو محمد (عز القضاة) فقيه ، أديب ، ناظم ، سمع الكثير ، توفي بالإسكندرية في جمادى الأولى سنة (733هـ ـ 1333م) ، وكان مولده في سنة (651هـ ـ 1253م) . من آثاره : تفسير القرآن في عدة مجلدات ، وديوان مدائح نبوية .

(43) « رابيله » : من أوائل الكتّاب الفرنسيين ، ولد مع نهاية القرن الخامس عشر ، وتوفي سنة 1553م.

(44) « موليير » : كاتب مسرحي كوميدي فرنسي ، ولد في باريس سنة 1622م ، وتوفي سنة 1778م.

(45) « فولتير » : فيلسوف فرنسي كبير ، ثائر، ولد في فرنسا سنة 1694م ، وتوفي سنة 1778م.

(46) ع . م. العقاد : ساعات بين الكتب ، ص 368 ، ط مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة 1968م.

أسلوبه بالسخرية والفكاهة »[47] .

و« إمام العبد » ـ المضروب به المثل في الدعابة والسخرية ـ كان « زنجياً » بمعنى الكلمة ، لولا فصاحة لسانه ، ولولا أنه ولد وعاش في مصر ، ففطر على أخلاق أهلها ، وأخذ بعاداتهم ، وسائر أسبابهم : « فقد كان غليظ المشفرين ، أفطس الأنف ، محمر الحدقتين ، أملد العارضين ، مفلفل شعر الرأس ، أما لون جلده فأشد من فحمة الدجى سواداً »[48] .

و « عبد العزيز البشري » كان : « طويل القامة ، نحيف العود ، محني الظهر ، قمحي اللون ، ولم يكن حلو التقاسيم ، جميل الملامح ، إنما كانت ملامحه لا يتسق بعضها مع بعض ، وكانت عيناه دائماً حمراوين ، تنفثان اللهب . أما أسنانه فكانت منفرجة غير منتظمة ، وكانت شفتاه عريضتين تتلمظان للطعام . وكان شعره متناثراً كثاً ، أما شعر حاجبيه فكان مبعثراً ، حتى لا تستطيع أن تجمع شعرة على شعرة . وكان « البشري » أفوه الثغر ، إذا ضحك انفرج وجهه عن ثغر واسع ، وقهقهة عالية . ولم يكن أنيقاً في ملبسه »[49] ، وهو من أعلام الساخرين في عصرنا .

* * *

---

(47) م . ع . الإبراشي : الجاحظ ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة (سلسلة تراجم أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامي) .

(48) عبد العزيز البشري : المختار ، جـ 2 ، ص 126 ، مطبعة المعارف .

(49) د . جمال الدين الرمادي : عبد العزيز البشري ، ص 10 - 11 (سلسلة أعلام العرب ، العدد 24) .

الفصل الثالث

موضوعات السخرية في أدب "الجاحظ"

1 ـ العيوب الجسمية والمظهرية .

2 ـ غرابة الطباع والأخلاق :

أ ـ البخل .

ب ـ النفاق .

جـ ـ الجحود ونكران الجميل .

د ـ التطفيل .

هـ ـ البلادة والإهمال .

و ـ الكذب والمبالغة والادعاء .

ز ـ الخوف والجبن .

3 ـ القصور العقلي :

(الحمق ـ الجهل والغفلة ، الخرافة الخلط ، والتناقض . . . الخ) .

4 ـ التحايل والخداع .

5 ـ التلاعب بالألفاظ .

6 ـ الهزل على طريقة أسلوب الحكيم .

حتى تكتمل الصورة ـ صورة السخرية في أدب الجاحظ ـ نجمل ، في هذا الفصل ، الحديث عن أشهر الموضوعات التي دارت عليها سخرياته :

1 ـ العيوب الجسمية والمظهرية :

إن العيوب الجسمية والمظهرية من أهم موضوعات السخر وأكثرها رواجاً لدى الكتّاب والشعراء .

وتبدو لك العيوب ـ أكثر ما تبدو ـ في الوجه ، فقد يكون كبير الأنف ، واسع الفم ، أو صغير العينين ، أصلم الأذنين ، أو بارز الأسنان ، غليظ الشفتين ، وقد لا تتناسق هذه الأعضاء وكأنها في عراك ، وكأنها وضعت في غير أماكنها ، فيبدو الوجه تائه المعالم ، مستهجن القسمات . وهناك من الوجوه : « ما يبدو مشتغلاً بالبكاء بدون انقطاع ، ومنها ما يبدو ضاحكاً ، أو صافراً باستمرار ، ومنها ما يبدو كأنه ينفخ في بوق خيالي إلى الأبد»[1] .

وإذا كان الحال كذلك في السخرية من الخلقة ـ ولا حيلة للمرء فيها ـ فما بالك بالزي المخالف ، والبذة الشاذة ، والسمت الغريب ، مما يختاره الإنسان وينتقيه ، ويستطيع تغييره وتبديله ؟

إن النفس لا تملك إلاّ أن تسخر ممن لبس قبعة وسراولاً ، وأطال لحيته ، وحمل في يده مظلة ، ومشى حافي القدمين ، هذا في هيئة غريبة ، ومنظر مضحك .

ومن هذه الأنماط نماذج عديدة ملأت عصر « الجاحظ » ، فكتب عنها ، وسخر منها .

* * *

ومما يمثل سُخريته من العيوب الجسمية ، الخلقية منها ، والمظهرية ، والمتصلة بهيئة الإنسان .

1 ـ قال عن نفسه ، ذات مرة : إنه وصف للخليفة « المتوكل » ، أحد أولاده ، فلما رأى الخليفة صورته استبشعها ، فصرفه[2] .

---

(1) هنري برجسون : الضحك ، ترجمة « سامي الدروبي » و « عبد الله عبد الدايم » ، ص 23.

(2) محمد كرد علي ، أمراء البيان ص 458 . والأبشيهي المستطرف في كل فن مستظرف جـ 1 ص 92 والقصة في الهامش وهو كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي .

2 ـ كما روي أن الخليفة « المتوكل » ، أيضاً ، اشترى له جارية تركية جميلة ، رجاء أن يرزق منها ولداً يكون له بحسنها وذكائه ، فولدت له ولداً جاء بجهلها وقبحه»[3] .

3 ـ وروي عن نفسه ، ساخراً من قصره ، ومن طول امرأة رآها في المعسكر ، وكان على طعام ، فأراد أن يمازح تلك المرأة ، فقال لها : انزلي كلي معنا . قالت المرأة : اصعد أنت حتى ترى الدنيا . (وقد مرّ ذكر هذه النادرة في مناسبة سابقة) .

4 ـ وقال مثيراً ضحكنا وسخريتنا من هيئة رجل مر به ذات مرة : « كنت مجتازاً في بعض الطريق ، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة ، طويل اللحية ، وبيده مشط يمشطها . . »[4] .

5 ـ ويقول : ساخراً من هيئة « علي الأسواري » وهو يأكل ، على لسان « الحارثي » ، أحد من بنى عليهم كتابه « البخلاء » : « وكان ـ إذا أكل ـ ذهب عقله ، وجحظت عيناه ، وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يبصر . فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعتري الطعام منه ، صرت لا آذن له إلّا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلاء . ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلّا استفه سفاً ، وحساه حسواً ، وزاد به زوداً ، ولا وجده كنزاً إلّا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ يحضنها ، ويقلها من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً . ثم لا يقع غضبه إلّا على الأنصاف والأثلاث ، ولم يفصل قط ثمرة من ثمرة . وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعاً ، ولا نفى عنه قشراً ، ولا فتشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيته قط إلّا وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور »[5] .

---

(3) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 459.

(4) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ 12 ، ص 216

(5) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق « طه الحاجري » ، ص 79 - 80.

6 ـ ولا يفوت « الجاحظ » أن يتندر ويتفكه ويسخر حتى من نفسه ، من هيئته وحركته وسلوكه في بعض المواقف ، حدث ، في وصف اشتباك بينه وبين الذباب ، فقال :

« . . فأما الذي أصابني من الذباب ، فإني خرجت أمشي في (المبارك) أريد (دير الربيع) ، ولم أقدر على دابة ، فمررت في عشب أعشب ، ونبات ملتف ، كثير الذباب ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي فطردته ، فلم أقدر ، فتحول إلى عيني فطردته ، فعاد إلى مؤق عيني ، فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي ، وذبي عن عيني ، ولذبان الكلأ والفياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عادت إلي فعدت إليه ، ثم عاد إلي ، فعمدت بأشد من ذلك ، فلما عاد استعملت كمي ، فذببت به عن وجهي ، ثم عاد ، وأنا في ذلك أخب السير أؤمل بسرعتي انقطاعه عني . فلما عاد ، نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني بدل كمي ، فلما عاد ، ولم أجد له حيلة ، استعملت العدو ، فعدوت منه شوطاً تاماً ، لم أتكلف مثله منذ كنت صبياً . فتلقاني « الأندلسي » ، فقال لي : ما لك يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع للذبان علي فيه سلطان ، فضحك حتى جلس . وانقطع الذبان عني ، وما صدقت بانقطاعه ، حتى تباعد جداً »[6] .

فقد صور حيرته في ذب الذبان ، واتخاذه شتى الوسائل في طرده ، إلاَّ أنه كان يلاحقه . ويريد أن يسخر ويضحك ، فينزع طيلسانه ليدفع الذبان عنه ، فيغلبه الذبان ، مما يضطره إلى جري لم يقم به في صباه ، وهذا لتكميل صورة السخر التي لهيئته . ويتمها بمقابلة صديق له يسأله عن سبب جريه في الفضاء ، فيخبره قائلاً : أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من مكان غلبني فيه الذبابُ . وإمعاناً في السخر ، فإنه يجري ولا يصدق بأن الذباب قد انقطع عنه إلاَّ بعد تأكده بأنه فارقه .

---

(6) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، مطبعة الحلبي ، القاهرة 1938م ، جـ 3 ، ص 346 (أشب : ملتف . مؤق العين : طرفها مما يلي الأنف . الطيلسان : لباس من حرير يشبه العمامة) .

2 ـ غرابة الطباع والأخلاق :

عمر المجتمع العباسي بمن شذت أخلاقهم ، وغربت طباعهم فانغمسوا في مرذول العادات ، ومستهجن الأخلاق ، فكان الناقد الموهوب « الجاحظ » الذي أدخلهم أتون هزئه ، واتخذهم وقود سخره ، فجسم عيوبهم ، ليروها في مرآة ضمائرهم .

وكان من أشهر تلك الطباع ، وأبرز تلك الأخلاق التي تهكم بها « الجاحظ » ، وعبث بأربابها :

(أ) البخل[7] :

كثر البخلاء في عصر « الجاحظ » ، وامتلكوا الثروات ، وتحكموا بأموالهم في

---

(7) من النماذج الإنسانية العامة ، في الآداب العالمية ، نموذج « البخيل » . . « ويبدو أن الشاعر « فيناندر » اليوناني كانت له مسرحية في ذات النموذج لم تصل إلينا ، حاكها الشاعر الروماني « بلوتوس » في مسرحية التي عنوانها « أوفولاريا » أو « وعاء الذهب »، وبها تأثر « موليير » في مسرحيته الشهيرة « البخيل » ، وفيها صور « موليير » شخصية « أربايون » نموذجاً إنسانياً للبخل، وتعمق في تصويره أكثر مما فعل « بلوتوس » ، بحيث ظهرت هذه الرذيلة الاجتماعية في صورها المختلفة الهادفة في علاقة البخيل بأولاده وفي نظرته للمجتمع ، حتى إن عاطفة الحب عنده لم تطغ على صفة البخل فيه ، وقد ظهرت في المسرحية آثار هذا البخل الأليمة في أبناء البخيل ، مما أكسب هذه الملهاة طابعاً به يقرب الضحك المر من البكاء . . وتوالت بعد ذلك المسرحيات في الآداب الأدبية تصور نموذج « البخيل » ، وأشهرها مسرحية الشاعر الإيطالي « كارلو جولدوني » (1707 - 1793 م) وعنوانها « البخيل » وفيها يرفض البخيل « أميرجيو » تزويج ابنة زوجته بمن تحب بخلاً بجهازها ، فيقبل الفتى زواجها دون مال ، على شرط أن يوصي « أميرجيو » لها بكل ما يملك . وللمؤلف ملهاة أخرى عنوانها « البخيل المتبرج » وفيها يصور نموذج البخيل الذي يظهر بمظهر المسرف ليفوز بربيحة غنية ، فيبوء بالفشل . ولنفس المؤلف ملهاة ثالثة بعنوان « البخيل الغيور » ، وفيها يسبب البخيل آلاماً جسيمة لامرأته الفاضلة التي يحبها ، ويكشف أن حب المال سبب بؤسه ، ولكنه لا يستطيع أن يقلع عن آفته تلك التي يشقى بها » (انظر د. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، الطبعة الخامسة ، دار الثقافة ، بيروت ، ص 303 ، 304) .

وقد حاول بعض الدارسين أن يقارن بين بخلاء « الجاحظ » وبخيل « موليير » (كالاستاذ شفيق جبري ، والدكتور محمد الصادق عفيفي) ، غير أن بعض النقاد « لا يقر هذه المقارنة بين عملين يختلف كل منهما عن الآخر في تكوينه الفني ، أو جنسه الفني كما يقولون ، وفي المناخ الفكري والحضاري الذي ولد فيه ، فمهما كان نصيب السخرية من البخل عند « الجاحظ » ، وعند « موليير » ، من التماثل أو التقارب فإن البون شاسع في طبيعة عمل كل منهما ، بعد البيئة التي أنبتت كلاً منهما عن البيئة التي أنجبت الآخر » (انظر د. أنيس داود : دراسات نقدية في الأدب ، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس: ص 215 ،216، بلا تاريخ) والباحث مع اقتناعه برأي الدكتور أنيس داود ، هذا ـ يقول : إنه لو تيسر للجاحظ أن يكون مسرحياً في زمانه لفاق « موليير » ، و « فيناندر » وغيرهما في هذا الميدان .

المجتمع : التاجر الرابح كان يضن ويبخل يقول « الثعالبي » : « . . ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدقيق »[8] .

غاص « الجاحظ » في باطن البخيل وعرف سريرته ، ذلك لأنه : « مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلات بينها ، وبين الحركات والسمات الظاهرة ، من كلمة عابرة ، أو إشارة طارئة ، أو لفتة سريعة معجلة »[9] .

ولقد أفرد للبخيل كتاباً خاصاً ، وهو كتاب « البخلاء » ، وجعل الدرهم عند البخيل يساوي دية مسلم ، إذ : « الدرهم عشر العشرة ، وأن العشرة عشر المائة ، وأن المائة عشر الألف ، وأن الألف عشر العشرة آلاف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم ؟ »[10] .

وكيف يخرج الدرهم من حوزته ، ويوصف ـ بعد ذلك ـ بإيمان أو صلاح ، وقد طرد من جيبه وبيته دلالة الإسلام وقاعدته الأولى ؟ إن البخيل يستكثر ذلك ويقول : لا واللّه ، إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريده ، وعليه « حسبي اللّه » ، أو « توكلت على اللّه » ، فيظن أنه قد خرج من كنف اللّه جل ذكره ، حتى يرد الخاتم في موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أُخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام كما هو ؟! إن هذا لعظيم »[11] .

ويروي لنا صورة ساخرة لتمار : « كان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال ، فربما احتبس ، فاتهمه بأكل التمر . فسأله يوماً ، فأنكر ، فدعا بقطعة بيضاء ، ثم قال : امضغها فمضغها ، فلما أخرجها ، وجد حلاوة وصغرة ، وقال : هذا دأبك كل يوم ، وأنا لا أعلم ، أخرج من داري »[12] .

---

(8) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ص 9
(9) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري (المقدمة : ص 50) .
(10) الجاحظ : البخلاء ، جـ 2، ص 89 .
(11) المصدر السابق : ص 96
(12) المصدر نفسه : جـ 2، ص 59

وتلك صورة أخرى أشد بخلاً ، وأكثر تنفيراً للنفوس ، في أسلوب ساخر لاذع ، يفضح الشح ، ويبين كيف يبلغ بصاحبه مداه . يقول : « كان عندنا رجل من (بني أسد) ، إذا صعد ابن الأكاري إلى نخلة له يلتقط له رطباً ـ ملأ فاه ماء ، فسخروا منه ، وقالوا له : إنه يشربه ، ويأكل شيئاً على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل بال في يده ، ثم أمسكه في فيه ، والرطب أهون على أولاد الأكرة ، وغير الأكرة ، من أن يحْتمل فيه أحد شَطر هذا المكروه ولا بعضه . قال : فكان يملأ فاه بماء أصفر ، أو أحمر ، أو أخضر لكيلا يقدر على مثله في رؤوس النخل »[13] .

وقال « الجاحظ » ساخراً من أهل « مرو »[14] : « لم أر الديك في بلدة قط إلَّا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة ، إلَّا ديكة (مرو) ، فإني رأيت ديكة (مرو) تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب . قال : فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثم، عم جميع حيواناتهم»[15] .

ولأن « يطعن طاعن » في الإسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني ، ولشقُّ عصا الطاعة أهون عليه من شق رغيفه لا يعد الثلمة في عرضه ثلمة ، ويعدها في ثريدته من أعظم الثلم »[16] .

وقد سخر من أهل « مرو » ، متعجباً من أنهم : « ربما ترافقوا وتزاملوا ، فاشتركوا في شراء اللحم ، فقسموه قبل الطبخ ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه ، فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسله في خل القدر ، والتوابل ، فإذا اطبخوا تناول كل إنسان خيطه ، وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط

---

(13) الجاحظ : البخلاء ، جـ 2 ، ص 60.

(14) مرو : هي كبرى مدن خرسان ، حتى لتعد قصبتها ، وهي تقع على نهر صغير يقال له : المرغاب كما تقع على طريق خراسان الذي يربطها ببغداد ، بعد أن يخترق بلاد الجبل ويسير شمال الصحراء الكبرى في قومس ، حتى يمر بنيسابور ، ومشهد ، وطوس ، إلى أن يصل إلى مرو ، كما يصلها شرقاً ـ إلى الشمال ـ ببخاري ، وبلاد الشاش (على نهر سيحون أو سرداريا) وإلى الجنوب ببلخ ، ثم كابل ، وغزنة ، وبلاد الهند ، وهي إحدى المدن التجارية الكبرى بخراسان . وأهلها موصوفون بدقة النظر لذلك جاءهم الحرص ، حتى وصفوا بالبخل .

أما الهمذاني وياقوت فيدفعان عن المراوزة تهمة البخل بقوة وحماسة .

(15) المصدر السابق : جـ 1 ، ص 46 ط دار الكتب المصرية ، والجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 18.

(16) المصدر السابق : ص 100.

القطعة بعد القطعة ، حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم . فإن أعادوا المشاركة ، أعادوا تلك الخيوط ، لأنها قد تشربت الدسم ورويت . . . وليس اشتراكهم من طريق الرغبة في المشاركة ، ولكن لأن قطعة كل واحد منهم لا تبلغ المقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤنة تخف أيضاً في الحطب ، والخل ، والثوم ، والتوابل . ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر »[17] .

وقد أورد « الجاحظ » ، في « البخلاء » ، قصصاً تصور حرصهم وشحهم ، منها قصة « معاذة العنبرية » ، فقال :

« اجتمع ناس من المسجديين ممن ينتحلون الاقتصاد في النفقة ، والتنمية للمال ، من أصحاب الجمع والمنع ، وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا البخل ، وتصارحوه ، وتدارسوه ، فقال شيخ منهم : لم أر في وضع الأمور مواضعها ، وفي توفيتها غاية حقوقها ، كمعاذة العنبرية .

قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : أُهْدى إليها ، في هذا العام ، ابن عم لها أضحية ، فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة ، فقلت لها : ما لك يا معاذة ؟ قالت : أنا أرملة ، وليس لي قيم ، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي ، وقد ذهب الذين كانوا يديرونه ، أو يقومون بحقه ، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها ، وقد علمت أن اللّه لم يخلق فيها ـ ولا في غيرها ـ شيئاً لا منفعة فيه ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلاَّ أنه يجر إلى تضييع الكثير : أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو يجعل كالخطاف ، ويسمر في جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه كل ما خيف عليه من الفأر ، والنمل ، والسنانير ، وبنات وردان والحيات ، وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار المندفة ، وبنا إلى ذلك ، أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس ، واللحيان ، وسائر العظام ، فسبيله أن يسكر بعد أن يعرق ، ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح ، وللإدام ، وللعصيدة ، ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم

---

(17) المصدر نفسه : ص 54 ، ط دار الكتب المصرية .

ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منها ، وإذا كانت كذلك فهي أسرع في إنضاج القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الإهاب فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرث ، والبعر ، فحطب إذا جفف ، عجيب .

ثم قالت : بقي الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن اللَّه عز وجل ، لم يحرم من الدم المسفوح إلاَّ أكله وشربه ، وإن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك ، حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كية في قلبي ، وقذى في عيني ، وهماً لا يزال يعاودني . قال الشيخ : فلم ألبث أن رأيتها قد تطلعت وتبسمت، فقلت : ينبغي أن يكون قد اتضح لك باب الرأي في الدم . قالت : أجل ! تذكرت أن عندي قدوراً شامية جدداً ، وقد زعموا أنه ليس شيء أدفع ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شيء موقعه . قال الشيخ : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت : بأبي أنت ، لم يجيء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم ، والألية ، والجنوب ، والعظم المعروق ، وغير ذلك ، معاش ، ولكل شيء إبان . فقبض أحد الأشحاء من السامعين قبضة من حصى ، ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين »[18] .

صور « الجاحظ » ـ إذاً ـ حرص وشح « معاذة العنبرية » في حزنها ، أول الأمر ، من عجزها عن الانتفاع بكل جزء من شاتها المهداة إليها ، إلى أن اهتدت ، ووجدت أن ما يرمى له نفع عظيم ، حتى الدم ، والقرون ، والعظم ، والفرث ، والبعر . . .

ويرتفع الأديب الساخر بسخريته درجة ، إذ يجعل الشيخ ـ بعد ستة أشهر ـ يسألها عن القديد ، فإذا بها قد ظلت مدتها الطويلة في أكل الشحم ، والألية ، والعظام التي كشطت عنها لحمها وادخرته . ويبلغ بالسخرية مداها ، إذ يصور لنا أحد

---

(18) الجاحظ : البخلاء ، جـ 1 ، ص 68.

(بنات وردان : الصراصير . يعرق : يؤكل ما عليه من اللحم).

(القديد: اللحم المجفف المملح في الشمس. إبان: وقت) .

الأشحاء من السامعين ـ في الختام ـ يقبض قبضة من الحصى ، فيضرب بها الأرض ، تعجباً وإعجاباً ، وقد تنبه إلى ما كان قد غفل عنه ، وأعد نفسه من المسرفين ، لأنه لم يتسمع بأخبار الصالحين ، وإسرافه ، في نظره ، هو بالنسبة إلى حرص « معاذة العنبرية » ، رغم شدة بخله وعظم شحه .

ويحكي « الجاحظ » ما حدث له مع صاحبه « محفوظ النقاش » فيقول : « صحبني « محفوظ النقاش » من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلي ، سألني أن أبيت عنده ، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة ، وليس معك نار ، وعندي لبأ لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة ، لا تصلح إلَّا له . فملت معه ، فأبطأ ساعة ، ثم جاءني بجام لِبَإٍ وطبق تمر . فلما مددت ، قال : يا أبا عثمان ! إنه لِبأ وغلظة ، وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل يسرح إليك ـ وأنت ، في الأصل ، لست بصاحب عشاء ، فإن أكلت اللبأ ، ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعاً ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك . وإن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام برأيك ، ولم نُعِدّ لك نبيذاً ولا عسلاً وإنما قلت هذا الكلام ، لئلا تقول غداً : كان وكان ، واللّٰه قد وقعت بين نابي أسد ، لأني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به وبدا له فيه .

وإن جئت به ولم أحذرك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق علي ، ولم ينصح ، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً . فإن شئت فأكلة وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ، ونومْ على سلامة . فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً ، فما هضمه إلَّا الضحك ، والنشاط ، والسرور فيما أظن . ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به ، لأتى على الضحك أو لقضي علي ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب »[19] .

وهذه صورة ساخرة لأحد بخلاء « الجاحظ » ، بلغ به الحرص مداه ، حتى

---

(19) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 123 - 124 (اللبأ : أول اللبن عند الولادة) .

انتقل إلى عقبيه بعده . يقول « الجاحظ » في كتاب « البخلاء » : « . . وحديث سمعناه على وجه الدهر : زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته ، وصار إماماً ، وأنه كان إذا صر في يده الدرهم خاطبه وناجاه ، وفداه ، واستبطأه ، وكان يقول له : « كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم خامل رفعت ، ومن رفيع قد أخملت ! لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى . ثم يلقيه في كيسه ، ويقول له : «اسكن على اسم اللّه ، في مكان لا تهان ولا تذل ، ولا تزعج منه » . وإنه لم يُدخل فيه درهماً قط ، فأخرجه . وأن أهله ألحوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك . ثم حمل درهماً فقط ، فبينا هو ذاهب إذ رأى حواء قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : أتلف شيئاً تبذل فيه النفس بأكلة ، أو شربة ؟ واللّه ، ما هذا إلّا موعظة لي من اللّه . فرجع إلى أهله ، ورد الدرهم إلى كيسه ، فكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت والحياة بدونه .

فلما مات ، وظنوا أنهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان أدم أبي ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الأدام . قالوا : كان يتأدم بجبنة عنده . قال : أرونيها . فإذا فيها حز كالجدول ، من أثر مسح اللقمة . قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وإنما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى . قال : فهذا أهلكني ، وبهذا أقعدني هذا المقعد لو علمت ذلك ما صليت عليه . قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعها من بعيد ، فأشير لها باللقمة »[20] .

* * *

وهكذا نرى أن « الجاحظ » قد افتن في استبطان دخائل البخيل ، وكشف قناعاته ، والسخرية منه في جمع المال والحرص عليه ـ بكل ما تتسع له الوسائل ، وتقوى عليه الحيل .

* * *

---

(20) الجاحظ : البخلاء (تحقيق طه الحاجري) ، ص 131 وما بعدها .

(ب) النفـــاق :

المرائي مداح كذاب ، يظهر خلاف مـا يبطن ، فيـأمر بـالمعروف ولا يـأتيه ، وينهى عن المنكر ويأتيه ، ومن ثم كان محلاً للسخر والتندر . قال « الجاحظ » ، عن « قاسم التمار » ، حين : « أقبل على أصحاب له ، وهم يشربون النبيذ ، وذلك بعد العصر بساعة ، فقال لبعضهم : قم صل فاتتك الصلاة ! ثم أمسك عنه سـاعة ، ثم قال لآخر : قم ، صل ، ويلك ، فقد ذهب الوقت . فلما أكثر عليهم في ذلك ، وهو جـالس لا يقوم يصلي ، قـال له واحـد منهم : أنت ! لم لا تصلي ؟ فأقبـل عليـه ، فقال : ليس ، واللّه ، تعرفون أصلي في هذا قلت : وأي شيء أصلك ؟ قـال : لا نصلي ، لأن هذه المغرب قد جاءت »[21] .

***

(جـ) الجحود ونكران الجميل :

سخـر « أبو عثمـان » من أولئك الـذين يحبـون أن يـأخـذوا دون أن يعـطوا ، ويتنكرون لمن يسدي إليهم الجميـل ، وإذا نزل بـالمحسن إليهم ، ضائقـة ، نفروا منه ، وتفرقوا من حوله ، وإذا قصدوهم في معروف أنكروهم بل وأهانـوهـم ، لأنهم أنانيون ، جشعون ، نهمون ، تحكمهم مصالحهم الخاصة فقط .

وقد صورهم «الجـاحظ» بطبيعتهم التي عليهـا فطروا، فقـال: «ومن أعاجيب أهل (مرو) مـا سمعنا من مشيختنـا على وجه الـدهر ، وذلـك : أن رجلاً من أهـل (مرو) كان لا يزال يمر على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته ، ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي : « ليت أني قد رأيتك بـ (مرو) حتى أكافئك ، لقديم إحسانك ، وما تجدد لي في كل قدمة ، ههنا ، فقد أغناك اللّه عني . قال : فعرضت لذلك العراقي ، بعد دهر طويـل ، حاجـة في تلك الناحيـة ، فكان ممـا هون عليـه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكان المروزي هنالك . فلما قدم ، مضى نحوه في ثياب سفره ، وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل

---

(21) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 4 ، ص 12.

بثقته وموضع أنسه . فلما وجده قاعداً في أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العراقي في نفسه : لعل إنكاره إياي لمكان القناع فرمي بقناعه ، وابتدأ مساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكاراً . قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة ، وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك ! (وأكد ذلك « الجاحظ » بقوله : ترجمة هذا الكلام بالفارسية : « اكراز يوست بارون بياني نشنا ستم »[22]) .

(د) التطفيل :

ظهرت ، في المجتمع العباسي ، طائفة من الناس أحبت طعام الغير ، وهامت به ، وملك عليها سمعها وبصرها ، فأقبلت على الولائم ، وحفلت بالأعراس ، فتتبعت أخبارها ، ورمت بنفسها في أحضانها ، وشاركت فيها ، دون أن تدعى إليها ، مع عدم حاجتها لذلك ، حتى نعت أولئك باسم « الطفيليين » ، نسبة إلى « طفيلي الأعراس » ، زعيمهم في ملء معدته من الولائم ، يصفه « الجاحظ » بقوله : « كان بـ (الكوفة) رجل من بني « عبد الله بن غطفان » يسمى « طفيل » ، كان أبعد الناس نجعة في طلب الولائم والأعراس ، فقيل له لذلك « طفيل العرائس » وصار ذلك نبذاً له ، ولقباً لا يعرف بغيره ، فصار كل من كانت تلك طعمته ، يقال له : « طفيلي » »[23] .

ومن صفات الطفيلي : حسن المظهر ، وجمال الهيئة ، وخفة الروح وإجادة الدعابة .

---

(22) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 22

(23) قال الأصمعي : الطفيلي : الداخل على القوم من غير أن يدعى ، مأخوذ من الطفل ، وهو إقبال الليل على النهار بظلمته ، وأرادوا أن أمره يظلم على القوم فلا يدرون من دعاه ، ولا كيف دخل عليهم . قال : وقولهم « طفيلي » منسوب إلى « طفيل الأعراس أو العرائس » ، فيه نظر ، لأن العرب تسمي الطفيلي الوارش ، و« الرائش » ! ، والذي يدخل على القوم في شرابهم ولم يدع إليه « الوغل » . قال « أبو عبيدة » : كان رجل من بني هلال يقال له : طفيل بن زلال ، إذا سمع بقوم عندهم دعوة أتاهم ، فأكل طعامهم ، فسمي كل من فعل ذلك به (انظر ابن الجوزي : أخبار الأذكياء ، ص 106 ، طبعة بيروت ـ بلا تاريخ) .

ووصف « الجاحظ » له ، المنقول نصه هنا ، عن كتابه « البخلاء » ، ص 78 ، تحقيق « طه الحاجري » .

وكان طفيل الأعراس يقول : « وددت لو أن بـ (الكوفة) بركة مصهرجة ، فلا يخفى علي من أعراسها شيء »[24] .

ومن أجمل اعتذارات الطفيليين حضورهم موائد لم يدعوا إليها قول شاعرهم :

نـحـن إذا دعـينـا أجـبـنـا   ومتى نيسى يـدعنـا الـتـطفيـل
ونـقـل علنـاً دعـينـا فـغـبـنـا   وأتـانـا فلم يجـدنـا الـرسـول

وأتى طفيلي طعاماً لم يدع إليه ، فقيل له : من دعاك ؟ فأنشأ يقول :

دعـوت نـفـسـي حـيـن لـم تـدعـنـي   فـالحمـد لي ، لا لـك، في الـدعـوة
وكـان ذا أحـسـن مـن مـوعـد   خـلـفـه يـدعـو إلـى الـجـفـوة[25]

وقد اتُّخِذ التطفل مادة ثرة للسخرية ، ومعيناً لا ينضب للهزء والتهكم. وتناول « الجاحظ » هذا النوع من الناس بالسخرية البارعة ، ومن سخرياته في ذلك :

« كان « قاسم » شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذر المؤاكلة وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على نفسه ، وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ، ولا بالتجمل قط ، فكان لا يرضى بسوء أدبه ـ على طعام « ثمامة »[26] ـ حتى يجر معه ابنه « إبراهيم » ، وكان بينه وبين « إبراهيم » ابنه في القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين ، فكانا ـ إذا تقابلا على خوان « ثمامة » ـ لم يكن لأحد ، على أيمانهما وشمائلهما حظ في الطيبات :

اتوه يوماً بقصعة ضخمة فيها ثريدة كهيئة الصومعة مكللة بإكليل من عراق ، بأكثر ما يكون من العراق ، فأخذ « قاسم » الذي يستقبله ، ثم أخذ يمنة ، وأخذ ما بين يدي من كان بينه وبين « ثمامة » ، حتى لم يدع إلاَّ عرقاً قدام « ثمامة » ، ثم مال إلى جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك الصنيع ، وعارضه ابنه وحاكاه ، فلما أن نظر « ثمامة » إلى الثريدة ، مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ، واللحم كله بين يديه ، وبين

(24) الجاحظ : البخلاء ، جـ 2 ، ص 78

(25) عبد العزيز البشري : المختار ، جـ 2 ، ص 141.

(26) لعله يقصد « ثمامة الأشرس » (الذي سبق التعريف به : هامش 7 من الفصل الثاني ، من الباب الثاني) .

يدي ابنه ، إلّا قطعة واحدة بين يديه ، تناولها ، فوضعها قدام « إبراهيم » ابنه ، فلم يدفعها ، واحتسب بها في الكرامة والبر »[27] . وقال « أبو عثمان » : وكان رجل يغشى طعام « الجوهري »[28] ، وكان يتحرى وقته ولا يخطىء ، فإذا دخل القوم يـأكلون ، وحين وضع الخوان ، قال : لعن اللّٰه القدرية[29] ! من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام ، وقد كان في اللوح المحفوظ أني سآكله ؟ فلما أكثر من ذلك ، قال له « رباح » : تعال بالعشي ، أو بالغداة ، فإن وجدت شيئاً ، فالعن القـدرية والعن آباءهم ، وأمهاتهم »[30] .

والطفيلي يأتي على الطعام كله ، فلا يدع منه شيئاً حتى عـظم اللحم ، فإنـه يفتن في كشط اللحم عنه . وأبناء الطفيليين أشد حرصاً من آبائهم ، وأعظم افتتاناً في ذلك .

« تعرق أعرابي عظماً ، فلما أراد أن يلقه ، وله بنون ثلاثة ، قال له أحدهم : أعطنيه . قال : وما تصنع به ؟ قال : أتعرقه حتى لا تجد فيـه ذرة مقيلاً . قـال : ما قلت شيئاً . قال الثاني : أعطنيه . قال : وما تصنع به ؟ قال : أتعرقه حتى لا يدري ألعامة ذلك ، أو هو للعام الذي قبله . قال : ما قلت شيئـاً . قال الثـالث : أعطنيـه قال : وما تصنع به ؟ قال : أجعله مخه إدامه قال : أنت له »[31] .

ووصف « أبـو عثمان » شغف الـطفيليين إلى موائـد الغير ، فقـال : « أشتهي سـريدة دكنـاء من الفلفـل ، ورقـطاء من الحِمّص ، ذات جفـافين من اللحم ، لهـا جناحات من العراق أضرب فيها ضرب اليتيم عند وصي السوء »[32] .

---

(27) البر : الإحسان .

(28) الجوهري هو أبو النصر ثري من أثرياء البصرة . وكان من أصحاب الجاحظ .

(29) القدرية : فرقة إسلامية تقول بنفي القدرة في الإنسان (الجبرية) ، وكان الممثل الأول لهم « جهم بن صفوان »، الذي أعدم لأسباب سياسية في عام 128هـ « 745 - 746م » قد أنكر أزلية النعيم والجحيم ، وبقي أتباعه بعده في بلاد فارس حتى القرن الحادي عشر ، ثم انضموا في نهاية الأمر إلى الأشاعرة (انظر : لويس غردن ، و . ج . قنواتي : فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ، جـ 1 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1967م) .

(30) « الجاحظ » : البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص 147، ط دار المعارف ، مصر 1958م .

(31) المصدر السابق : ص 222.

(32) المصدر السابق : ص 179

وقال: « . . . يؤتى بالمائدة فيتسعون ويتضايق ، ويجدون ويعذر ، حتى إذا افترعوا خوى تخوية الظليم ، وأكل أكل الجائع المقرور »[33] .

وبلغت السخرية مداها عند « أبي عثمان » منهم ، فقال : « ومن ذلك قول « أبي الحارث جمين » لبعض الملوك : « جعلت فداك ، أي شيء في تلك السلة ؟ » قال : بظر أمك . قال : « فأعضضني به »[34] .

ويتوالى التهكم والسخر من « أبي عثمان » ، فيقول : وقيل لبعض هؤلاء اللعامظة والمستأكلين والشناغيف والمفقعين ، ورئي سميناً : « ما أسمنك » ؟ . قال : « أكلي الحار ، وشربي القار ، والاتجاه على شمالي ، وأكلي من غير مالي » ، وقد قال الشاعر :

وإن امتلاء البطن في حسب الغنى قليل الغناء وهو في الجسم صالح

وقيل لآخر : « ما أسمنك ؟ » . قال : « قلة الفكرة ، وطول الدعة ، والنوم على الكظة »[35] .

ويرى « أبو عثمان » أن الطفيلي ينظر إلى الأشياء من خلال مصالحه ، فيقول : « قرب خباز » « أسد بن عبد اللّه » إليه ، وهو على « خراسان » ، شواء قد أنضجه نضجاً ، وكان يعجبه ما رطب من الشواء فقال لخبازه : (أتظن أن صنيعك يخفى علي ؟ إنك لست تبالغ في إنضاجه لتطييبه ، ولكن تستحلب جميع دسمه ، فتنتفع بذلك منه فبلغت أخاه ، فقال : رب جهل خير من علم »[36] .

والطفيلي الشحيح البخيل يخشى الحسد ، حتى من ألصق أصدقائه به ، يقول « الجاحظ » : وقال « رمضان » : كنت مع شيخ أهوازي في « جعفرية » ، وكنت في الذنب وكان في الصدر ، فلما كان وقت الغداء ، أخرج من سلة له دجاجة وفرخاً واحداً مبرداً ، وأقبل يأكل ، ويتحدث ، ولا يعرض عليّ ، وليس في السفينة غيري

(33) المصدر السابق : ص 179.

(34) المصدر نفسه : ص 179.

(35) المصدر نفسه : ص 180

(36) المصدر نفسه : ص 147

وغيره ، فرآني أنظر إليه مرة ، وإلى ما بين يديه مرة ، فتوهم أني أشتهيه وأستنطيه ، فقال لي : « لم تحدق النظر ؟ لمن كان عنده أكل مثلي ، ومن لم يكن عنده نظر مثلك » قال : ثم نظر إليه ، وأنا أنظر إليه ، فقال : « يا هناه ! أنا رجل حسن الأكل ، لا آكل إلّا طيباً ، وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة ، وعين مثلك سريعة ، فاصرف عني وجهك». قال: فوثبت عليه فقبضت على لحيته بيدي اليسرى ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى ، فما زلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي ، ثم تحول إلى مكاني فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل علي فقال : « قد أخبرتك أن عينك مالحة ، وأنك ستصيبني بعين » .

قلت : « وما شبه هذا من العين ؟ » . قال : إنما العين مكروه يحدث ، فقد أنزلت بنا عينك أعظم المكروه »[37] .

ويطلب الطفيليون من الآخرين بذل أموالهم ، وإطعام الغير ، مع شرههم في الأكل ، وانكبابهم عليه ، وتجمعهم على موائد الناس بأبشع ما تكون عليه صور المؤاكلة ، مع شحهم المقيت ، وبخلهم الممض . فيرسم « أبو عثمان » لنا هذه الصورة على لسان « الحارثي » ، فيقول : « وأعجب من كل عجب ، وأطرف من كل طريف ، أنكم تشيرون علي بإطعام الأكلة ، ودفعي إلى الناس ما لي ، وأترك لهذا مني ، فإن زعمتم أني أكثر مالاً ، وأعد عدة ، فليس بين حالي وحالكم في التقارب ، أن أطعم أبداً ، وأنتم تأكلون أبداً ، فإذا أتيتم من أموالكم من البذل والإطعام ، على قدر احتمالكم ، عرفت بذلك أن الخير أردتم ، وإلى تزييني ذهبتم ، وإلّا فإنّكم تجلبون جلباً لكم شَطره ، بل أنتم كما قال الشاعر :

يحب الخمر من مال الندامى ويكره أن تفارقه الفلوس

ثم قال : « واللّه ، إني لو لم أترك مؤاكلة الناس ، وإطعامهم ، إلّا لسوء دعة « علي الأسواري » ، لتركته .

وما ظنكم برجل نهض بَضْعَة لحم تعرُّقاً ، فبلعَ ضِرسه ، وهو لا يعلم »[38] ؟ .

---

(37) المصدر نفسه : ص 148

(38) الجاحظ : البخلاء تحقيق طه الحاجري ، ص 178 - 179 (و «علي الأسواري » أحد الطفيليين) .

(هـ) البلادة والإهمـــال :

إذا كان الشخص مهملاً ، بليد الإحساس ، جامد العاطفة ، خامد الشعـور ، يرى المثير فلا يثور ، ويُستغضب فلا يغضب ، كان موضوعـاً للسخريـة ، ونموذجـاً رائعاً للإضحاك ، ومجالاً فكهاً للتهكم .

وهكذا وجدنا لـ « الجاحظ » ، من الحديث عن هؤلاء ، مدداً لا ينفذ ، قال :

قـال «الخليل» : «كـان أبو قـطبة»[39] يستغـل ثـلاثـة آلاف دينـار ، وكـان ـ من البخل ـ يؤخر تنقيب بالوعته إلى يوم المطر الشديد ، وسيل المثاعب ، ليكتري رجلاً واحـداً فقط ، يخرج مـا فيها ، ويصبـه في الطريق ، فيجتـرفه السيـل ، ويؤديه إلى القناة ، وكان بين موضع بئره والصب قدر مائتي ذراع ، فكان ـ لمكان زيادة درهمين ـ يحتمل الانتظار شهراً أو شهرين ، وإن هو جرى في الطريق وأُذِيَ به الناس »[40] .

إنه البخل الذي يؤدي ، بمن عنده استعداد لذلك إلى بلادة الشعور ، وإهمال الواجب ، وعدم إحساس المرء بنفسه ، كإنسان له كرامته واحترامه .

وقال « الجاحظ » ، سـاخراً من المهملين الـذين لا يتثبتون من كـلامهم ، ولا يقيمون عليه الدليل ، ويلقونه دون فحص وتمحيص : « إن بعض أصحاب التفسيـر يـزعم أن اللّه عـاقب الحيـة ، حين أدخلت « إبليس » في جـوفهـا ، حتى كلم « آدم »[41] ـ على لسانها ـ بعشـر خصال ، منهـا شق اللسان ، قـالوا : فلذلـك ترى الحيـة أبداً إذا ضربت لتقتل ، كيف تخرج لسانها ، لتري الـظالم عقوبـة اللّه تعالى لهـا ، كأنهـا تسترحم ، وصـاحب هذا التفسيـر لم يقل ذلـك إلاّ لحية كـانت عنـده تتكلم »[42] .

والبليـد ـ البخيل ـ يستكثـر دائماً القليـل من الخيـر إن فعله ، ويـظل يـذكـره ويعيده ، ويعلن عنه في كل مكان ، ويفخر به في كـل ميدان ، قـال « الجاحظ » ،

---

(39) أبو قطبة : هو أحد بخلاء الجاحظ الذين تندر بهم .

(40) المصدر السابق : ص 114

(41) آدم : أبو البشر ، وقصته مع إبليس ، وهبوطه ـ مع حواء ـ من الجنة معروفة

(42) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 6 ، ص 74 - 75 ، مطبعة الحلبي ، بمصر .

ساخراً من بخل وبلادة « أبي الهذيل » الذي أهدى دجاجة لـ « مُـوَيس بن عمران » (الذي كان من أرباب البيوتات في « البصرة ») :

« وكانت دون ما يتخـذ لـ « مويس » ، إلّا أنـه ـ بكرمـه وبحسن خلقه ـ أظهـر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، وكان يعرفه بالإمساك الشديد ، فقال :

« وكيف رأيت ، يا أبا عمـران تلك الدجـاجة ؟ » ، قـال : « كانت عجبـاً من العجب » ، فيقول : « وتدري ما جنسها ؟ وتدري ما سنها ؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسن . . . وتدري بأي شيء كنا نسمنها ؟ وفي أي مكان كنا نعلفها ؟ » فلا يـزال في هـذا الأمـر والآخـر يضحـك ، ضحكـاً نعـرفـه نحن ، ولا يعـرفـه « أبـو الهذيل » . . . . » .

(ويمعن الجاحظ في السخرية من بلادتـه) ، فيقول : وكـان « أبو الهـذيل » أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة ، فإن ذكـروا دجاجـة قال : « أين كانت يا « أبا عمران » من تلك الدجاجة ؟ » ، فإن ذكروا بطة ، أو عنـاقاً ، أو جزوراً ، أو بقرة ، قال : « فأين كانت هذه الجزور في الجزر ، من تلك الدجاجة في الدجاج ؟ » ، وإن استسمن « أبو الهديل » شيئاً من الطير والبهائم ، قال : « لا واللّه! ولا تلك الدجاجة » ، وإن ذكروا عذوبة الشحم ، قال : « عذوبة الشحم في البقر ، وبطون السمك ، ، والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج » . وإن ذكـروا ميلاد شيء ، أو قدوم إنسان ، قال : « كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة ، ومـا كان بين قدوم (فلان) وبين البعثـة بتلك الدجـاجة إلّا يـوم » ، وكانت مثـلاً في كل شيء ، وتاريخاً في كل شيء »(43) .

وهذه صورة من صور جمود العاطفة ، وخمود الشعور ، وبلادة « أبي سعيد » ، يسخـر منها « أبـو عثمان » فيقـول : « وكان « أبـو سعيد » ينهي خـادمتـه أن تخـرج الكساحة من الدار ، وأمرها أن تجمعها من دور السكان ، ويلقيها على كساحتهم ، فإذا كان ذا الحين بعد الحين جلس ، وجاءت الخادم ومعها زبيل ، فعزلت بين يديه

---

(43) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق « طه الحاجري » ، ص 135 (ط دار المعارف ، بمصر) .

من الكساحة زبيلاً ، ثم فتشت واحداً واحداً ، فإذا أصاب قطع دراهم ، وصرة نفقة ، والدينار ، أو قطعة حلي ، فسبيل ذلك معروف . وأما ما وجد فيه من الصوف ، فكان وجهه أن يباع إذا اجتمع من أصحاب البراذع ، وكذلك قطع الأكسية ، وما كان من خرق الثياب ، فمن أصحاب الصينيات والصلاحيات ، وما كان من قشور الرمان ، فمن الصباغين والدباغين ، وما كان من القوارير ، فمن أصحاب الزجاج ، وما كان من نوى التمر ، فمن أصحاب الخشوف ، وما كان من نوى الخوخ ، فمن أصحاب الفرس ، وما كان من المسامير وقطع الحديد ، فللحدادين وما كان من القراطيس ، فللطراز ، وما كان من الصحف ، فلرؤوس الجرار ، وما كان من قطع الخشب ، فللأكافين ، وما كان من قطع العظام ، فللوقود ، وما كان من قطع الخزف ، فللتنانير الجدد ، وما كان من إشكنج[44] ، فهو مجموع للبناء ، ثم يحرك ، ويثار ، ويخلل حتى يجتمع قماشه ، ثم يعزل للتنور ، وما كان من قطع القار ، بيع من القيار ، فإذا بقي التراب خالصاً ، وأراد أن يضرب منه اللبن للبيع ، وللحاجة إليه ، لم يتكلف الماء ، ولكن يأمر جميع من في الدار أن لا يتَمِئوا ، ولا يغتسلوا ، إلَّا عليه ، فإذا ابتل ضربه لبناً .

وكان يقول : من لم يتعرف الاقتصاد تعرفي ، فلا يتعرض له . .

ويمضي « الجاحظ » في تصوير بلادة « أبي سعيد » قائلاً : « وذهب من ساكن له شيء ، كبعض ما يسرق من البيوت ، فقال لهم : اطرحوا الليلة تراباً ، فعسى أن يندم من أخذه ، فيلقيه في التراب ، ولا ينكر مجيئه إلى ذلك المكان ، لكثرة من يجيء لذلك ، فاتفق أن طرح ذلك الشيء المسروق في التراب ، وكانوا يطرحون على كناسته ، فرآه قبل أن يراه المسروق منه ، فأخذ منه كراء الكناسة ! »[45] .

وبليد الطبع يقلب حقائق الأشياء ، أو يتصورها بخياله المريض ، ويفعل الأخطاء على أنها تصحيح لأمور كان ينبغي ألا تكون .

---

(44) الإشكنج : هو قطع الطوب والأجر المكسر ، والكلمة ما زالت مستعملة عند العراقيين ، ولفظها هو بالكاف الفارسية « اشنكنك » .

(45) المصدر السابق ، ص 142 - 143.

ويسخر « الجاحظ » متهكماً من هؤلاء ، فيقول : « قال « الخليل » : . . . وهم ثلاثة إخوة : « أبو قطبة » و « الطيل » و « باني » من ولد « عتاب بن أسيد » : واحد منهم كان يحج عن « حمزة » ، ويقول : استشهد قبل أن يحج . والآخر كان يضحي عن « أبي بكر » و « عمر » ، ويقول : أخطأ السنة في ترك الضحية . وكان الآخر يفطر عن « عائشة » أيام التشريق ، ويقول : غلطت ـ رحمها اللّه ـ في صومها أيام العيد ، فمن صام عن أبيه وأمه ، فأنا أفطر عن عائشة » .

« البخلاء » ص 414.

وبلادة الحس ، والإهمال في أداء الواجب ، قد يصلان بالمرء إلى ترك الواجب إلى من هم أحق الناس ببره وحنوه ومودته يبين « أبو عثمان » ذلك فيقول :

حدثتني امرأة تعرف الأمور ، قالت : كان في الحي مأتم اجتمع فيه عجائز الحي ، فلما رأين أن أهل المأتم قد أقمن المناحة ، واعتزلن وتحدثن ، فبينا هن في حديثهن ، إذ ذكرن بر الأبناء بالأمهات ، وإنفاقهن عليهن ، وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها ، فقالت واحدة منهن : « وأم فيلويه ، ساكتة ، وكانت امرأة صالحة ، وابنها يظهر النسك ، ويدين بالبخل ، وله حانوت في مقبرة « بني حصن » يبيع فيها الأسقاط . قالت :

فأقبلت على « أم فيلويه » ، قالت لها : ما لك لا تحدثين معنا عن ابنك ، كما يتحدثن ؟ وكيف صنع « فيلويه » فيما بينك وبينه ؟ قالت : كان يجري عليّ في كل أضحى درهماً ، ثم قالت : وقد قطعه أيضاً . فقالت لها المرأة : وما كان يجري عليك إلَّا درهماً ؟ قالت : ما كان يجري علي إلا ذاك ، ولقد ربما أدخل أضحى في أضحى . فقالت : فقلت : يا أم « فيلويه » ، وكيف يدخل أضحى في أضحى ؟ قد يقول الناس : إن (فلان) أدخل شهراً في شهر ، ويوماً في يوم ، فأما أضحى في أضحى ، فهذا شيء لابنك ، لا يشركه فيه أحد »[46] .

* * *

(46) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق الحاجري ، ص 114 - 115 . طبع دار المعارف بمصر .

(و) الكذب والمبالغة والادعاء :

الكـذب، والمبالغـة ، والادعاء ، صفـات خـارجـة عن الفـطرة المستقيمـة، والطباع السـوية ، فـالكاذب ، والمبـالغ ، والمـدعي ، مستخفون بعقـل السامـع ، متلاعبون به ، فإذا كان السامع عالماً بحقيقة الأمر ، ثارت حفيظته ، وثأر لكرامته ، في صور مختلفة ـ منها السخرية ـ يكشف قناعه ليوقعـه في شراكـه فتنقلب سخريتـه عليـه ، ويصير هـزأة بين أقرانـه . و « الجـاحظ » يستغـل هـذه الصفـة ، في بعض معاصريه ، فيهجم عليه بحار سخريته ، فيقول :

« إن « أحمد بن الخاركي » كان بخيلاً ، وكـان نفاجـاً ، وهذا أغيظ مـا يكون منـه ، وكان يتخـذ لكل جبـة أربعة أزرار ، ليـرى الناس أن عليـه جبتين ، ويشتري الأعزاق ، والعراجين ، والسعف من الكلأ ، فإذا جاء الجمال إلى بابه تركه ساعة ، يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها . وكان يكتري قدر الخمارين التي تكون للنبيذ ، ثم يتحرى أعظمها ، ويهـرب من الحمالين بـالكراء ، وليس في منزله رطل دبس »[47] .

ومن الكذب المرذول المبالغة الممقوتة ، مما يتخذه « الجاحظ » مجالاً للسخر قول « سليمان » : اطلبوا لها هذه العقرب ، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخـرى في ذلك المكان . فقالت العجوز : قد برئت ، وقد سكن وجعي . . ولا حاجة لي في هذا العلاج . قال : فأتوه بعقرب ، لا واللّه لا يـدري أهي تلك أم غيرهـا ؟ . فأمـر بها ، فأمسكت . فقال : أنشدك اللّه والدين ! وأرسلها عليها فلسعتها ، فغشي عليها ومرضت زمانـاً ، وتساقط شعـر رأسها . فقيـل لـ « سليمان » في ذلـك ، فقال : يـا مجانين ! لا واللّه ، إن رد عليها إلاّ اللسعة الثانية ، ولولا هي لقد كانت ماتت »[48] .

وهذا سخر من الكـذب ، وادعاء العلم ، والمبـالغة فيهمـا ، وانتحال أصحـابها الأسباب والعلل ، ليبرهن أنه صادق وعـالم ، ويقال لـه في ذلك ، مـع ثبوت كـذبه وادعائه من هذا القبيل ما ذكره « الجاحظ » عن « أبي سعيد الرفاعي » حين سئل عن

---

(47) الجاحظ : البخلاء ، جـ 2 ، ص 49 ، تحقيق العوامري ، والجارم . وتحقيق الحاجري ص 125 وما بعدها .
(48) الجاحظ : الحيوان ، جـ 5 ، ص 111

الدنيا الدائسة[49] ، فقال : أما الدنيا فهذه التي أنتم فيها ، وأما الدائسة : فهي دار أخرى بائنة من الدار ، ولم يسمع أهلها بهذه الدار ، ولا بشيء من أمرها ، وكذلك نحن لم نسمع بشيء من أمرها ، إلاَّ أنه قد صح عندنا أن بيوتهم من قثاء ، وسقوفهم من قثاء ، وأنعامهم من قثاء ، وخيلهم من قثاء ، وهم في أنفسهم من قثاء ، وقثاؤهم أيضاً من قثاء .

قالوا له : يا أبا سعيد ، زعمت أن أهل تلك الدار لم يسمعوا بهذه الدار ، ولا بشيء من أمرها ، وكذلك نحن لهم ، وأراك تخبرنا عنهم بأخبار كثيرة . قال : فمن ثم أعجب زيادة »[50] .

ومن الادعاء الكاذب ، والهازل أيضاً ، ما ذكره « الجاحظ » : « أنه سمع رجلاً يقول لآخر : ضربنا الساعة زنديقاً . فقال « الجاحظ » وأي شيء الزنديق ؟ قال الرجل : هو الذي يقطع المزيقة . قال له « الجاحظ » : وكيف علمت أنه يقطع المزيقة ؟. قال الرجل : رأيته يأكل التين بالخل »[51] .

ومن المبالغة التي تثير السخرية ، ادعاء شخص بأنه لديه بصراً وعلماً بالأشياء ، وهو ليس كذلك .

يحكي « الجاحظ » عن « المكي » أنه ادعى البصر بالبراذين ، ونظر إلى برذون واقف قد ألقى صاحبه في فيه اللجام فرأى فأس اللجام[52] ، وأين بلغ منه ؟ فقال : لي العجب ! كيف لا يذرعه القيء ، وأنا لو أدخلت إصبعي الصغرى في حلقي لما بقي في جوفي شيء إلاَّ خرج ! قلت : الآن علمت أنك تبصر ، ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل علي فقال لي : كيف لا يبرد أسنانه ؟ قلت : إنما يكون علم هذا عند البصراء مثلك . ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة سال لعابه على الأرض ، فأقبل علي وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق عقلاً لكان ذهنه قد

---

(49) الدائسة : كلمة لا أصل لها ، وإنما تندر سائله بهذا اللفظ ، ليستخرج منه ما يضحك .

(50) الجاحظ : البيان والتبيين تحقيق ، « عبد السلام هارون » جـ 2 ، ص 344 ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1948م .

(51) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 2 ، ص 178.

(52) فأس اللجام : الحديدة القائمة في الحنك .

صفا ، قلت له : قد كنت أشك في بصرك بالدواب ، فأما بعد هذا فلست أشك فيه ! »[53] .

وحكى « الجاحظ » ، أيضاً عن « المكي » : « وقلت له مرة ونحن في طريق « بغداد » : ما بال الفرسخ في هذه الطريق يكون فرسخين ؟ والفرسخ يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ؟ ففكر طويلاً ، ثم قال : كان « كسرى » يقطع للناس الفراسخ ، فإذا صانع صاحب القطيعة زادوه ، وإذا لم يصانع نقصوه »[54] .

كما حكى عنه ـ « المكي » ـ أيضاً : « وقلت له مرة : علمت أن « الشاري »[55] حدثني أن المخلوع[56] بعث إلى « المأمون » بجراب فيه سمسم ، كأنه يخبر أن عنده من الجند بعدد ذلك الحب ، وأن « المأمون » بعث إليه بديك أعور ـ يريد أن « طاهر بن الحسين »[57] يقتل هؤلاء كلهم ، كما يلقط الديك الحب . قال : فإن هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار في الآفاق .

(ويقول « الجاحظ » معلقاً على ذلك) : » وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة [58] .

والمبالغون الكذابون يخترعون ، من وحي خيالهم ، الحجج التي تدفع ـ في نظرهم ـ كذبهم ، ولكن هذا لا يخفى على ذوي المدارك الصحيحة ، والعقول النيّرة .

تحدث « الجاحظ » عن « إبراهيم بن هانىء »[59] ، فقال : « . . وكان

---

(53) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 3 ، ص 326 ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده .

(54) المصدر السابق : جـ 3 ، ص 327.

(55) وفي بعض النسخ « السياري » .

(56) المخلوع : هو « محمد الأمين بن هارون الرشيد » ، وهو أخو المأمون .

(57) « طاهر بن الحسين » : كان الساعد الأيمن للمأمون ، ولما خلع « المأمون » بيعة أخيه « الأمين » أرسل « طاهراً » إلى محاربته ، فوجه « الأمين » ، « علي بن عيسى » لملاقاة « طاهر » ، فلقاه بـ (الري) فقتله (طاهر) سنة 195هـ ، وتقدم (طاهر) إلى (بغداد) ، وأخذ ما في طريقه من البلاد ، وحاصر « بغداد » و « الأمين » بها فقتله 198هـ ، وحمل رأسه إلى « خرسان » ووضعه بين يدي « المأمون » ، وعقد للمأمون على الخلافة .

ولد « طاهر » سنة 159هـ ، توفي سنة 207هـ ، وكانت له عين واحدة ، ففي ذلك يقول « عمرو بن بانة » :

يا ذا اليمينين وعين واحدة   نقصان عين ويمين زائدة

(58) الجاحظ : « الحيوان » تحقيق « عبد السلام هارون » جـ 3 ، ص 327 .

(59) كان ماجناً ، خليعاً ، كثير العبث ، متمرداً .

« إبراهيم بن هانىء » لا يقيم شعراً ، ولا أدري كيف أقام هذا البيت . وكان يدعي بحضرة « أبي إسحاق » (النظام) علم الحساب ، والكلام ، والهندسة ، واللحون ، وأنه يقول الشعر فقال له « أبو إسحاق » : نحن لم نمتحنك في هذه الأمور فإن لك أن تدعيها عندنا ، كيف صرت تدعي قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ؟! قال : فإني هكذا طبعت ، أن أقيمه إذا قلت ، وأكسره إذا أنشدت ؟ قال « أبو إسحاق » : ما بعد هذا الكلام كلام »[60] .

ومن الادعاء الذي يعري صاحبه أن يقف المرء موقفاً لا يستطيعه ، ما ذكره « الجاحظ » ساخراً من ذلك الخطيب الغبي ، قال : « خطب « مصعب بن حيان » خطبة زواج ، فحصر ، فقال : لقنوا موتاكم قول « لا إلّه إلّا اللّه » ، فقالت « أم العريس » : عجل اللّه موتك ! ألهذا دعوناك ؟! »[61] .

ومن هذا القبيل ما حكاه « الجاحظ » ، أيضاً ، قال : « خطب « عتاب بن ورقاء » ، فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال اللّه تبارك وتعالى :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول[62]

(ز) الخوف والجبن :

يضطرب الجبان لوقوع أقدامه ، ويفرق جبينه حين يرى ظله ، وتطير نفسه شعاعاً لتخيله أشياء لا حقيقة لوجودها ، أو لتهويله التافه من الأمور ، فيخال الفأر فيلاً ، والهر نمراً ، والكلب لصاً ، وهذا التصرف يكون محل نقد ، ومجال تهكم وهزء.

ويزداد السخر إذا نسبته إلى من تظن الشجاعة صفة أصيلة فيه . يقول : « الجاحظ » ، في كتاب « الحيوان » : قال « بشر بن سعيد » : كان بالبصرة شيخ من بني نهشل ، يقال له « عروة بن مرثد » ، نزل ببني أخت له في سكة « بني مازن » -

---

(60) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 3 ، ص 110.

(61) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 2 ، ص 250 (تحقيق « عبد السلام هارون ») .

(62) جر الذيول : التبختر .

وبنـو أخته من (قـريش) ـ فخرج رجـالهم إلى ضياعهم، وذلـك في شهـر رمضـان، وبقيت النساء يصلين في مسجدهِنَّ، فلم يبق في الدار إلَّا كلب يعس، فرأى بيتاً فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء ، فظنوا أن لصاً دخـل الدار ، فذهبت إحداهن إلى « أبي الأعز » ـ وليس في الحي رجل غيره ـ فأخبرته . فقال « أبو الأعز » : ما يبتغي اللص منا ؟! ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملأمان ، أما واللَّه ، إنك بي لعارف ، وإني بـك أيضاً لعـارف ، فهل أنت إلَّا من لصوص «بني مازن»؟ شربت حامضاً خبيثاً، حتى إذا دارت الأقـداح في رأسـك ، منتك نفسـك الأماني ، وقلت : دور « بني عمـرو » ، والرجـال خلوف ، والنسـاء يصلين في مسجدهن ، فـأسرقهن ! سـوءة واللَّه ، ما يفعـل هذا الأحـرار ! لبئس ، واللَّه ، مـا فعلت نفسك ! فـاخـرج ، وإلَّا دخلت عليـك ، فصـرمتـك مني العقوبة ! لأيم اللَّه ، لتخرجن ، أو لأهتفن هتفة مشؤومة عليك يلتقي فيهـا الحيان ـ «عمـرو» و«حنـظلة» ـ ويصيـر أمـرك إلى تبـاب، ويجيـيء «سعـد» بعـــدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من ها هنا وهـا هنا ! ولئن قلت لتكـونن أشأم مـولود في « بني تميم » ! فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين ، وقال : اخرج يا بني ، وأنت مستـور ، إني ، واللَّه ، ما أراك تعرفني ، ولـو عرفتني لقـد قنعت بقولي ، واطمـأننت إلي أنا « عروة بن مرشد أبو الأعز المرثدي » ، وأنا خال القوم ، وجلدة مـا بين أعينهم ، لا يعصونني في أمر ، وأنا لك بالذمة كفيل حفير ، أصيرك بين شحمة أذني وعاتقي ، لا تضار ، فاخرج ، فأنت في ذمتي ، وإلَّا فـإن عندي قـوصرتين ـ إحـداهما ـ إلى ابن أختي البار الوصول ، فخذ إحداهما ، فانتبذها حلالاً من اللَّه تعالى ورسوله (صلى اللَّه عليـه وسلم) وكان الكلب إذا سمـع الكلام أطـرق ، وإذا سكت وثب ، يـريـغ المخرج ، فتهافت الأعرابي ، أي تساقط ، ثم قال : يا ألام الناس وأوضعهم ألا يأنى لـك أنـا ، منـذ الليلة في واد ، وأنت في آخـر ؟! إذا قلت لـك السـوداء والبيضـــاء تسكت ، وتـطرق ، فإذا سكت عنـك تريـغ المخرج ؟! واللَّه ، لتخـرجن ، بالعفـو عنك ، أو لألجن عليك البيت بالعقوبة ! . فلما طال وقوفه ، جاءت جـارية من إمـاء الحي ، فقالت : أعرابي مجنون ، واللَّه ، ما أدري في البيت شيئاً ! ودفعت الباب ، فخـرج الكلب شداً ، وحـاد عنه « أبـو الأعز » مستلقيـاً ، وقال : الحمـد للَّه الـذي مسخك كلباً ، وكفاني منك حرباً ! ثم قـال : تاللَّه ، مـا رأيت كالليلة ، مـا أراه إلَّا

كلباً ! أما واللّه ، لو علمت بحاله لولجت عليه »[63] .

3 ـ القصور العقلي :

سخر « الجاحظ » من القصور العقلي وما ينضوي تحته من الحمق ، والجهل ، والغفلة ، والخرافة ، والخلط ، والتناقض . . . ، سخر من ضعاف العقول ، الذين يظهرون بمظهر العقلاء والحكماء . قال : « كان بالكوفة امرأة رعناء يقال لها «مجيبة» ، فقصد «بهلولاً»[64] فتى ، كانت «مجيبة» أرضعته ، فقال لها «بهلول» : كيف لا تكون أرعن وقد أرضعتك مجيبة ؟ فواللّه ، لقد كانت تزق لي الفرخ ، فأرى الرعونة في طيرانه »[65] .

وقال « الجاحظ » : « قال « أبو الحسن » : دعا بعض السلاطين مجنونين ليحركهما ، فيضحك مما يجيء منهما . فلما أسمعاه ، وأسمعهما ، غضب ودعا بالسيف ، فقال أحدهما لصاحبه : كنا مجنونين ، فصرنا ثلاثة »[66] .

وذكر « الجاحظ » أن « عمران بن عثمان »[67] قال : « شيعت « عبد العزيز بن المطلب المخزومي »[68] وهو قاضي (مكة) ، إلى منزله ، وبباب المسجد مجنونة تصفق وتقول :

---

(63) الجاحظ : الحيوان تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 2 ، ص 231 - 233 . ومثله عند : ابن قتيبة الدينوري عيون الأخبار ، جـ 1 ، ص 167 - 168 .

(يعس طاف ليلاً . الملأمان : اللئيم . صارمة : قاطعة شديدة . جلدة ما بين أعينهم : أي مثلها في مكان العز والقرب .

القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر . يريغ : يريد .

تهافت ، وتساقط : تخاذل ودب فيه الضعف) .

(64) بهلول : أعقل المجانين في عصره (العصر العباسي) .

(65) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 2 ، ص 231 .

(66) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 2 ، ص 231.

(67) هو أبو حفص عمران بن عثمان بن عمر بن موسى التيمي ، المدني ، كان من وجوه قريش وبلغائها ، وفصحائها وعلمائها ، ولاه « الرشيد » القضاء بالبصرة فخرج حاجاً ، وأقام بالمدينة ، فلم يزل بها حتى مات (تهذيب التهذيب)

(68) هو عبد العزيز بن عبد المطلب بن عبد اللّه بن حقطب المخزومي ، المدني ، كان جواداً ذا معرفة بالقضاء والحكم ، ولي قضاء المدينة في زمن « المنصور » ثم « المهدي » ، وولي قضاء (مكة) . (تهذيب التهذيب) .

أرق عيني ضـراط القاضي هذا المقيم، ليس ذاك الماضي

فقال : يا أبا حفص ! أتراها تعني قاضي (مكة) ؟ »[69] .

وقال « الجاحظ » : « كان عندنا قاض يقال له : « أبو موسى كوش » ، فأخذ ، يوماً ، في ذكر قصر الدنيا ، وطول أيام الآخرة ، فقال : هذا الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً ، وعليه فضل سنتين ! قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : خمس وعشرون سنة ليل ، هو فيها لا يعقل قليلاً ولا كثيراً ، وخمس سنين قائلة ، وعشرون سنة ـ إما أن يكون صبياً ، وإما أن يكون معه سكر الشباب ، فهو لا يعقل ، ولا بد صبحة بالغداة ، ونعسة بين المغرب والعشاء ، وكالغشي الذي يصيب الإنسان مراراً في دهره وغير ذلك من الآفات . فإذا حصلنا ذلك ، فقد صح أن الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً وعليه فضل سنتين »[70] .

وقال « الجاحظ » : قال « أبو الحسن » : « جاء رجل إلى رجل من وجوه القوم ، فقال : أنا جارك ، وقد مات أخي ، فمر لي بكفن . قال : لا والله ، ما عندي اليوم شيء ، ولكن تعهدنا ، وتعود بعد أيام ، فسيكون ما تحب . قال : أصلحك الله ! فنؤجله ، إلى أن يتيسر عندكم شيء ؟! »[71]

وروى « الجاحظ » قال : « دخلت « واسط » ، فبكرت يوم الجمعة إلى الجامع ، فقعدت ، فرأيت على رجل لحية لم أر أكبر منها ، وإذا هو يقول لآخر : وما السنة ؟ قال : حب أبي بكر بن عفان ، وعثمان الفاروق ، وعمر الصديق ، وعلي بن أبي سفيان ، ومعاوية بن أبي شيبان . قال: ومن معاوية بن أبي شيبان ؟ قال : رجل صالح من حملة العرش وكاتب النبي صلى الله عليه وسلم ، وختنه على ابنته عائشة »[72] .

وحدث « الجاحظ » ، قال : « أخبرني « أبو العنبس » قال : كان رجل طويل

---

(69) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 2 ، ص 231 - 232.

(70) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 4 ، ص 26 (والقائلة : النوم في الظهيرة . والصبحة : النوم في الغداة) .

(71) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 4 ، ص 11.

(72) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 178 ، المكتب التجاري ، بيروت .

اللحية ، أحمق ، جارنا ، وكان أقام بمسجد المحلة يعمره ، ويؤذن فيه ويصلي ، وكان يعتمد السور الطوال ويصلي بها ، فصلى ليلة بهم العشاء ، فطول ، فضجوا منه ، وقالوا : اعتزل مسجدنا ، حتى نقيم غيرك ، فإنك تطول في صلاتك ، وخلفك الضعيف وذو الحاجة . فقال : لا أطول بعد ذلك . فتركوه . فلما كان من الغد ، أقام ، وتقدم ، فكبر ، وقرأ: «الحمد . . .» ، ثم فكر طويلاً وصاح فيهم: «أيش تقولون في عبس ؟ » . فلم يكلمه أحد ، إلّا شيخ أطول لحية منه ، وأقل عقلاً ، فإنه قال : كيسة ، مر فيها »[73] .

وأخبر « الجاحظ » عن « يحيى بن جعفر » ، قال : كان لي جار من أهل فارس ، وكان بلحية ما رأيت أطول منها قط وكان طول الليل يبكي ، فأنبنى ذات ليلة ببكائه ونحيبه ، وهو يشهق ، ويضرب على رأسه وصدره ، ويردد آية من كتاب اللّٰه تعالى . فلما رأيت ما نزل به ، قلت : لأسمعن هذه الآية ، التي قتلت هذا ، وأذهبت نومي . فتسمعت عليه ، فإذا الآية : ﴿ **يسألونك عن المحيض قل هو أذى** . . . ﴾[74] فعلمت أن طول اللحية لا يخلف »[75] .

وروى « الجاحظ » ، فقال : « أخبرني « النظام » ، قال : مررت بناحية باب الشام ، فرأيت شيخاً قاعداً على باب داره ، وبين يديه حصى ونوى ، وهو يسبّح ويعد بهما ويقول : حسبي اللّٰه ، حسبي اللّٰه . فقلت : يا عم ! ليس هذا هو التسبيح . قال : كيف هو التسبيح عندك ؟ . قلت : سبحان اللّٰه ؟ قال : يا أحمق ، هذا تسبيح تعلمته بـ « عبادان » منذ ستين سنة ، أسبّح به ، فأتركه لقولك يا جاهل »؟ . »[76] .

وقال « الجاحظ » : « رأيت « أبا محمد السيرافي »[77] ، وكان طويل اللحية ، يدعو ربه ، وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول : يا منقذ الموتى ، ومنجي الغرقى ، وقابل التوبات ، وراحم العثرات ، أنت تجد من ترحمه غيري وأنا لا أجد

---

(73) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ص 112.

(74) البقرة : الآية 222.

(75) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 137

(76) المصدر السابق : ص 138.

(77) السيرافي : أبو محمد السيرافي ، أحد الذين تندر بهم « الجاحظ » .

من يعذبني سواك »[78] .

وحدث « الجاحظ »، فقال : « رأيت « أبا سعيد البصري » يدعو ربه، وكان طويل اللحية أحمق ، وهو يقول : يا رباه ! يا سيداه ! يا مولاه ! يا جبرائيل ! يا إسرافيل[79] ! يا ميكائيل[80] ! يا كعب الأحبار[81] ! يا أويس القرني[82] ! ، بحق محمد و « جرجيس » عليك ، أرخص أمتك على الدقيق »[83] .

وسخر من هيئة جاره وحمقه ، فقال : « كان لنا جار مغفل جداً ، وكان طويل اللحية ، فقالت له امرأته : من حمقتك طالت لحيتك . فقال : من عَيّر عُيّر »[84] .

وقد رأى هذا الجار على بابه قذراً ، فقال : هذا الذي قذر خلفنا ، إن كان صادقاً فليتقذر في وجوهنا حتى نعلم »[85] .

وولد لهذا الجار نفسه ولد ، فقيل له : « ما تسميه ؟ فقال : « عمر بن عبد العزيز » . وهنؤوه به ، فقال : إنما هو من اللّه ومنكم ! »[86] .

ومن ألوان السخف والقصور العقلي التي حفل بها أدب « الجاحظ » ونالت قسطاً وفيراً من عبثه وسخره ، وعقد لها الأبواب والفصول في كتبه .

الجهل والغفلة :

إن الجاهل والغافل يسيران ضد المنطق وواقع الحياة لا يعرفان من أمرها شيئاً ،

---

(78) المصدر السابق : ص 138 .

(79) إسرافيل : الملاك الموكل بالنفخ في الصور للبعث والحساب .

(80) ميكائيل : الملاك الموكل بالمطر والأرزاق .

(81) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق ، تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، أسلم في زمن « أبي بكر » ، وقدم المدينة في دولة « عمر » ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة . وأخذ من الكتاب والفقه عن الصحابة ، وخرج إلى الشام ، فسكن حمص ، وتوفي فيها سنة 32هـ عن مائة وأربع سنين (راجع الزركلي : الأعلام ، جـ 6 ص 85) .

(82) هو أويس بن عامر القرني ، أحد النساك العباد المقدمين ، من سادات التابعين ، أصله من اليمن ، كان يسكن القفار والرمال وأدرك حياة (النبي صلى اللّه عليه وسلم) ولم يره . وفد على عمر بن الخطاب ، ثم سكن الكوفة ، وشهد وقعة (صفين) مع علي ، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها توفي سنة 37هـ.

(83) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 138 .

(84) ، (85) ، (86) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ص 145 .

ولا يفرقان بين الضار والنافع ، وقد يفعل أحدهما الشيء يعتقد أنه خير ، والحق أنه شر صراع ، وقد يلقي الكلمة يرى أنه بهـا أستاذ الأسـاتذة ، فـإذا بها بـرهان سفهـه وعنـوان جهله ودليل غفلتـه ، وذلك مـا يغري بـالتهكم ، ويـدفـع إلى السخـريـة ، إذْ : «الشخصية تكون مضحكة على قدر ما تجهل نفسها تماماً»[87] .

فأحوالهم تدعو إلى العجب ، وتدفع إلى السخر ، فمنهم من يعتقد أن « الفأرة من خلق اللّه ، وأن السنور من خلق الشيطان »[88] .

ويسخر « الجاحظ » من هؤلاء ، فيقول : « فإذا قيل له كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة : تجذب فتيلة المصبـاح فتحرق بـذلك البيت ، والقبـائل الكثيـرة ، والمدن العظام ، والأرباض الـواسعة بمـا فيها من النـاس ، والحيوان ، والأمـوال ، وتقرض دفـاتر العلم وكتب اللّه ، ودقـائق الحساب ، والصكـاك (الـوثـائق) ، والشـروط ، وتقرض الثياب ، وربما طلبت القطن لتأكل بزره فتدفـع اللحاف غـربالاً ، وتقـرض الجرب (وعاء زاد المسافر) وأوكية الأسقية والأزقاق والقرب فتخرج جميع ما فيها ، وتقع في الآنية وفي البئر فتموت فيه وتحوج الناس إلى مُؤيدٍ عظام ، وربمـا عضت رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضتها ، والفأر « بخرسان »[89] ربمـا قطعت أذن الـرجل وجـرذان (أنطاكية) تعجز عنهـا السنانيـر ، وقد جـلا عنها قـوم ، وكرههـا آخرون ، لمكان جرذانها ، وهي التي فجرت المسناة (السد) حتى كان ذلك سبب الحسر (نضوب الماء) بأرض (سبأ) وهي المضروب بها المثل ، ومسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب. . . وتقتـل النخلة والغيلة (النخلة الصغيرة)، وتخـرب الضيعة ، وتأتي على أزمة الركاب والخَطم (جمع خطام ، وهو ما يقاد به البعير) . وغير ذلك من الأموال .

والناس ربما اجتلبوا السنانير ، ليدفعوا بها بوائق (دواهي) الفأر ! فكيف صار

---

(87) هنري برجسون : الضحك ، ترجمة « سامي الدروبي » و « عبد اللّه عبد الدايم » .

(88) الجاحظ : الحيوان ، جـ 4 ، ص 298 ، تحقيق « عبد السلام هارون » مطبعة مصطفى البابي الحلبي 1940م ، الطبعة الأولى .

(89) خراسان : كبرى مدن فارس ، تتبعها عدة مدن أخرى مثل « مرو » وقد سبق الحديث عنها في هـامش (14) من هذا الفصل .

خلق الفأر المفسد من الله ، وخلق النافع من الضرر ، من خلق الشيطان ؟! »[90] .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره « الجاحظ » : « أمليت مرة على إنسان : « عمراً » ، فاستملى : « ستراً » ، وكتب : « زيداً » !»[91] .

وسخر من جهل الأئمة وغفلتهم ، فقال : « تقدم إمام فصلى ، فلما قرأ « الحمد . . . » ، افتتح بسورة « يوسف » ، فانصرف القوم وتركوه ، فلما أحس بانصرافهم قال : سبحان الله ، ﴿ **قل هو الله أحد** . . ﴾ ، فرجعوا فصلوا معه »[92] . و : « . . قرأ إمام في صلاته : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ ، فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ **فأين تذهبون ؟** ﴾ ، ارتج عليه ، وجعل يردد حتى كادت تطلع الشمس ، وكان خلفه رجل معه جراب ، فضرب به رأس الإمام ، وقال : « أما أنا فأذهب ، وهؤلاء لا أدري إلى أين يذهبون ! . »[93] .

وتهكم من جهل القصاص ، فقال : « قال أبو كعب القاص في قصصه : كان اسم الذئب الذي أكل « يوسف » (حجونا) ، فقالوا له : فإن « يوسف » لم يأكله الذئب قال : فهو اسم الذئب الذي لم يأكل « يوسف »[94] ! .

ومن ذلك ما رواه عن بعض الشعراء ساخراً :

أنشد في بعض الحمقى :

إن داء الحب سقيم ليس يهنيه القرار
ونجا من كان لا يعـ ـشق من تلك المخازي

فقلت : إن القافية الأولى راء ، والثانية زاي . فقال : لا تنقط شيئاً . فقلت : إن الأولى مرفوعة ، والثانية مكسورة . فقال : « أنا أقول تنقط ، وهو يشكل ؟ »[95] .

---

(90) الجاحظ : الحيوان ، جـ 4 ، ص 298 - 299 (تحقيق « عبد السلام هارون ») ، ط الحلبي ، 1940م ـ القاهرة .

(91) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 89

(92) ، (93) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 112 ط بيروت .

(94) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 133

(95) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص 128 .

ولم ينج المعلمون من سخريات « الجاحظ » اللاذعة ، وتهكماته المؤلمة . قال : « كان « ابن شبرمة » لا يقبل شهادة المعلمين ، وكان بعض الفقهاء يقول : النساء أعدل شهادة من معلم »[96].

ويقول : « قلت لبعض المعلمين : ما لي لا أرى لك عصاً ؟ » . قال : لا أحتاج إليها ، إنما أقول لمن يرفع صوته « أمه زانية » فيرفعون أصواتهم ، وهذا أبلغ من العصاة وأسلم »[97] .

وقال ساخراً : « قلت لمعلم : لم تضرب غلمانك من غير جرم ؟ قال : جرمهم أعظم الأجرام ، يدعون لي أن أحج ، وإن حججت تفرقوا في المكاتب ، فمتى أحج ؟ أنا مجنون ؟! » [98].

ويمضي في سخرياته من المعلمين ، فيقول : « أتت امرأة إلى معلم بابن لها ، وكان المعلم طويل اللحية، فقالت: إن هذا الصبي لا يطيعني، أحب أن تفزعه. فأخذ المعلم لحيته ، وألقاها في فمه ، وحرك رأسه ، وصاح صيحة ، فضرطت المرأة من الفزع ، وقالت : إنما قلت فزع الصبي ، ليس إياي . فقال لها : مري يا حمقاء ، إن العذاب إذا نزل هلك الصالح والطالح »[99] .

وحكى عن معلم رآه بالكوفة ، قال : « من أعجب ما رأيت معلم بالكوفة ، وهو شيخ ، جالس ناحية عن الصبيان يبكي ، فقلت له : يا عم ، مم تبكي ؟ قال : سرق الصبيان خبزي »[100] .

وقيل : إن معلماً جاء إلى « الجاحظ » ، فقال : أنت الذي صنعت كتاب المعلمين تعيبهم ؟ قال : نعم ، وذكرت فيه أن بعض المعلمين جاء إلى الصياد ، وقال : إيش تصطاد : طرياً ، أم مالحاً ؟ . قال : نعم . قال : ذلك أبله ، ولو كان فيه ذكاء ، كان يقف فينظر : « إن خرج طري علم ، أو خرج مالح علم »[101] .

---

(96) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 140.

(97) ، (98) المصدر السابق ص 141.

(99) الشريشي : شرح المقامات الحريرية . والقصة بهامش أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ، ص 142 .

(100) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 143

(101) المصدر نفسه : ص 142.

وقال : « مررت بمعلم وصبيانه يتصافعون ، وبعضهم يصفع المعلم فقلت له : ما هذا ؟ . قال : يكون لي عليهم دين . فقلت له : ينسى ويقضى ؟ لا أراه يحصل شيئاً »[102] .

وشبيه بهذا ما رواه « الجاحظ » أيضاً : « مررت بمعلم صبيان وهو جالس وحده ، وليس عنده صبيانه ، فقلت له : ما فعل صبيانك ؟ قال : ذهبوا يتصافعون . فقلت: اذهب وانظر إليهم؟ فقال: إن كان ولا بد، فغطِّ رأسك، لئلا يحسبوك أنا ، فيصفعوك حتى تعمى ؟ »[103].

ويقول : « رأيت معلماً قد جاءه غلامان ، قد تعلق كل واحد منهما بالآخر ، فقال : يا معلم ، هذا عض أذني . فقال : ما عضضتها ، وإنما عض أذن نفسه . فقال : يا ابن الخبيثة ! أجمل حتى يعض أذن نفسه ؟! »[104].

ويستمر سخره من المعلمين ، فيقول : « مررت بمعلم ، وقد كتب لغلام : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني ، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ـ وأكيد كيداً ـ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً . فقلت : ويحك ! لقد أدخلت سورة في سورة . قال : نعم ، إذا كان أبوه يدخل شهراً في شهر ، فأنا أيضاً أدخل سورة في سورة فلا آخذ شيئاً ولا ابنه يتعلم شيئاً »[105] .

وقد حكى « الجاحظ » أنه ألف كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من التفضيل ، ثم رجع عن ذلك ، وعزم على تقطيع ذلك الكتاب ، قال : « دخلت يوماً ، مدينة ، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد علي أحسن رد ، ورحب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا واللّه مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب » .

قال « الجاحظ » : فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده ، فسألت عنه ، فقيل : مات له ميت ، فحزن عليه ، وجلس في بيته للعزاء .

---

(102) المصدر نفسه : ص 142 . وأيضاً (103) و (104) و (105) ص 142.

فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إليّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك . فدخلت ، وخرجت ، وقالت : باسم اللّه !. فدخلت إليه ، وإذا به جالس ، فقلت : « عظم اللّه أجرك ! لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة ! كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر » . ثم قلت له : هذا الذي توفي ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذا أول المناحس ! فقلت : سبحان اللّه ! النساء كثير ، وستجد غيرها . فقال : أتظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية ! ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت رجلاً عليه برد ، وهو يقول :

يا أم عمرو، جزاك اللّه مكرمة ... رد علي فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به ... فكيف يلعب بالإنسان إنساناً؟

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمر ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت إنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار . فقلت : يا هذا ! إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم ـ معشر المعلمين ـ ، وكنت ـ حين صاحبتك ـ عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ ، أبدأ بك إن شاء اللّه تعالى ! »[106] .

* * *

وكانت الخرافات والأباطيل ، واللعب بعقول الناس ، يمثل ما يقوله المشعوذون ، مصدراً من مصادر السخرية ، وموضوعاً جيداً من موضوعاته ، فلم يهمل ذلك في كتاباته ، قال : « وقد زعم صاحب المنطق (أرسطو) أنه ظهرت حية

---

(106) الجاحظ : مجموعة رسائل الجاحظ ، رسالته عن المعلمين .

لها رأسان . فسألت أعرابياً عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق . فقلت له : من أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض فقال : فأما السعي فلا سعي ، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغذى بفم ، وأما العض فإنها تعض برأسيها عنها ، فإذا به أكذب البرية ، وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها ، وفي تهويل أمرها »[107] .

فقال ساخراً من بعض معتقدات علماء الطب في زمنه : « خبرني « ثمامة » عن أمير المؤمنين « المأمون » ، أنه قال : قال لي « نجتيشوع بن جبريل » و « سلمويه » و « ابن ماسويه » : إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ، فلسعني زنبور ، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن إلّا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج ، فلم يبق في يدي منهم إلّا أن يقولوا : كان هذا الزنبور حنقاً قاضياً ، ولولا هذا العلاج لقتلك »[108] .

وقد تهكم ببعض المفسرين في دعواهم الباطلة عند تفسير بعض الآيات : « قالوا ، في قوله تعالى : ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم* طلعها كأنها رؤوس الشياطين** ﴾ : فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ، تمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى إلّا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم »[109] . .

وعرض لما زعمه « واثلة بن إياس بن معاوية » فيما روي عنه ، أنه : « زعم أن من الدليل على أن الشبوط (نوع من السمك) كالبغل ، أن الناس لم يجدوا ، في طول ما أكلوا الشبابيط ، في جوفها بيضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة ، صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً »[110] .

---

(107) الجاحظ : الحيوان ، جـ 4 ، ص 348 (طبعة ساسي ، القاهرة) .
(108) الجاحظ : الحيوان ، جـ 5 ، ص 36 (تحقيق عبد السلام هارون) .
(109) المصدر نفسه ، جـ 1 ، ص 149
(110) الجاحظ : الحيوان ، جـ 1 ، ص 15 (طبعة ساسي) .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره ، قائلاً : « . . ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب ، وذلك أنهم يزعمون : أن النمرة لا تضع ولدها أبداً ، إلاَّ وهو متطوق بـأفعى ، وأنها تعيش وتنهش ، إلاَّ أنهـا لا تقتل . . . قـال : ولـو كنت أفسـر ، في كتبي ، على تكذيب العلماء ودراس الكتب ، لبدأت بصاحب هذا الخبر »[111] .

وقد عرض علينا نموذجاً لأولئك الذين يتلاعبون بعقول الناس ، قائلاً : « كان عندنا نصراني في عنقه صليب ، وكان يقول لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التي كان المسيح صلب عليها ، والنار لا تعمـل فيه ، فكـان يكتسب بذلـك ، حتى فطن له ، وعورض بهذا العود »[112] .

ومن الخرافات التي سخر منها زعمهم ، « أن الضبع يكون عـاماً ذكـراً وعامـاً أنثى . . »[113] .

* * *

وقد يحدث من ضعاف العقول تخليط مركب ، فيكون مدعاة للسخر والتهكم . يقول « الجاحظ » : « سئل رجل عن مولده ، فقال : ولدت رأس الهـلال ، للنصف من رمضان ، بعد العيد بثلاثة أيام ، فاحسبوا الآن كيف شئتم »[114] .

وروى « الجاحظ » : « قال « عياش بن القاسم » لـ « أبي عبـد الملك » الذي كان يقال له عناق : بأي شيء تزعمون أن « أبا علي الأسواري »[115] أفضل من « سلام أبي المنذر »[116] ؟ (من أصحاب القراءات غير السبع) . قال : لأنه لما مات « سلام

---

(111) الجاحظ : الحيوان ، جـ 2 ، ص 402 (طبعة ساسي) .

(112) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 402.

(113) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 403.

(114) الجاحظ البيان والتبيين : جـ 4 ، ص 15.

(115) أبو علي الأسواري : شخص معاصر للجاحظ ، صوره أبو عثمان أكولاً شرهاً نهماً وقد كان ممن يصطنعون القصص (وهو غير علي بن خالد الأسواري ، الذي جاء اسمه في رسالة « التربيع والتدوير » ، وكان متكلماً من متكلمي المعتزلة) .
(انظر : البخلاء ص 331 ، 332) .

(116) سلام أبو المنذر : قارىء حافظ ، فقيه ، محدث ، من أصحاب القراءات غير السبع .

أبو المنذر » ذهب « أبو علي » في جنازته ، فلما مات « أبو علي » لم يذهب « سلام في جنازته »[117] .

وحكي أن « أبا شيبان » ، لما خرج للحج بكى أبناؤه حوله ، فقال : « لا تبكوا يا بني ، فإني أريد أن أضحي عندكم »[118] .

ومن صور القصور العقلي : **التناقض** .

كأن يقول الشخص كلاماً ينقض آخره أوله . يقول «برجسون» : «كل موقف يُضحك إذا انتسب ـ في الوقت نفسه ـ إلى سلسلتين من الحوادث مستقلتين استقلالاً تاماً ، وأمكن أن يفسر في آن واحد ، بمعنيين متغايرين كل التغاير »[119] .

روى « الجاحظ » : « أن رجلاً من أهل السواد يتشيع وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له : بلغني أنك تبغض علياً ، واللّه لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك . فقال : والحوض في يده يوم القيامة ؟ . فقال : نعم . فقال: وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالعطش ؟! فقيل له : أتقول هذا ، مع تشيعك ودينك ؟ . فقال : واللّه ، لا تركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة ؟ »[120] .

* * *

4 ـ التحايل والخداع :

يلجأ بعض الناس إلى الحيلة ، لتحقيق ما يهدفون إليه ، متخذين شتى الوسائل والأساليب ، مما جعل «أبا عثمان » يعرض صوراً لهم ، كاشفاً أقنعتهم ، في أسلوب مرح ساخر ، وفنية عذبة رائعة .

يقول في قصة « الكندي » : « حدثني « عمرو بن نهيوي » ، قال : كان

---

(117) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 2 ، ص 234.

(118) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 4 ، ص 15 .

(119) هنري برجسون : الضحك ، ص 70 ، مصر .

(120) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 463.

« الكندي » لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار ، إن في الدار امرأة بها حمل ، والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها بغرفة ، أو لعقة ، فإن النفس يردها اليسير ، فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك ، فكفارتك ، إن أسقطت ، غرة عبد أو أمة ، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت . قال : فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السكان والجيران ، ما يكفيه الأيام ، وكان أكثرهم يفطن ، ويتغافل .

وكان « الكندي » يقول لعياله : « أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع ، إنما لكل بيت منهم لون واحد ، وعندكم ألوان »[121] .

* * *

٥ ـ التلاعب بالألفاظ :

قد يكون السخر من التلاعب بالألفاظ ، بإبدال الحروف ، كما ذكر « الجاحظ » حين أتى منزل صديق له : « . . . فطرقت الباب ، فخرجت إلي جارية سندية ، فقلت لها : قولي لسيدك « الجاحظ » بالباب » فقالت : أقول : « الجاحد بالباب » ؟! قلت : لا ، بل قولي « الحدقي بالباب » . فقالت : أقول « الحلقي بالباب » ؟ . فقلت لها : « لا تقولي شيئاً ! وانصرفت »[122] .

وقد يكون السخر من التلاعب بالألفاظ عن طريق إبدال الكلمات عن مواضعها . قال « الجاحظ » : « قلت لغلامي « نفيس » : بعثتك إلى السوق في حوائج ، فاشتريت ما لم آمرك به وتركت كل ما أمرتك به . قال : يا مولاي ! أنا ناقه ، وليس في ركبتي دماغ »[123] .

ويقول « الجاحظ » أيضاً : « قال « نفيس » لغلام لي : الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل ، يريد : أنت أقل الناس كلهم حياء »[124] .

---

(121) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق « طه الحاجري » ، ص 81 ـ دار المعارف بمصر .

(122) د. أحمد الحوفي : الفكاهة في الأدب ، ص 65

(123) ، (124) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ 4 ، ص 26.

وذكر أيضاً أنه ـ « الجاحظ » ـ قال لغلام له : « في أي صناعة أسلموا هذا الغلام ؟ » . قال : « في أصحاب سند نعال » ! يريد : « أصحاب النعال السندية »[125] .

* * *

6 ـ الهزل على طريقة أسلوب الحكيم :

تختلف السخريات باختلاف الأساليب ، فقد يسأل إنسان غيره سؤالاً وتكون الإجابة بغير المطلوب ، فتحدث المفارقة ، ويكون التهكم والسخر .

من ذلك ما ذكره « الجاحظ » ، قال : « قال « خالد بن الوليد »[126] لأهل « الحيرة »[127] : « أخرجوا إليّ رجلاً من عقلائكم ، أسأله عن بعض الأمور . فأخرجوا إليه « عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغساني »[128] . . . فقال له « خالد » : من أين أقصى أثرك ؟ قال : من صلب أبي . قال : فمن أين خرجت ؟ قال : من بطن أمي . قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض . قال : ففيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال : ما سنك ؟ قال : عظم . قال : أتعقل ؟ لا عقلت . قال : إي واللّه ، وأقيد . قال : ابن كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد . قال : كم أتى عليك من الدهر ؟ قال : لو أتى علي شيء لقتلني . قال : ما تزيدني مسألتك إلاَّ في (الأمر الملتبس) . قال : ما أجبتك إلاَّ عن مسألتك . قال : أعرب أنتم أم نبط ؟ قال : عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا . قال : فحرب أنتم أم سلم ؟ قال : فما بال

---

(125) الجاحظ : البيان والتبيين جـ 1 ص 162 .

(126) خالد بن الوليد : هو أبو سليمان خالد بن المغيرة ، القرشي المخذومي ، ولد قبل الهجرة بنحو خمس وعشرين سنة ، سماه الرسول (سيف اللّه المسلول) لأنه من أشد المسلمين على المشركين ، استطاع ، بفضل شجاعته وإقدامه ، ومهارته الحربية ، أن ينقذ جيش المسلمين في مؤتة ، شارك في فتح مكة ، وغزوة حنين، ثم في قتال المتنبئين والمرتدين ، وفي فتح العراق والشام . توفي سنة 21 من الهجرة .

(127) الحيرة : إمارة الحيرة ، أو مدينة الحيرة ، تقع في جنوبي « الكوفة » على بعد ثلاثة أميال منها ، وقد تكونت هذه الإمارة على تخوم « الروم » ، في الزمن الذي كان الصراع فيه قائماً بين الدولتين : دولتي الفرس والروم .

(128) « ثعلبة بن سنين » كان قد حرج في ثوبين أخضرين ، فقال له إنسان : «ما أنت إلاَّ بقيلة» وقد أدرك عبد المسيح الإسلام ولم يسلم وكان نصرانياً.

هذه الحصون ؟ قال : بنيناها للسفيه حتى يأتي الحليم فينهاه . قال : كَمْ أتت عليها سنة ؟ قال : خمسون وثلاثمائة . قال : فما أدركت ؟ قال : أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا الجرف ، ورأيت المرأة من أهل « الحيرة » تأخذ مكتلها على رأسها ، ولا تتزود إلَّا رغيفاً واحداً ، فلا تزال في قرى مخضبة متواترة ، حتى ترد الشام ، ثم قد أصبحت خراباً يباباً ، وذلك دأب اللَّه في العباد والبلاد »(129) .

وقال « أبو عثمان » : « قال « الحجاج » لرجل من « الخوارج » : أجمعت القرآن ؟ قال : أمفرقاً كان فأجمعه ؟ . قال : أتقرؤه ظاهراً ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه . قال : أفتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره ، فأحفظه ؟ . قال : ما تقول في أمير المؤمنين « عبد الملك » ؟ قال : لعنه اللَّه ، ولعنك معه ! . قال : إنك مقتول فكيف تلقى اللَّه ؟ قال : ألقى اللَّه بعملي ، وتلقاه أنت بدمك »(130) .

وذكر « الجاحظ » ، قائلاً : « كان « الحطيئة » يرعى غنماً له ، وفي يده عصا . فمر به رجل ، فقال : يا راعي الغنم ، ما عندك ؟ قال : « عجراء من سلم » (العجراء : كثيرة العجر ، أي العقد ، والسلم : شجر) ، يعني عصاه . قال : إني ضيف . فقال « الحطيئة » : للضيفان أعددتها ! »(131) .

وقال : « قدم رجل على صاحب له من فارس ، فقال له : قد كنت عند الأمير ، فأي شيء ولاك ؟ قال : ولاني قفاه »(132) .

***

وبعد : فهذه نماذج لسخريات « أبي عثمان » تضمنتها كتبه ورسائله ، وإن رسالة منها قد خصها بنموذج إنساني هو صورة لكل مغرور يخرج عن حجمه الطبيعي على غير أساس ، وهي رسالة « التربيع والتدوير » التي ينافخ بها نزعة الغرور والكبر في ذلك النموذج الذي يتجسد في شخصية « أحمد بن عبد الوهاب » ، والتي تتمثل فيها براعة « الجاحظ » الفنية الساحرة الرائعة .

---

(129) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 2 ، ص 147 - 148

(130) المصدر نفسه : ص 148 - 149.

(131) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 2 ، ص 147

(132) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ 4 ، ص 6 .

الباب الثالث

رسالة التربيع والتدوير

(تصوير أدبي للنموذج الإنساني)

- تمهيد .
- الفصل الأول : الدافع إلى تأليف الرسالة .
- الفصل الثاني : أحمد بن عبد الوهاب (الحقيقة) .
- الفصل الثالث : أحمد بن عبد الوهاب (الصورة الفنية) .

تمهيد :

من الرسائل التي كتبها « أبو عثمان الجاحظ » رسالة « التربيع والتدوير » كتبها إلى « أحمد بن عبد الوهاب » يسخر فيها منه ، ويتهكم به . وهي أول رسالة في الأدب العربي ـ تصور نموذجاً إنسانياً ـ كتبت في هذا الغرض ، وأخصت به ، وصورت ذلك النموذج تصويراً « كاريكاتورياً »[1] هازلاً ، تناول تلك الشخصية ـ من جميع نواحيها ـ تناولاً بارعاً وسخر منها بقلمه بمهارة قل أن نجد لها نظيراً .

وهي إحدى الرسائل التي عناها بقوله ، في كتاب « الحيوان » :

« وعتبتني برسائلي ، وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخلطائي ، من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ومن هجاء لا يزال مبسمه باقياً ، ومدح لا يزال أثره نامياً ، ومن ملح تضحك ، ومواعظ تبكي »[2] .

وقد صب « الجاحظ » في هذه الرسالة ، أكثر سخرياته من « ابن عبد الوهاب » ، على تكوينه الجسماني ، فشوه شكله ، وعبث بتفاصيله ، وأبطل هندسته ، فإذا هو كرة ، وإذا هو دكان ، ورحى طحان ، وإذا هو مربع مدور ، قصير عظيم الفخذ جعد الأطراف ، مجتمع للمتناقضات .

---

(1) أصحاب التصوير الساخر (الكاريكاتير) يشوهون الأجسام بطرق مختلفة ، عمادها بعض الحقائق المادية فيها ، وإنهم ليستعلقون بهذه الحقائق : يكبّرونها ، ويستمدون منها ما يشاءون من هزل وسخرية . وكذلك كان « الجاحظ » ، في تلك الرسالة ، هجاء ساحراً يعتمد على جسم « أحمد بن عبد الوهاب » ، وما به من قصر وقبح ، ليستخرج ما يريد من هزله (د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، مصر ، ص 179) .

(2) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق « عبد السلام هارون » ، جـ 1 ، ص 7 ، ط الحلبي 1357هـ .

كما هزأ بعقله وعلمه ، وسلوكه وفعله ، وقوله ونفجه ، في أسلوب له ظاهر فيه الرحمة وله باطن من قبيلة العذاب ، فهو يرفع شأنه ، ويعلي قدره ، ويحلق به في السماء ، وتتلمس هامته السماكين ، ويطفىء نوره النيرين ، وتحترق بعلمه أجرام الأفلاك ، حتى ليقدر على شفاء[1] من كتب له الهلاك ، ولا يقاس به عظيم ، ولا يدانيه عالم أو أديب ، فهو أبو الفنون ، ومبتكر العلوم . . . الخ ، ومراد « الجاحظ » السخرية ، وقصده الاستهزاء ، عن طريق ذكر الضد ، ثم يرجع به إلى حقيقته ، ويضعه في مكانته ، فيحطه من شاهق ، ويهوي به من حالق ، فتحقق السخرية غايتها ، وتصل في الإيجاع إلى قمتها ، في أسلوب جزل وعبارة رصينة ، حوت المعارف ، وامتلأت باللطائف ، تارة يميل بها إلى السجع غير المتكلف ، وطوراً يسير بها إلى الترسل ، تارة يرسلها عنيفة هادرة ، وأحياناً يقودها سهلة هادئة ، مرة يحدث فيها ازدواجاً أو مقابلة ، ومرات يترك ذلك ، وهو ، في كل أحواله المصور البارع ، والرسام الماهر ، يتخذ الأصباغ والألوان مادة لصوره ، والتشكيل والنحت ، دليلاً على استهزائه ، فيملك عليك سمعك وبصرك ، ويخلب خيالك ولبك . . . .

فإذا الرسالة وجبة شهية ، وغذاء دسم ، وإذا أنت في مسرح هزلي ، تضحك للنادرة أعجبتك ، وتطرب للنكتة واتتك ، وتسخر مع الكاتب ، بالتصوير والتشكيل والمسخ والتشويه ، وإظهار مكنون النفس وخفايا القلب ، فتحمد لـ « الجاحظ » عبقريته ومهارته ، وتغبطه تفوقه وأسبقيته ! .

الفصل الأول

الدافع إلى تأليف الرّسالة

ما الدافع ، أو الدوافع التي حدت بـ « الجاحظ » إلى تأليف هـذه الرسـالة ، رسالة « التربيع والتدوير » ؟ .

1 ـ كان « لأحمد بن عبد الوهاب » منزلته الرفيعة في المجتمع ، ومكانته السامية بين عظماء الدولة ولدى رجال الحل والعقد ، وليس يبعد أن يكون قد احتل المركز المرموق من قلوب الخلفاء والأمراء والوزراء ، وذلك شيء يثير الغيظ في نفس « أبي عثمان » ويبعث على الحنق، ويورث نـار الغضب فقد كـان « الجاحظ » يرى نفسه في غير مكانه،ولم يوضع[1]حيث ينبغي أن يكون، وإنه لو أنصف الدهر لكان هو ـ « الجاحظ » ـ الخليفة ، و « محمـد بن عبد الملك الـزيات » يأتمر بأمره ويعمل تحت يده ! . « دخـل أحدهم على « الجـاحظ » فسألـه عن حـاله ، فقـال له « الجـاحظ » : « سـألتني عن الجملة فـاسمعها مني واحـداً واحداً : حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلات إلي ، وآكل من لحم الطيـر أسمنها ، وألبس من الثيـاب ألينها ، وأجلس على اللين الطري ، وأتكيء على هذا الـريش ، ثم أصبر على هـذا حتى يأتي اللّه بالفرج . فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه . قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل « محمد بن عبد الملك الزيات » بأمـري ، ويختلف إلي ، فهذا هو الفرج ! »[1] .

---

(1) محمد كرد علي : أمراء البيان ، جـ 2 ، ص 466

وسواء أكان ذلك من « الجاحظ » على سبيـل الفكاهـة والمرح أم على سبيـل الاعتزاز بالنفس ، إلاَّ أن المؤكد أن « أبا عثمان » كان طلعة ، ذا آمال عراض ، ومن الصعب على من كان هذا طموحه ، أن يرى من هو أحط منه رتبة وأقل منزلة قد نال فوق ما ينبغي له ، ولا يستطيع قلمه الساخر أن يصمت على هـذا المروق ، فشـرع سلاحاً بتاراً ، ومبضعاً يستأصل تلك الزيادة غير الطبيعية ، التي نمت في شرف « ابن عبد الوهاب » ! .

2 ـ وكان « ابن عبد الوهاب » من طائفة الكتاب ، وكان « الجاحظ » يكره الكثير من أفراد هذه الطائفة ، ويهـزأ بها ، ويـراها من التفـاهة ، وقلة الفـطنة ، وضعف الأداء ، في مستوى يزري بتلك المهنة الرفيعة ، لما يتصفون به من الجهـل ، والحمق ، وسوء التدبير ، وضحالة التفكير ، وذلك ما جعله يتـرك (الديـوان) سراً ، فلم يطق أن يمكث فيه أكثر من ثلاثة أيـام ، مع أولئـك الكتاب الـذين وصفهم بقوله :

« إن قبح الكتابة بني على أنه لا يتقلدها إلاَّ تابع ، ولا يتولاهـا إلاَّ من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيماً قد تولاها بنفسه أو شاركه كاتبه في عمله »[2] .

وقد جلس « الجاحظ » يوماً في بعض الدواوين ، فتأمل على الكتاب ، فقال : خلق حلوة ، وشمائل معشوقة ، وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخـلاص ، وجدتهم كـالزبـد ، يـذهب جفـاء ، وكتبتـه يعـرفهـا الهيف من الرياح ، ولا يستندون من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة »[3] .

لقد امتلأ قلب « أبي عثمان » بكرههم ، وكان لـ « ابن عبد الوهاب » من تلك الكراهية أوفى نصيب ، عبر عنه « الجاحظ » برسالة طويلة ساخرة خصه بهـا ، شفاء لغيظ نفسه التي ترى فيه المنظر ولا ترى المخبر ، وتنظر الضيعة الشـريفة في أيـدي الأخساء .

---

(2) يوشع فنكل : ثلاث رسائل للجاحظ ، ص 42 .
(3) المصدر نفسه .

3 ـ إن « الجاحظ » كان ساخراً بطبعه ، ميالاً إلى الفكاهة بفطرته ، يطلبها ويلتمسها في شتى مواطنها ، ويولدها ويشتق منها الرائق إن لم يجدها أمامه ، ويخترعها ويبتدعها إن لم تسعفه ، فسلطها على « ابن عبد الوهاب » فمسخه وتركه صريع هزئه ، وقتيل تهكمه . قال في كتابه « الحيوان » : « والحديث عن مسخ الضب والجري ، وعن مسخ الكلاب والحكأة ، وأن الحمام شيطان ، من جنس المزاح الذي كنا كنينا به إلى بعض إخواننا[4] ، ممن يدعي علم كل شيء ، فجعلنا هذه الخرافات ، وهذه الفطن الصغار من باب المسائل ، فقلنا له : ما الشنقناق والشيصبان[5] وتنكوير ودركاذاب ؟ ومن قاتل امرأة ابن مقبل ؟ ومن خانق الغريض[6] ؟ ومن هاتف سعد[7] ؟ وخبر عن بني لبنى ، ومن زوجها ؟ وخبر عن بني إقيش[8] ، وعن بني غزوان ومن امرأته ؟ وعن سملقة وزوبعته ، والمبدعان ، وعن النقار ذي الرقبة ، وعن آصف ، ومن منهم أشار بأصفر سليم[9] ، وعن أطيقش ، اسم كلب أصحاب الكهف ، وكيف صارت الكلاب لا تنبح من سماه ؟ وأين بلغ كتاب شرطهم ؟ وكيف حدثوا عن « ابن عباس » في الفأر ، والقرد ، والخنزير ، والفيل ، والأرنب ، والعنكبوت ، والجري ، أنهن كلهن مسخ ، وكيف خصصت هذه بالمسخ ؟ وهل يحل لنا أن نصد بهذا الحديث عن « ابن

(4) هو « أحمد بن عبد الوهاب » ، الذي صنع فيه « الجاحظ » رسالة « التربيع والتدوير » .

(5) الشنقناق ، والشيصبان : رئيسان عظيمان من الجن (زعموا ذلك) .

(6) الغريض : هو « عبد الملك » كان مولداً من مولدي البربر ، وولاؤه للثريا ـ صاحبة «عمر بن أبي ربيعة » ـ ، وكان من رؤساء الغناء ، أخذ عن « ابن سريج » . وانظر حديث قتل الجن له (في الأغاني ، جـ 2 ، ص 143) .

(7) هو « سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي » ، صحابي ، كان سيد الخزرج ، وكان يلقب في الجاهلية بـ « الكامل » ، لمعرفته الكتابة ، والرمي ، والسباحة ، توفي سنة 15 هـ ، وزعموا أن الجن قتلته ، وسمع هاتفهم يقول :

قد قتلنا سيد الخزرج ، سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين ، فلم نخطئ فؤاده

(8) بنو إقيش ، حي من الجن !

(9) أصفر سليم : قال الثعالبي في « ثمار القلوب » (ص 119) : وكان سليم صيدلانياً بالبصرة ، وقد عجن دواء أصفر لكل ما شرب ، فكان يستشفي به كل مبرود ومحرور وصار مثلاً في البركة ، وحسن الموقع . وقال ابن قتيبة « في المعارف » ، ص 265 : « كان لعبيد اللّه بن أبي بكرة ثلاثة وكلاء ، يقال لهم : سليم الناصح ، وسليم الغاش ، وسليم الساحر ، وهذا الذي عمل أصفر سليم » .

عباس » ؟ وكيف صارت الظباء ماشية الجن ؟ وكيف صارت الغيلان تغير كل شيء إلّا حوافرها ؟ ولم ماتت من ضربة وعاشت من ضربتين ؟ ولم صارت الأرانب ، والكلاب ، والنعام مراكب الغيلان ؟ ولم صارت الروافيد مطايا السواحر ؟ وبأي شيء زوج أهل السعادة ابن يربوع ؟ وما فرق ما بينه وبين «عبد اللّه بن هلال»؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بـ «صير» على يد « حرمي » و « أبي منصور » ؟ ولم غضب من ذلك المذهب ؟ ولم مضى على وجهه شفشف ؟ وما الفرق بين الغيلان والسعالي ، وبين شيطان الخضراء وشيطان الحماطة ؟ ولم علق السمك المالح بأذنابه ، والطري بآذانه[10] ؟ وما بال الفراخ تحمل بأجنحتها ، والفراريج بأرجلها ؟ وما بال كل شيء أصل لسانه مما يلي الحلق ، وطرفه مما يلي الهواء ، إلّا لسان الفيل ؟ ولم قالت الهند : « لولا أن لسانه مقلوب لتكلم » ؟ ولم صار كل سائغ وآكل يحرك فكه الأسفل ، إلّا التمساح فإنه يحرك فكه الأعلى ، ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار ، وليس ذلك للدواب ، إلّا في الأجفان العالية ، وما بال عين الجرادة وعين الأفعى لا تدوران ؟ وما بيضة العقر[11] ؟ وما بيضة الديك ؟ ولم امتنع بيض الأنوق ؟ وهل يكون الأبلق العتوق[12] ؟ وما بال لسان سمك البحر عديماً ؟ وما بال الغريق من الرجال يطفو على قفاه ، ومن النساء على وجهه ؟ ولم صار القتيل إذا قتل يسقط على وجهه ، ثم يقلبه ذكره ؟ وأين تذهب شقشقة البعير ، ونمرول الحمار والبغل ، وكبد الكوسبج بالنهار ، ودم الميت ؟ ولم انتصب خلق الإنسان من بين سائر الحيوان ؟ . وخبرني عن الضفادع ، لم صارت تنق[13] بالليل ؟ وإذا أوقدت النار أمسكت ؟ . وقالوا : قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخرافة ، للرد إلى الاحتجاج بالخبر الصحيح المخرج للظاهر . فإن أعجبتك هذه المسائل ، واستطرقت هذا المذهب ، فاقرأ رسالتي إلى « أحمد بن عبد

---

(10) تعليق السمك الطري بآذانه عبارة تهكمية ، فليس للسمك أذن ظاهرة .

(11) بيضة العقر : قيل هي التي تمتحن المرأة بها عند الافتضاض ، أو أول بيضة للدجاجة ، أو آخرها ، أو بيضة الديك يبيضها في السنة مرة !

(12) الأبلق : الفرس فيه سواد وبياض ، وهو ذكر ، والعقوق : الحامل أو الحائل ، وهي الأنثى ، ولا يكون الذكر أنثى .

(13) النقيق : صوت الضفدع ، والنعيق . للبوم والغربان .

الوهاب » الكاتب ، فهي مجموعة هناك »[14] .

4 ـ وربما قد كان « أحمد بن عبد الوهاب » في هيئته وسحنته ونفسيته ، وعقليته صورة حية للتناقض ، تدفع « الجاحظ » بما طبع عليه من حب للمرح والمزاح وبما وقر في جبلته من لهج بالسحر ، وبما انفعلت به نفسه ، من كره له وغضب عليه ، تدفعه إلى أن يتناولها بقلمه ، فيرسُم لها الخطوط ، يمطها ويعرجها ويثنيها ويدورها ويعبث بطولها وعرضها ، ويضفي عليها الظلال ، ويسكب فوقها الألوان ، إذا هي صورة مشوهة ، ولوحة للقبح مجسمة ، يفصح عن خفاياه ، فتضحك وتقهقه ، وتسر وتسعد[15] .

5 ـ كان « الجاحظ » قبيح الوجه مشوه الخلقة ، إلى الحد الذي جعله يقول :

« ذكرت لـ « المتوكل » لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم ، وصرفني » ! . وربما كان « ابن عبد الوهاب » جميل الوجه ، وسيماً بدليل أن « الجاحظ » لم يتعرض له في رسالته للسخر من وجهه ، فغاظه ما عليه « ابن عبد الوهاب » من صباحة ، فنسب إليه قبحه ، وأسقط عليه شوهته .

6 ـ وأغلب الظن أن « ابن عبد الوهاب » تاه بنفسه ، واغتر بمنصبه ، واعتقد أنه فوق « الجاحظ » ، وأن يده لن تناله ، فعابه وهزأ به ، وهجاه ، مستغلاً في ذلك منصبه ونفوذه ، وصحبته كبار رجال الدولة ، وكثُر ذلك منه حتى ضاق به « الجاحظ » بعد طول اصطباره فألف رسالته في السخرية منه ، طويلة بمقدار صبره عليه ، لاذعة بمقدار ما حبس في نفسه وتلمظ في قلبه ، بدليل قوله في الرسالة : » فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، عدنا نعتاد مذهبه ، وتأليف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه وأبدي صفحته ، للحاضر والبادي ،

---

(14) الجاحظ : الحيوان (تحقيق « عبد السلام هارون ») ، جـ 1 ، ص 308 - 311 .
م مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، بمصر .

(15) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ 3 ، ص 141 (تحقيق : م محيي الدين عبد الحميد) ، مكتبة النهضة . وأيضاً : الأبشهي : المستطرف .

وسكان كل ثغر وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة ، أهزأ فيها ، واعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ، ليكفوا عنا من رغبة ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به »[16] ، وقوله : « فأنت ـ واللّه يا أخي ـ تعلم علم الاضطرار والاختيار ، وعلم الأخبار ، أني أشد منك عقلاً ، وأظهر منك حزماً ، وألطف كبداً ، وأكثر علماً ، وأوزن حلماً ، وأخف روحاً ، وأكرم عيناً ، وأقل غشاً ، وأحسن قداً ، وأبعد غوراً ، وأنصع طرفاً ، وأكثر ملحاً ، وأنطق لساناً ، وأحسن بياناً ، وأجهر جهاراً ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشدو من العلم وتنتف من الاختبار ، وتموه نفسك ، وتغر من قدرك . . . ليس عندك إلاَّ ذاك ، فلم تزاحم البحار بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي يتجزأ »[17] .

وفي ذلك الذي أوردته ، الدليل على أن « ابن عبد الوهاب » كانت بينه وبين « الجاحظ » ملاحاة ، ومنافسة ، وأنه تاه بنفسه على « الجاحظ » ، وفخر بفضائله ، وحط من قدر « الجاحظ » ، ونزل به إلى الدرك الأسفل ، مما حدا « بالجاحظ » أن يرد عليه ، ويهزأ به ، ويطيل كلامه ، فكان الرد هذه الرسالة الساخرة .

7 ـ اتصل « الجاحظ » بـ « محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة » المعروف بـ « ابن الزيات » ، ونشأت بينهما صداقة وطيدة ، ثم حدث بينهما جفوة ، وقد اتصل كذلك « ابن عبد الوهاب » بـ « ابن الزيات » ، وتقرب منه ، فقربه إليه ، وربما انتهز « ابن عبد الوهاب » هذه الجفوة ، فأطلق لسانه في « الجاحظ » ، ليزداد قربة من « ابن الزيات » ، وربما كان السبب في الجفوة وقيعة منه ، ووشاية به ، وربما تألم « الجاحظ » لأن « ابن عبد الوهاب » حل محله فثارت نفسه ، وكان ذلك سبباً في إنشاء الرسالة .

8 ـ دان « الجاحظ » بالاعتزال ، واتخذه مذهباً كلامياً ، ونبغ فيه ، وانفرد ببعض

---

(16) الجاحظ : مجموعة رسائل الجاحظ ، ص 86 والسندوبي : رسائل « الجاحظ » ص 188 .

(17) المصدر السابق : ص 118 - 119 .

والسندوبي : رسائل الجاحظ ، ص 223.

مسائل خالف فيها ما عليه عامة المعتزلة ، وأفردته بطريقة اعتزالية خاصة نسبت إليه ، وتبعته جماعة سميت باسمه فصار زعيم « الطائفة الجاحظية المعتزلية » واعتنق « أحمد بن عبد الوهاب البجلي » الرفض ، والتشبيه[18] ، والقول بالبداء[19] ، فخالف مذهب « الجاحظ » الكلامي ، وعارضه ، والجاحظ رجل الفكر ، والمنطق ، والكلام فينصب نفسه مدافعاً عما يراه حقاً ، ويسخر ويهزأ بكل ما يعتقد خطأه وبطلانه ، ومن ثم هزىء بابن عبد الوهاب وعاب مذهبه ، وضآلة تفكيره ، وجهله ، ونزقه ، وعمت سخريته وانفسح مداها ، فشلت جسمه ، وخلقه ، وكل شيء فيه ! .

(18) التشبيه : المشبهة (والمجسمة) هم القائلون بأن لله (تعالى عن ذلك) يداً كأيدينا وسمعاً كسمعنا ، وبصراً كبصرنا ، دون تأويل ، أو تنزيه .

(19) القول بالبداء : هو القول بأن العالم خلق هكذا ابتداء ، بدون خالق .

الفصل الثاني

أحمد بن عبد الوهاب ، الحقيقة

إن الشخصية التي سخر منها « الجاحظ » ، في رسالة « التربيع والتدوير » ، فسلط الأضواء الكاشفة على جوانبها وزواياها المختلفة ، ووضع عليها مجهر سخطه وهزئه ، وعبث بتفاصيلها ووقائعها وتقاسيمها ، فتعرجت ، وتكورت ، واستطالت ، ثم تغيضت ـ وألهبها بميسم ذلك الهزء ـ فتشوهت وتفرجت . . . لا بد أن يكون لها شأنها وخطرها ، حتى يناصبها العداء ، ويحبس قلمه للحديث عنها فترة من الزمان .

إننا سنحاول فيما يلي ، التعرف على « حقيقة » تلك الشخصية ، من كتابات « الجاحظ » نفسه ، فهو خير برهان ، وأوفى دليل :

يذكر « الجاحظ » أن صاحب هذه الشخصية هو « أحمد بن عبد الوهاب » ، وقد صرح بذلك في مستهل رسالته : « كان «أحمد بن عبد الوهاب » مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول . . . الخ »[1] .

كما أشار إلى هذه الرسالة ، وصرح باسم صاحبها ، في كتابه « الحيوان » ، قال : «فإن أعجبتك هذه المسائل، واستظرفت هذا المذهب، فاقرأ رسالتي إلى « أحمد بن عبد الوهاب »[2].

وقد كان « أحمد بن عبد الوهاب » من كتاب الأمراء ، لا من كتّاب الديوان ، فقد قال « أبو الفرج الأصفهاني » : « وكان لـ « صالح بن عبد الوهاب » أخي

---

(1) مجموعة رسائل الجاحظ ، جـ 1 ، ص 85 (دار النهضة بيروت ، 1972م) .

(2) الجاحظ : الحيوان ، جـ 1 ، ص : 311.

« أحمد بن عبد الوهاب » كاتب مقرب من الرشيد . . »[3] .

وأوضح « الجاحظ » أنه ينسب إلى قبيلة يمنية قحطانية ، إذ قال : « ولم أزعم أنك رجل يماني ، بولادة لك في قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان ؟ »[4] .

وصرح باسم قبيلته « بجيلة » ، حين قال : « واللّه ، لئن رميتني بـ « بجيلة » لأرمينك بـ « كنانة . . . »[5] .

وكان مذهبه التشبيه ، والقول بالبداء ، والرفض ، يقول « الجاحظ » له : « فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل ، وباطلها ، وما فيها محال ، وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبي ، ولزوم بابي ، وابتدىء بنفي التشبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال »[6] .

ولا بد أن يكون « ابن عبد الوهاب » شخصية نابهة ، لها مكانتها بين الناس ، ووزنها بين الكتّاب ، وأهميتها في الدولة ، وإلَّا ، فكيف « يناصب « الجاحظ » - القيمة - العداء رجلاً من عامة الشعب ، وغوغاء الأمة ، ويطيل السخرية شفاء نفسه وضيق صدره ، وغضب قلبه ؟ . والحق أنه كانت لـ « ابن عبد الوهاب » مكانته المرموقة في الدولة ، وله أحباؤه الذين يدافعون عنه ، ويستند هو إليهم عند اشتداد الكروب ، من وجهاء الدولة ، وأولي الشأن فيها : كـ « صالح بن علي »[7] ، و « سليمان بن وهب » و « جعفر الخياط » . يقول « الجاحظ » في الرسالة : « . . ولئن نهضت بـ « صالح بن علي » لأنهضن « بأحمد بن خلف »[8]

---

(3) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ 16 ص 322 مطبعة التقدم .

(4) مجموعة رسائل الجاحظ ، جـ 1 ، ص 122.

(5) المصدر نفسه : ص 118.

(6) المصدر السابق : ص 130 .

(7) « صالح بن علي بن عبد اللّه بن عباس » : قائد من قواد الدولة العباسية ، وأمير من أمرائها ، تتبع « مروان بن محمد » آخر خلفاء الدولة الأموية ، حتى قتله في مصر .

(8) « أحمد بن خلف » : كان يعاصر « الجاحظ » ، وكان مشهوراً بالبخل وله في كتاب « البخلاء » أحاديث ، وكان « الجاحظ » يقربه منه .

وبـ « إسمـــاعيـل بن علي »[9] ، ولئن صلت بـ « صـــالـح بن وهب »[10] لأدفعنـك بـ « الحسن بن وهب » »[11] .

كما كان من أصحاب « محمد بن عبد الملك الزيات » ، كما يذكر « أبو الفرج الأصفهاني »[12] في كتابه « الأغاني » .

وفي كل ذلك الدليل على أن هنـاك من كانـوا يؤازرونه ، ويعتمـد عليهم في الشدائد ، ممن كانوا ذوي أهمية في الدولة وصدارة في المجتمع العباسي .

---

(9) « إسماعيل بن علي » : هو أخو « صالح بن علي » ، وكان من قواد الدولة العباسية ، وتولى إدارة الحج سنة 145هـ.

(10) من كبار رجال الدولة العباسية ، وكان وزيراً من وزرائها .

(11) كاتب ، عالم ، شاعر ، توفي سنة 247هـ .

(12) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ 16 ، ص 322 ، مطبعة التقدم .

الفصل الثالث

أحمد بن عبد الوهاب
(النموذج الإنساني)

كما صورته عبقرية الجاحظ الفنية

1 ـ العبث بتفاصيل جسمه :

أ ـ الصورة تخالف ظلها .
ب ـ انقلاب الصورة ظلاًّ والظلّ صورة .
جـ ـ الاحتجاج لفضيلتي العرض والقصر .
د ـ تحسين ما قبح فيه .

2 ـ مجاوزته حدود الكمال :

أ ـ رفعة فوق قدره .
ب ـ تفوقه على المخلوقات .
ج ـ معرفته كل شيء .
د ـ خروج جماله عن المقاييس .
هـ ـ حياته سبقت « آدم » .

3 ـ مقارنته بالمشاهير .

4 ـ تجسيد عيوبه .

أ ـ ادعاؤه ما ليس فيه .
ب ـ جهله البدهيات .
جـ ـ عدم قابليته التعلم .
د ـ التواء طباعه .

5 ـ موازنته « بالجاحظ » .

6 ـ قلب حقيقته .

أ ـ جمعه المتناقضات .
ب ـ جد قصد به الهزل .
ج ـ التلاعب بعقله .

7 ـ إفحامه بالأسئلة .

« أحمد بن عبد الوهاب » ، النموذج الإنساني ، كما صوره قلم الأديب الساخر « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ، تتضح معالمه من خلال الجوانب والزوايا التالية :

1 ـ العبث بتفاصيل جسمه .
2 ـ مجاوزته حدود الكمال .
3 ـ مقارنته بالمشاهير .
4 ـ تجسيد عيوبه .
5 ـ موازنته بالجاحظ .
6 ـ قلب حقيقته .
7 ـ إفحامه بالأسئلة .

وفيما يلي نستعرض ، تفاصيل تلك الجوانب والزوايا :

— 1 —
العبث بتفاصيل جسمه*

(أ) الصورة تخالف ظلها :

يستهل « الجاحظ » رسالة « التربيع والتدوير » فيرسم الصورة الهزيلة الضاحكة لجسم «ابن عبد الوهاب » ، فيمد يده بالتشويه في خطوط طوله ، وخطوط عرضه ، فيطيل خطوط العرض ، ويقوسها ، ويدورها ، ويجعل خاصرته مستفيضة ، وبطنه أمامه ممتدة ، ورأسه كرة هائلة ، فيقول :

« كان « أحمد بن عبد الوهاب » مفرط القصر ، ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرته ، واستفاضة خاصرته ، مدوراً ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك ، يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عنيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو ، مع قصر عظم ساقه ، يدعي أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم

(*) هذا مقتبس من كتابنا «الجاحظ الأديب الساخر» نشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان سنة 1981 م .

الهامة ، وقد أعطي البسطة في الجسم »[1].

(ب) انقلاب الصورة ظلاً والظل صورة :

ويجسم « الجاحظ » أوهام « ابن عبد الوهاب » ، ويستعمل أسلوب المغالطة معه ، يحول به الظل أصلاً ، والأصل ظلاً ، يغير خطوط الصورة ، ويبدل الألوان ، ويعكس الأوضاع ، فيجعل الظل حقيقة ، أصله الذي يعلمه اللّه ، وينكره الناس ، من طول وجمال ورشاقة ، ويجعل منظره الخارجي الذي يظهر به أمام الناس خللاً له ، ورسماً مشوهاً لحقيقته ، يبرز فيه قصره وغلظه واستدارته ، فيقول : « قياسك الذي تنسب إليه ، ومذهبك الذي إليه تذهب ، أن تقول : وما علي إن رآني الناس عريضاً ، وأكون في حكمهم غليظاً ، وأنا عند اللّه طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق. وقد علموا ـ حفظك اللّه ـ! أن لك مع طول الباد راكباً، طول الظهر جالساً، ولكن بينهم فيك ـ إذا قمت ـ اختلاف ، وعليك لهم ـ إذا اضطجعت ـ مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمك من أقاويلهم ، ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضاً ، قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن اختلفوا في طولك ، لقد اتفقوا في عرضك ، وإن سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ، ولعمري إن العيون لتخطىء ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلاَّ للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلاَّ للعقل ، إذا كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواس »[2].

فالتهكم زاخر في طياتها ، والسخرية منبثة في زواياها ، والتصوير الهزلي يكمن

---

(1) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة 85 (الجفرة : جوف الصدر .
أخمص : ضامر . الباد : بطن الفخذ . جعد : ملتو . عنيق : جميل) .

(2) المصدر السابق : ص 86 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 191.

في تضاعيفها ، وقد ألطف « الجاحظ » الصنعة ، وأتم الحبكة ، وجاء بالسخرية متقناً لا يكاد يبين ، إلاَّ بعد فحص وإمعان .

« ولو لم يكن فيك من العجب إلاَّ أنك أول من تعبده اللّه بالصبر على خطأ الحس ، وبالشكر على صواب الذهن ، لقد كنت في طولك آية للسابلين ، وفي عرضك مناراً للضالين ، وقد تظلم المربوع مثلي ، من الطويل مثل « محمد »، ومن القصير مثل « أحمد » . . . والمربوع ـ بحمد اللّه ـ اعتدلت أجزاؤه في الحقيقة ، كما اعتدلت في المنظر ، لقد استغني بعز الحقيقة عن الاعتزاز وبحكم الظاهر عن الاعتدال ! وقد سمعنا من يذم الطوال ، كما سمعنا من يزري على القصار ، ولم نسمع أحداً ذم المربوع ، ولا أزرى عليه ، ولا وقف عنده ، ولا شك فيه . . . وبعد : فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل ؟ وقد رأيتك زماناً تحتج بـ « النعمان بن المنذر »[3] ، و « يضمرة »[4] . . . وبرجال ناهيك بهم رجالاً ، وبأعلام كفاك بهم أعلاماً ، ورأيتك تقول : إن كان الفضل في النكاية ، وفي الشدة والصلابة فقصار كل شيء أشد ضرراً ، وأدق مدخلاً ، وأظهر قوة وجلداً ، كالحجارة أصلبها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى . . . . وقلت : إن كان الفضل في العدد فمنا « يأجوج ومأجوج » ، ومنا الذر والفراش ، ومنا الدعاميض والبعوض ، والرمل والتراب ، وقطر السحاب »[5] .

(ج) الاحتجاج لفضيلتي العرض والقصر :

ثم يحتج الجاحظ ، بأنه لو سلم بعرضه لكان من أسباب كماله ، ولم يؤد به إلى نقصان ، فلقد : « وجدنا الأفلاك بما فيها ، والأرض وما عليها ، على التدوير دون التطويل ، وكذلك الورق والتمر ، والحب والثمر ، وقلت : والرمح ، وإن طال ، فإن التدوير عليه أغلب ، لأن التدوير قائم فيه ، موصولاً ومفصولاً ، والطول لا

(3) النعمان بن المنذر : ملك من ملوك الحيرة .

(4) هو ضمرة بن ضمرة : قال ابن دريد في « الاشتقاق » ص 149 في ذكر رجال مجاشع : « ومن رجالهم ضمرة بن ضمرة ، وكان من رجال بني تميم في الجاهلية لساناً وبياناً ، وكان أسمه شق بن ضمرة ، فسماه بعض ملوك الحيرة ضمرة » .

(5) المصدر السابق ص 90 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 192 - 193 - 194 .
والدعاميص : ذر السمك وصفاره التي تتكون في الغدران .

يوجد فيه إلاَّ موصولاً ، وكذلك الإنسان ، وجميع الحيوان .

وقلت : « ولا يوجد التربيع إلاَّ في المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره على تركيبه دون ما خلا رسوم طبيعته ، وعلى أن كل مربع ففي جوفه مدور ، فقد بان المدور بفضله ، وشارك الطول في حصته »(6) .

ولا شك أن قلب حقيقة الأشياء والإلحاح على إثبات ما هو عكس طبيعتها ، وتصوير الاضطراب النفسي والقلق الفكري ـ في صورة هزيلة ضاحكة ـ ضرب من الرسوم الساخرة، يقول الجاحظ: «واحتججت بأن الحُسن والفضل لصغار ما في الإنسان ، كالناظرين ، والأنثيين ، وحبة القلب ، وأم الدماغ ، وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه ، وامتد شخصه ، أسرع الانهدام إلى بدنه ، والانحناء إلى ظهره ، وأن القصير لا يتقوس ظهره ، ولا يميل عنقه ، ولا يضطرب شخصه ، ولا تعوج عظامه ويسعه كل باب ، ويقطعه كل ثوب ، ولا يخرج رجلاً عن النعش ، ولا تفضلاً عن الفراش »(7) .

ويستدل بفضل القصر على الطول بقوله ، أيضاً : « إن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلاَّ لفضيلة العرض على الطول ، وذلك كقول الشعراء ، ووصف العلماء ، قال الشاعر :

كأن بلاد اللَّه وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

(ولم يقل : كأن بلاد اللَّه وهي طويلة) .

وقال آخر :

وفي الأرض للمرء ، العريضة مذهب (ولم يقل الطويلة) .

وقال آخر :

ولا تحسداني بارك اللَّه فيكما من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

---

(6) المصدر نفسه : ص 94 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 196 .

(7) المصدر السابق : ص 91 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 194.

وقال الراجز :

تقطع أرضاً وتلاقي أرضاً　　إن البلاد غلبتني عرضاً

وقلت : « لولا فضيلة العرض على الطول ، لما وصف اللّه الجنة بالعرض دون الطول حيث يقول جل ثناؤه : ﴿ **وجنة عرضها السموات والأرض** . . ﴾[8] .

(د) تحسين ما قبح فيه :

وينهج نهجاً آخر في رسم الصورة الهزلية ، فلا يتناول العيوب والنقائص بالتضخيم والتفخيم ، ولا يجعلها كما هي عليه من قبح ، ولا يذكر صفاتها العادية أو أوصافها الجسمية ، بصفاتها الحقيقية ، وإنما يجملها ويحسنها ، ويمدحها ويطريها ، ويعتبرها محاسن ومفاتن تحقق لصاحبها الجمال ، وتبرز الفتنة . . فيرسم لنا الصورة المثالية ، الفائقةالحسن ، ولكنها تكون ساخرة عن طريق التضاد ، وقلب الحقائق مما غرضه المدح ، وإنما الهدف التشكيك والبلبلة ، وإعطاء القارىء صورة رائعة الحسن لما لا يحسن فيه .

يقول « الجاحظ » : « وقد علمت ! حفظك اللّه ـ ! أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة وضخم الهامة ، وعلى حور العين وجودة القد »[9] .

« وأما حور العين ، فقد انفردت بحسنه ، وذهبت ببهجته وملحه إلى ما أبانك اللّه به من الشُّكلة ، فإنها لا تكون في اللئام ولا تفارق الكرام ، وقال الشاعر :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها　　كذاك عتاق الطير شكل عيونها

وقال آخر :

وشكلة عين لو حبيت ببعضها　　لكنت مكان النجم مرأىً وسمعاً

« فأما سواد الناظر ، وحسن المحاضر ، وهدب الأشفار ، ورقة حواش الأجفان ، فعلى أصل عنصرك ، ومجاري أعراقك »[10] .

---

(8) مجموعة رسائل الجاحظ : ص 92 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 194 .

(9) المصدر السابق : ص 87 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 189 .

(10) المصدر السابق : ص 94 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 196 - 197

« . . ولو لم يكن لك ، إلاّ أنا لا نستطيع أن نقول في الجملة وعند الوصف والمدحة : هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبهى من الغيث . . . وكأن قدمه لسان حية ، وكأن عينيه ماوية ، وكأن بطنه قبطية ، وكأن ساقه بردية ، وكأن لسانه ورقة وكأن أنفه حد سيف ، وكأن حاجبه خط بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البرد وكأن فاه خاتم ، وكأن جبينه هلال ، ولهو أطهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، ولهو أمضى من السيل ، وأهدى من النجم ، لكان في ذلك البرهان النير ، والدليل البين ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت الغاية في كل فضل ، والنهاية في كل شكل ؟ »[11] .

« وهل حملت النساء أجمل منك ؟ ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً ، وحلواً مليحاً ، وعنيقاً رشيقاً ، وفخماً نبيلاً ، ثم لا يكون موزون الأعضاء ، ولا مقدود الأجزاء ، وقد يكون أيضاً . الأقدار متساوية وغير متقاربة ولا متفاوتة ، ويكون قصداً ، ومقداراً عدلاً ، وإن كانت هناك دقائق خفية لا يراها إلاّ الألمعي ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلاّ الذكي ، فأما الوزن المحقق ، والتعديل المصحح ، والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ، ولا يحصره التعنت ، ولا يتعدل جاذبه ، ولا يطمح في التمويه ناعته ، فهو الذي خُصصت به دون الأنام ، ودام لك على الأيام »[12] .

— 2 —
مجاوزته حدود الكمال

(أ) رفعه فوق قدره :

ويتابع « الجاحظ » تصويره ، فيخط فيه خطاً من خطوط الجمال والكمال في الصورة الكلية الشاملة ، يرفع به « ابن عبد الوهاب » فوق قدره ، ويمنحه أكثر من طاقاته، وما تتحمله أخلاقه وخلقته ، وإذا هذه الرفعة عبء عليه ، وحمل ثقيل يئن

---

(11) المصدر السابق : ص 111 - 112 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 216
(ماوية : مرآة . قبطية : ثياب كانت تصنع بمصر من نسيج الكتان الرفيع) .
(12) مجموعة رسائل الجاحظ : ص 111 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 215.

تحتـه ، وإذا جسده يختفي ، وقـد أعطاه هـذا الجمال المعـار ، ونفسه وقـد علاهـا الكمال الطارف لا تكاد تبين ، وهمته وجبلته لا تستطيعان أن تنهضـا بمتطلبات هـذا الكمال ، وإذا خط الرفعة والكمال خط نقص واتضاع ، يفصح عن العيوب ، ويدل على المخازي ، ويشير بأصبعه إلى نفس واهية ، وعزيمة خائرة ، وقسمات شـوهاء متنافرة ، تكدست عليها مساحيق الجمال ، فتصببت من تحتهـا عرقـاً يسيل مـع هذا الخليط من المساحيق ، فهي خطوط تحمل ألوان الطيف ، وعوامل التشويه والقبح ، رغم أنها للتجميل ، حيث وضعت في غير موضعها ، وبكميات وافرة .

وهذا ما أراد « الجاحظ » ، الرسام للصورة حين مد خطه : « فسبحان من جعل أخـلاقك وفق أعـراقك ، وقـولك وفق عملك ، ومن جعـل ظنك أكثـر من يقيننـا ، وفراستك أثبت من عياننا ، وغفوك أرجح من جهدنا ، وبداهتك أجود من تفكيرنـا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيبتك أهيب من حضور السادة ، وعتبك أشـد من عقاب الظلمة »[13] .

«إن تفتيت فالرشاقة والملح ، وإن تمسكت فالرهبانية والإخلاص، وإن تونيت فـ « شهلان » ذو الهضبات ما يتحلحل »[14] .

(ب) تفوقه على المخلوقات :

يرفع « الجاحظ » ، « ابن عبد الوهاب » إلى مرتبة لم تخلق إلاَّ له ، لا يشركه فيها القمر ليلة تمه ، ولا يدانيه المقربون والأخيار ، ولا الملائكة الأبـرار ، فالحسن قبح إذا قيس بحسنه ، والقبح حسن إذا كان فيه . يقول « الجاحظ » :

« وقلت : والناس وإن قالوا في الحسن : كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ، وكأنه صفيحة يمانية ، وكـأنه سيف هنـدواني ، وكأنهـا جان ، وكـأنها جـدل عنان ، فقـد قـالـوا : وكـأنـه المشتري ، وكأن وجهه دينار هرقلي ، وما هو إلاَّ البحر ، وما هو إلاَّ الغيث ، وكـأنه

---

(13) المصدر السابق : ص 109 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 213.

(14) المصدر نفسه : ص 115 (ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 219) .

(وشهلان : جبل مرتفع عظيم) .

الشمس وكأنها دارة قمر ، وكأنها الزهرة وكأنها درة ، وكأنها غمامة ، وكأنها مهاة »[15] .

ويمضي « الجاحظ » في رسم هذه الخطوط ، حتى يصل به إلى المحال ، ويصيرها من الوهم ، وإذا الصفات كلها منهارة ، والبناء منقوض ، انهدم من طول ما ارتفع ، وسقط لكثرة ما أضيف إليه ، فما احتمل ! يقول « الجاحظ » ، بل يرسُم « الجاحظ » :

« وأنا ـ أبقاك اللّه ـ أعشق إنصافك ، كما اتعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق ، كما أتعلم النصفة في الدين ، ولربما ظننت أن جورك إنصاف قوم آخرين ، وأن تعقدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ، ومقابلة الاختيار بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالحلم ، إلاَّ للذي خُصصت به من إيثار الحق ، وأُلهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أحوج ما تكون إلى الإنكار ، أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيلة فقرا ، أشد ما تكون للحجة طلباً »[16] .

وهل في تمامك ريب حتى تعالج بالحجة ؟ وهل رد فضلك جاحد ، حتى يثبت بالبينة ؟ وهل لك خصم في العلم ، أو ند في الفهم ، أو مجار في الحكم ، أو ضد في العزم ؟ وهل يبلغك الحسد أو تضرك العين ، أو تسمو إليك المنى ؟ أو يطمع فيك طامع ، أو يتعاطى شأوك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك ؟ وهل غاية الجميل إلاَّ وصفك ؟ وهل زين البليغ إلاَّ مدحك ؟ وهل يأمل الشريف إلاَّ اصطناعك ؟ وهل يقدر الملهوف إلاَّ غبائك ؟ وهل للطول عرض سواك ؟ »[17] .

---

(15) المصدر السابق : ص 196 رسائل السندوبي (الخوط : الغُصْنُ الناعم . ألبان : شجر . جدول عنان : أي مفتولة فتل العنان ، وهو زمام الدابة ، كناية عن أنها مجدولة الخلق طويلة . المشتري : كوكب من الكواكب السيارة) .

(16) المصدر السابق : ص 92 ورسائل الجاحظ للسندوبي : ص 195.

(17) المصدر السابق : ص 110

ورسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 214

ويواصل « الجاحظ » تصويره الساخر ، فيقول : « وقد علمنا أن القمر هو الذي يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال ، وهو ـ مع ذلك ـ يبدو ضئيلاً نضواً ، ومعوجاً شختاً (دقيقاً ضامراً) وأنت أبداً قمر بدر وفخم غمر ، ثم مع ذلك يحترق في السرار ، ويتشاءم به في المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً كما يكون ضراً . . . وأنت دائم اليمن ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكن من أشحبه، وعلى أنه قد محق حسنه المحاق، وشأنه الكلف، وليس بذي توقد واشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا متلألىء ، ويعلوه برد الغيم ويكسوه ظل الأرض ، ثم لا يعتريه ذلك إلاَّ عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصغار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، ناري التوقد ، هوائي الذهن ، دري اللون ، روحاني البدن . . . وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس وضياؤك عارية عند جميع الخلق ، فكم بين المعير والمستعير ، والمبين والمتحير ، وبين العالم ومن لا حس فيه ! ولا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ، ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً »[18] .

وإذا كان النموذج السابق قد شبه « ابن عبد الوهاب » بشيء واحد هو القمر ، وأخذ يحوره ، ويقلبه ، ويتناوله من جميع زواياه ، ومن شتى اتجاهاته ، وفي مختلف أحواله حتى استقصى عنه جميع أوجه الشبه ، واستخلص ما فيه من محاسن ، ثم أوضح الفرق بين طرفي التشبيه ، وبالغ حتى قلب الحقيقة ، وقلب التشبيه ، وجعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً ، بل جعل المشبه في القمة : حسن صورة ، وبهاء طلعة ، وأعطاه من الامتيازات ما لا يوجد في المشبه به ، فإنه ، هنا ، لا يكتفي بمنظر واحد ، ويشبه به مفرداً ، لأنه لا يراه كافياً في وصف المشبه وإبراز جماله ، ووصفه بسحره ، فعدد المشبه به ، ثم التقط لـ « ابن عبد الوهاب » من صفات الجمال ، وأبرز ما في كل مشبه به .

---

(18) مجموعة رسائل الجاحظ : ص 114 - 115 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 219 (شختاً : ضامراً . عضواً : مهزولاً . السرار : الليالي التي يختفي فيها القمر فلا يرى . الكلف: ما يعتري القمر من حمرة الخسوف . والمحاق : آخر الشهر ، أو ثلاث ليالي من آخره) .

والقصد من ذلك الهزل والتفكه ، لأن « الجاحظ » لا يقصد المدح وإنما يريد التشويه والهزل ، كما يتبين من سائر الرسالة ، ومن أسلوبه في مثل قوله : « وطباعك ـ جعلت فداك ـ ! طباع الخمر ، إلَّا أنك حلال كلك ، وجوهرك جوهر الذهب ، إلَّا أنك روح كما أنت ، وقد حويت خصال الياقوت ، إلَّا ما زادك اللَّه عليه ، وأخذت خصال المشتري ، إلَّا ما فضلك اللَّه به وجمعت خلال الدر ، إلَّا ما خصصت به دونه ، فلك من كل شيء صفوته ولبابُه ، وشرفه وبهاؤه »[19] .

(جـ) معرفته كل شيء :

ومن خط الرفعة والكمال ، والتفوق على الكائنات ، يتفرع خط المعرفة التي جاوزت الحدود ، وخبرت الأولين والآخرين .

فنجد « ابن عبد الوهاب » قد جاوزها متفرسة ومجتمعة ، ونالها قديمة وحديثة وبرع في كل لون ، واتقن كل حزب كان بها أستاذ الأساتذة ، ومعلم الأفذاذ ، والمسؤول عن العلوم والفنون ، والقيم عليها ، في كل عصر وجيل ، والجامع لها مهما شردت ، والحائز عليها وإن دقت .

وبمجاوزة هذا الخط مداه يحدث التشويه في الصورة ، لأنه ، إن كان لا يتلاءم مع باقي الخطوط ، ولا يتناسب مع أطوالها ، فإن المنظر يكون سيء التركيب ، لمن يرسم صورة شخص ، ويجعل أنفه في حجم جسمه ، و« الجاحظ » وضع صورة « ابن عبد الوهاب » ذلك الوضع المشوه الهزلي بشقيه ، فجعل خط المعرفة في بعض المواضع يناسب سائر خطوط الصورة في الطول والاتساع ، ولكنه لا يتفق مع الأصل كما جعله أطول من سائر الخطوط في مواضع أخرى ، فبعدت الصورة في كلا الموضعين ساخرة ، تضحك (المشاهد) سروراً وانشراحاً ، وتسري عنه ، ويبكي صاحب الصورة غماً وكمداً حتى تعمى عيناه .

يقول « الجاحظ » : « وقد تعجب ناس من إطالتي ، ومن كثرة مسألتي ، وتعجبي من تعجبهم أشد ، والذي كان من إنكارهم أعظم . ولو رغبوا في العلم

---

(19) المصدر نفسه : ص 115 ، ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 219 - 220.

رغبتي ، ورأوا فيه مثل رأيي ، وكانوا قرءوا كتابي إليك في شبيبتي وأيام شباب رغبتي ، لاستقلوا من ذلك ما أكثروا ، ولاستقصروا منه ما استطالوا ، فإن أذنت لي أظهرته ، وإن تجد علي أعلنته ، وستقول : ما دعاك إلى التنويه بذكري ، وتعريف الناس مكاني ، وقد تعرف حشمتي ، وانقباضي ، وتفردي ، واستيحاشي !، ولو لا أنك ـ جعلت فداك ـ ! مسؤول في كل زمان ، والغاية في كل دهر ، لما تفردتك بهذا الكتاب ، وإن أطمعت نفسي في الجواب ، ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لـ « هرمس »[20] ، ثم لـ « أفلاطون »[21] ، ثم لـ « أرسطاطاليس [22] ، ثم أجبت « معبد الجهني »[23] ، و « غيلان الدمشقي »[24] ، و « عمرو بن عبيد »[25] ، و « واصل بن عطاء »[26] ، و « إبراهيم بن سيار »[27] ، و « علي بن خالد الأسواري »[28] ، فتربية كفك ، والناشيء تحت جناحك ، أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص ، وبه أعنى »[29] .

(د) خروج جماله عن المقاييس :

وهنا يضيف « الجاحظ » إلى صورة « ابن عبد الوهاب » أصباغاً جديدة ، وألواناً فريدة ، يجعله بها عجيباً غريباً ، لأنه لا مثيل لجماله ، بل إن حسنه قد تخطى القواعد ، ونأى عن المقاييس ، وحارت فيه الأفكار ، فلا يدرك الناظر سره ، ولا

---

(20) هرمز هو أحد ملوك الساسانيين في عهد بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان ابنه أبرويز ملكاً مثله وصفه ابن الأثير بأنه (كان من أشد ملوكهم بطشاً وأنفذهم رأياً وبلغ من البأس والنجدة وجمع الأموال ومساعدة الأقدار ما لم يبلغه ملك قبله) وفي عهده حدثت الحرب بين الفرس والروم وهي الحرب التي جاءت الإشارة إليها في القرآن الكريم في سورة الروم كما كانت وقعة ذي قار في عهده أيضاً (الكامل لابن الأثير جـ 1 ، ص 279 وما بعدها) .

(21) أفلاطون : (سبق التعريف به) .

(22) أرسطاطاليس : (سبق التعريف به) .

(23) أول من تكلم في القدر ، فيما يقول معظم الباحثين .

(24) ثاني من تكلم في القدر ، صلبه هاشم بن عبد الملك بباب دمشق .

(25) أحد شيخي المعتزلة الأولين ، كون فرقة المعتزلة ، مع واصل توفي سنة 142 ، 143 ، أو 144هـ.

(26) اعتزل شيخه الحسن البصري ، وكون فرقة المعتزلة ، ولد سنة 80هـ ، وتوفي سنة 181هـ .

(27) إبراهيم بن سيار البلخي ، المعروف بالنظام (انظر الهامش 16 من الفصل الثاني من الباب الأول) .

(28) كان من متكلمي المعتزلة ، وقد ورد ذكره في رسالته (التربيع والتدوير) (وهو غير أبي علي الأسواري) .

(29) مجموعة رسائل « الجاحظ » : ص 126 . ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 231 ، 262

يعـرف أين مأتـاه « وما تـدري في أي الحالين أنت أجمـل ، وفي أي المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أم إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أم إذا تأملنا بعضك ؟ فأما كفك فهي التي لم تخلق إلَّا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ويختال بها كل ما صار فيها ، وكم أصبحنا وما ندري : الكأس في يدك أحسن ، أم القلم ، أم الرمح الذي تحمله ، أم المخنصرة ، أم العِنـان الذي تمسكـه أم الصوت الذي تعلقه ؟ وكما أصبحنا وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك أحسن وأيها أجمل وأشكـل : اللمة ، أم مخط اللحيـة ، أم الأكـاليـل ، أم العصـابـة ، أم التـاج ، أم العمامة ، أم القناع ، أم القلنسوة ؟ فـأما قـدمك فهي التي يعلم الجـاهل كمـا يعلم العالم ، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلَّا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم . وأمـا فوك فهـو الذي لا نـدري : أي الذي تتفـوه به أحسن وأي الذي يبدأ بـه أجمل ، الحـديث ، أم الشعر ، أم الاحتجـاج ، أم الأمر والنهي ، أم التعليم والوصف ؟ .

وعلى أننـا ما نـدري : أي ألسنتك أبلغ ، وأي بيـانـك أشفى ، أقلمـك ، أم خطك ، أم لفظك ، أم إشـارتك ، أم عقـدك ؟ وهل البيـان إلَّا لفظ ، أو خط ، أو إشارة ، أو عقد ؟ ! وأنت في ذلـك فوقهم والحمـد للَّه ، وواحدهم وأعيـذك باللَّه ، وأنت تجوز الغاية ، وتفوق النهاية »[30] .

وقد أصبح «ابن عبد الوهاب» عند الجاحظ حديث الإماء والنساء والعلماء، والأدباء، بل تعلق الجميع به هياماً وعشقاً وولهاً، لحسنه وجماله الفائقين. يقول «الجاحظ» :

« وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلَّا وهي تتعثر باسمك ، ولا قينة إلَّا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة إلَّا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبـة إلَّا وهي تثقب الخروق لممرك ، ولا عجوز إلَّا وهي تدعو لك ، ولا غيور إلَّا وقد شقي بك ، فكم من كبد حرى منضجة ، ومصدوعة مفرقة ، وكم من حشاً خافق ، وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة ، وأخـرى جاهـدة ، وأخرى بـاكية ، وكم من عبـرى مولهـة ، وفتاة

(30) مجموعة رسائل الجاحظ : ص 114 . ورسائل الجاحظ ، للسندوبي ص 218 ، 219

معذبة ، قد أفرح قلبها الحزن ، وأجمد عينها الكمد ، قد استبدلت بالحلي العطلة ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المسرة ، فأصبحت والهة مبهوتة، وهائمة مجهودة ، بعد طرف ناضع ، وسِن ضاحك ، وغنج ساحر وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج ؟! وليس حسنك ـ أبقاك اللّه ـ الحسن الذي تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة ، أو يدوم معه عهد ، أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه للتثبت ، أو يتسع للتخير ، أو ينهه زجر ، أو يهذبه خوف ، هو ـ أعزك اللّه ـ شيء ينقض العادة ، ويفسح المنة ، ويعجل عن الروية ، ويطرح بالعراء ، وتنسى معه العواقب ولو أدركت « عمر بن الخطاب » لصنع بك أعظم مما صنع بـ « نصر بن الحجاج »[31] ولركبك بأعظم مما ركب به « جعدة السلمي »[32] ، بل لدعاه الشغل بك إلى ترك التشاغل بهما ، والغيث عليك إلى الرحمة لهما ، فمن كان عيب حسنه الإفراط والطعن عليه من جهة الزيادة ، كيف يردنه عاقل ، أو ينتقصه عالم؟ فلا تعجب إن كانت نهايته الهمة ، وغايته الأمينة »[33] .

(هـ) حياته سبقت آدم :

ويبالغ ويغلو « الجاحظ » ـ على طريقة « الكاريكاتير » ـ في طول عمر « ابن عبد الوهاب » ومد حبل حياته إلى غير غاية ، حتى لا تعرف بدايته ، وجعل مولده من

---

(31) هو نصر بن الحجاج السلمي ضرب به المثل في الجمال ، حتى تغنت بعض النساء به فقالت :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن الحجاج

فلما علم عمر بذلك حلق جمته ، فصار أجمل من ذي قبل فأمر بنفيه وقد أورد الجاحظ في كتابه « الحيوان » قصة عقاربه السامة فقال : (كان في دار نصر بن الحجاج السلمي عقارب إذا لسعت قتلت ، فدب ضيف لهم على بعض أهل الدار فضربته عقرب على مذاكِره ، فقال نصر يعرض به :

وداري إذا نام سكانها ... أقام الحدود بها العقرب

إذا غفل الناس عن دينهم ... فإن عقاربها تضرب

قال : فأدخل الناس بها حواء ، وحكموا له شأن تلك العقارب ، قال : إن هذه العقارب تستقي من أسود سالخ ، ونظر إلى موضع في الدار فقال : أحضروها هنا . فحضروا عن أسودين : ذكر وأنثى ، وللذكر خصيتان ورأوا حول الذكر عقارب كثيرة فقتلوها . (راجع الحيوان جـ 4 ص 217 - 218) .

(32) كان من بني سليم ضرب المثل بجماله ، وناله ما نال نصر بن حجاج على يد عمر بن الخطاب .

(33) مجموعة رسائل الجاحظ : ص 113 ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 117 - 118.

(الخودة : الشابة الجميلة . مفرثة : أي مشقوقة . المرة : عدم التكحيل وتفرج الجفون) .

الخفي الغامض الذي لا يستطيع أحد الوقوف عليه ، لانطوائه في مجاهل الزمن وتتبع الحقب عليه ، مع زعم « أحمد بن عبد الوهاب » أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ، وذلك يسلمنا إلى التناقض الواضح بين صورته التي يراها « الجاحظ » ، وبين ما يزعمه « أحمد بن عبد الوهاب » ، والتناقض والاختلاف الجوهري بين الأصل والصورة بكثرة الخطوط التي يحدثها في تقاسيم الوجه وبتفريجها ، وبانحناء خط الظهر وتقويسه وبتغيير الأصباغ بتحويل لون الشعر إلى الأبيض الناصع بعد أن كان أسود فاحماً ، كل هذا ضرب من التصوير الهزلي ، ولو من الألوان الرسوم الساخرة .

كما أن بين الأصل والصورة تناقضاً أعظم ، وتضارباً أعم وأشمل ، يصل إلى العبث بالعقول والهزء والاستخفاف بصاحب الصورة ، بتصويره في شكل غريب ، ووضع مستحيل ، يجعله أقدم من أبيه ، ومن رأس قبيلته « بجيلة »[34] ، بل أقدم وأسن من جده الأعظم « قُحطان »[35] وهذا القدم يجعله يستغل أعمار المعمرين. ويعتبرهم أطفالاً إذا قيسوا به و « نوح »[36] ـ في قياسه ـ لم يعش طويلاً !

ويمكن للمصور أن يعتبر امتداد عمر شخصٍ ما ـ أو عمر «ابن عبد الوهاب» ـ بطول اللحية وبياض شعرها ، وانحناء الظهر ، وكلال البصر ووهن الجسم وتخاذله ، ولكنه مهما بالغ ، وامتلك الريشة الذهبية ، والموهبة الابتكارية ، فإنه لا يمكنه أن يجعل هذا العمر الممتد شباباً ، ولا يستطيع أن يجعله أقدم من أبيه ، ومن قبيلته ، ومن « نوح » و « آدم » . . . وهل يمكنه أداء ذلك في صورة « كاريكاتيرية » أو غير «كاريكاتيرية»؟! ولكن طبيعة «الجاحظ» السخرية ، وبراعته التعبيرية ، ومقدرته الغنية ، أتاحت له ذلك ، وأباحت له حرية استخدام الألوان والخطوط فاستطاع أن يجلس « ابن عبد الوهاب » تجاه « أفلاطون » و « أرسطاطاليس » ، يناظرهما ويجعله يصاحب « نوحاً » في سفينته ويعرف الإنس منذ خلقوا ، ويشاهد الجن قبل أن يحجبوا ، وكأنه ليس إنساناً ولا جناً ، لأنه أقدم من خلقهم ! : « ولم أزعم أنك رجل

---

(34) قبيلة « أحمد بن عبد الوهاب » ، كما نص على ذلك « الجاحظ » هنا .

(35) قحطان بن عابر بن شالح ، جد أعراب جنوب شبه الجزيرة العربية ، ويقال إنه أول من ملك أرض اليمن ، ولبس التاج .

(36) نوح : نبي اللّه (عليه السلام) ، لبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً ، ثم أخذهم الطوفان ونجى اللّه نوحاً ومن تبعه في السفينة التي أخذ فيها من كل زوجين اثنين .

يمان ، لولادته لك في « قحطان » ـ كيف » ؟! .

وأنت أقدم من « قحطان » و « معد بن عدنان »[37] ، ومن القرون التي خبر اللّه عن كثرتها وعن آبائها وأجدادها ! ولكنك منهم بالهوى والنصرة ، ولأنهم كانوا لك أحشاماً وصنيعة[38] ، « فخبرني ماذا جرى بينك وبين « هرمس » في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من « أفلاطون » ، وما دار في ذلك بينك وبين « أرسطاطاليس » ؟ وأي نوع اعتقدت ، وأي شيء اخترت ؟ فقد أبت نفسي غيرك وأبت أن تشفى إلاّ بخبرك»[39]. «إنك لا تعد عمر «نوح» عمراً، ولا النجوم يوماً، وإنك قدْ فُتّ التأريخات واستقللت الأحقاب ، وخرجت من خطوط الهند لما استطالت أعمارها ، ولا فرحت بطول أيامها »[40] ، « قد شاهدت الانس منذ خلقوا ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ، ووجدت بنفسك الأشياء خالصة وممزوجة ، وأعقالاً وموسومة ، وسالمة ومدخولة »[41] .

3 ـ مقارنته بالمشاهير :

يقرن « الجاحظ » ، « ابن عبد الوهاب »، في الصورة الهزلية الوسيعة التي رسمها في رسالة « التربيع والتدوير » ، بمشهوري الرجال ، ويجعله نداً لهم ، بل يرفعه ليتفوق عليهم ، ويبذهم فيما شهروا به ، حلماً ، وعلماً ، وحكماً ، ورزانة ، وفروسية ، وارتقاؤه عليهم مجتمعين ، وتفوقه على كل منهم في أبرز ما عرف بإجادته له ، مع ما أثر عن « ابن عبد الوهاب » من غرور وادعاء ، وما روي عنه من جهل وعي ، يدل على أن الصورة لم يرد بها المصور تعظيم صاحبها وتبجيله ، وإنما أراد تشويهه واللهو به ، وتجسيم عيوبه وأخطائه ، وإبراز مواربة حادة في منظر ساخر مقلوب ، وهذا شبيه بـ « كاريكاتير » مصور بالفرشاة لشخص على رأسه ، ففيه من الطرافة قلب الحقائق ، ورؤية الأشياء معكوسة الوضع ، فالأعالي أسافل ، والمجد

---

(37) معد بن عدنان : من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والعدنانيون هم العرب المستعربة .

(38) مجموعة رسائل الجاحظ ص 122 . ورسائل الجاحظ للسندوبي : ص227 - 228.

(39) المصدر نفسه : ص 106.

(40) المصدر نفسه : ص 196

(41) المصدر نفسه : 102.

والرمقة ضعة وانحطاط ، وما درى « ابن عبد الوهاب » في « الكاريكاتير » اللفظي له ، والشخص الذي يقف على رأسه ، ويمثله في « الكاريكاتير » ، المرسوم ، أن العالم معتدل ، وأن الانقلاب إنما هو في وضع كل منهما وفي هيئته .

ومن هذه الغفلة والتنكيس ، ورؤية الأشياء مقلوبة ، والحكم عليها بعكس ما تستحقه ، يستمد السخر قوته ، ويبلغ التصوير الهزلي ذروته ، وما ذلك على « الجاحظ » بعزيز ، حين يمسك قلمه ، ليقول :

« وأشهد ، بعد هذا ، أنك ستخاشن « عمرو بن بحر الجاحظ » وتعاقله ، ثم تظارفه وتطاوله ، وتغني مع « مخارق » وتنكر فضل « زرزور » ، وتستجهل « النظام »[42] ، وتستبرد « الأصمعي » و وتستغبي « قيس بن زهير »[43] ، وتسخف « الأحنف بن قيس »[44] ، وتبارز « أبا الحسن علي بن أبي طالب »[45] (رضي اللّه عنه) ، ثم تخرج من حد الغلبة إلى حد المراد ، ومن حد الأحياء إلى حدود الموتى »[46] .

4 ـ تجسيد عيوبه:

قد يصرح « الجاحظ » بعيوب « ابن عبد الوهاب » ، ويجأر بشينه ، وذلك نادر في الرسالة ، وأندر منه أن تكون العيوب المصرح بها جسمية ، أما الغالبية العظمى لسخره في الرسالة ، فإنها تتصل بالناحية العقلية أو النفسية أو الخلقية ، حين يرى شذوذها والتواءها ، وهو لا يبلغ في ذلك عند التصريح غالباً ، إذ هو رجل الفكر الدقيق ، والنفس المرحة ، والأدب الراقي ، ومن كان كذلك قل تصريحه بالعيوب ،

---

(42) النظام : هو إبراهيم بن سيار البلخي ، استاذ الجاحظ (وقد سبق التعريف به) .

(43) قيس بن زهير : أخوه « خداش بن زهير بن ربيعة » من عامر بن صعصعة كما نسبه الآمدي في (المؤتلف والمختلف ، ص 107) أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية ويقال : إن أباه قتلته قريش أيام الفجار .

(44) الأحنف بن قيس : من رجالات العرب المعروفين ، اشتهر بالسماحة والحلم ، حتى صار يضرب به المثل ، فيقال: « أحلم من الأحنف » .

(45) أبو الحسن علي بن أبي طالب : الخليفة الرابع (رضي اللّه عنه) ، (35 - 40هـ = 650 - 661م) ، ولد قبل البعثة بعشر سنين وتوفي عام 40م .

(46) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص95.

وإبداء المخازي ، وكشف العورات ، وإن كان قصده التقويم والإصلاح ، لأن كشف العيوب وذكرها دون مواربة أو تستر وبخاصة إذا كانت جسمية ، من صفات الغمر الذي لم يتمرس بالأدب ، أو الفظ الذي لا يحفل بالناس ، أو الوقاح من السوقة والرعاع ، أو الجاهل بوسائل التقويم والإصلاح ، ولم يكن « الجاحظ » واحداً من هؤلاء ، لذلك اتخذ الأسلوب اللين ، والعبارة المغلقة ، طريقاً للسخر ، وصبغها بالتصوير الهازل ، يرى أنها أكثر إيجاعاً ، وأعون على تحقيق الغرض وأرفق بمن يود تقويمهم وإصلاحهم وأليق بمخاطبة العلماء والأدباء وعلْية القوم .

ومن عيوب « ابن عبد الوهاب » التي صورها « الجاحظ » في تصويره الساخر فأبدع وأوجع :

(أ) إدعاؤه ما ليس فيه :

إن لهذا العيب أهميته في تشويه الصورة ، وتلطيخ معالمها ، وتجليلها بالسواد ، حتى بدت كما هي عليه ، من وجهتين : (أولاً) لأن هذا العيب داء عياء ، ومرض وبيل ومن أقبح الصفات التي تنسب إلى العلماء والمفكرين الذين يعتمدون ، أو من المفترض أنهم يعتمدون ، على التحقيق والتجربة والواقع ، بل إنهم غالباً ما ينقصون أنفسهم عظمتها ، ويهضمونها حقها من السمو والرفعة ، فهم أرفع من أن يتصفوا بالنفج والادعاء .

وقد كان « الجاحظ » عالماً ، ومفكراً ، وأديباً ، فكان هذا العيب أشد ما غيظه ممن يتصفون به ، فما بالك إن كانوا لا يتعلقون من العلم بسبب ؟! .

(ثانياً) : لأن هذا العيب ـ أيضاً ـ يمنح الصورة لوناً من المسخ ، ونوعاً من الشذوذ ، وكثيراً من التنافر ، بين عضو وعضو ، بين الصورة برمتها ومن نقلت عنه ، فيؤدي بها إلى التشويه والمسخ والسخر منها .

لقد اتخذ « الجاحظ » من هذا الخط الأسود ، في نفسية « ابن عبد الوهاب » منطلقاً لرسم الصورة الهزلية له ، مقارنة بالحقيقة ، لتبيين الفوارق ، فيتضاعف الهزل والهزء ، فقال : « كان « أحمد بن عبد الوهاب » مفرط القصر ، ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً ، وتحسبه ـ لسعة جفرته ، واستفاضة خاصرته ـ مدوراً! وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو ـ في ـ ذلك يدعي البساطة والرشاقة ، وأنه

عتيق الوجه ، أخمص البطن معتدل القامة ، تام العظم ! وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو ـ مع قصر عظم ساقه ـ يدعي أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطي البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ! وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو يدعي أنه معتدل الشباب ، حديث الميلاد . وكان ادعاؤه لأصناف العلم ، على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها ، على قدر رغبته فيها ! وكان كثير الاعتراض ، لهجاً بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفاً بالمجاذبة ، متتابعاً في العنود ، مؤثراً للمغالبة مع (إضلال الحجة) والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف ، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب ، ونكد الخلاف وما في الخوض من اللغو الداعي إلى السهو ، وما في المعاندة من الإثم الداعي إلى النار ، وما في المجاذبة من النكد ، وما في المغالبة من فقدان الصواب ! وكان قليل السماع غُمراً ، وصحفياً غفلاً لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار الحق ، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب إلَّا الانتحال لاسم الأدب »[47] .

وهذا يؤيد ما سبق آنفاً ، من أن تصريح « الجاحظ » بالعيوب نادر ، والأندر منه أن يتناول العيوب الجسمية ، فهو ـ هنا ـ لم يتناول العيوب الجسمية إلَّا ليصل منها إلى بعض عيوبه النفسية ، وهو الادعاء والكذب عن طريق ذكر الواقع ثم ذكر الناتج والافتراء .

(ب) جهله البدهيات :

إلى الصورة الأدبية الفنية الشاملة ، يضيف « الجاحظ » خط الجهل ، لتكتمل معالمها ، وتظهر من جميع نواحيها ،ويتم التشويه والمسخ فيها ، فتبدو صورته

---

(47) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص 85 - 86. ورسائل الجاحظ للسندوبي ص 187.
(جفرته : وسطه . جعد : ملتو . عتيق : جميل . أخمص : ضامر فارغ . الباد : باطن الفخذ . لهجاً : ملازماً له . غمراً : عديم التجارب . صحفياً غفلاً : مجرد من المزايا والصحفي من أخذ من الصحف علمه ولم يلق العلماء) .

الصور ، ويعجز المفتنون عن اللحاق به ، وهل في مقدرة المصور ، أو الرسام ، أو المثال أن يمد في الصورة خيط جهل ؟! . وذلك عند « أبي عثمان » ، أوثق خط بالتشويه ، لأنه من الأدباء والعلماء المفكرين ، الذين يجلون العقل ويقدسونه ، ويحتقرون الجهل ويمقتونة ، ويرونه أقبح القبائح ، وأبشع الصفات ، ورأس كل داء .

فلما أراد أن يكسو صورة « ابن عبد الوهاب » البشاعة والشناعة ، اتخذ الجهل رداء ، ومد خطوطه ، وحاك خيوطه ، ونسج منه قلنسوة توجه بها ، بعد أن أجلسه على عرش الادعاء الواهي ، فكشف خللاً من كل فكر سديد ، ومنطق رشيد ، وخبر مفيد ، وعرضه للتردي في هوة ساحقة تمحق ما بقي من إنسانيته ، وأرانا ظلمة عقله الحالكة وجهله الفريد ، والجهل تشويه للعقل ، وتحقير للمرء ، وسلب لأهم ما به الإنسان إنساناً ، وابراز له في صورة آدمية ، وحقيقة غير آدمية ، تخدع الناظرين في اللمحة العابرة ، حتى إذا تأملوا باطنها ، وكشفوا أغوارها ، برزت لهم الخدعة وفهموا مغزى التصوير الفني الساخر ـ « الكاريكاتير »[48] ـ فسخروا ، واستولت الهشاشة على وجوههم ، وغمرت البشاشة قلوبهم ، يقول « الجاحظ » :

« وكان قليل السماع غمراً ، وصحفياً غفلاً ، لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحق ، يعدد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق بهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب إلَّا الانتحال لاسم الأدب »[49] .

ثم يقول أيضاً : « وقدْ رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة استبطاناً ، ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عياناً ، وأنت لا ترضى بمجد العيان حتى تدعو إليه ، وترضى بالدعاء إليه حتى تعادى فيه ، ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ، ولا ترضى بالرئاسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون التالد ، ولا بالتالد

(48) فن التصوير الساخر (سبق التعريف به) .

(49) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص 85 - 86

دون الأعراق التي تسري ، والمواليد التي تنمي »[50] .

(جـ) عدم قابلية التعلم :

إذا كـان « ابن عبـد الـوهـاب » ـ في الصـورة ـ متشحاً الجهـل ، منكـراً المحسوس ، فإننا نراه في زاوية أخرى من زوايا الصورة ، مغلق العقـل ، محجوب الفكر ، غير قابلٍ للتعلم ، كل شيء بالنسبة له غامض مستغلق ، لا يدرك حقيقته ، ولا يفهم معناه إلَّا بعد الجهد الجهيد ، والزمن المديد ، فقد أبت عليه جبلته وطبيعته أن يكون للمعرفـة مدخـل إلى ذهنه ، فقـد خلق عقله أبيض ناصعـاً ، فعكس أشعة المعرفة الساقطة عليه ، ويردها دون أن تؤثر فيه ، أو تترك عليه بصماتها .

ولو أن عقل « ابن عبد الوهاب » أعيد صهره وتشكيله ، لما قبل بطبعة الصهر والتشكيل ، بل لما لان ، ولا أثرت فيـه حرارة ، يقـول الجاحظ : « وأنت ـ جعلت فـداك ـ ! لا تعرف هـذا ، ولو أدخلتـك الكور ، ونفخت عليـك إلى يـوم ينفـخ في الصور »[51] .

(د) التـــواء طبـــاعـــه :

وكما فعلت الصورة الساخرة المسخ والتشويه في جسم « ابن عبد الوهاب » ، فجعلته قصيراً مربعاً مدوراً ، فقد فعلت ذلك بنفسيته وعقليته وطباعه ، فجعلته ملتوياً معقداً ، مما جعل « الجاحظ » الطبيب يلتقط الصورة بالأشعة الملونة ، تبرز خفاياه ، وتبدي تشويهاته ، بل تضيف إلى تشويهه تشويهاً ، فلا نرى من الصورة إلَّا الهيكـل العـظمي ، والأورام ، والكسور ، والالتـواءات ، ثم يضعه على مـائدة التشـريـح ، يخرج أحشاءه ، ويفحص جراثيمه ، تحت مجهر هزئه ، فتعظم وتتضاعف ، ويكوي بميسمه موطن الداء ، ويزيل بمبضعه فاسد الأحشـاء ، لعل الـدواء ينجح ، والكسـور تجبر ، والأورام تزول .

ولكن نفس « ابن عبد الوهاب » قد خبثت ، والأورام فيه قد انتشرت ، وعمل

---

(50) المصدر السابق ، ص 119

(51) المصدر السابق ، ص 89.

الجاحظ حينئذ لا يفيد إلاَّ في تنبيه الناس ، وبث الوقاية بينهم ، وإظهار الالتواءات والتشويهات في تكوين « ابن عبد الوهاب » وطباعه ، وسلوكه الفظ ، والادكار بما آلت إليه حاله للمرح والسرور ، لأن طباعهم سلمت ، وعقولهم صحت ، ونفوسهم اعتدلت . ولنستمع إلى « الجاحظ » الطبيب يخاطب مريضه ، مبيناً نتيجة التحليل ، وفحص الأشعة : « وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة ، وترى أن مباينة المنصفين في تعظيم العنود سعادة ، وترى أن الرئاسة في دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار بما يظهر للعيون ضعفة وأن الشهرة بالمبالغة رفعة ، أظهر القوم عندك حجة ، أرفعهم صوتاً ، وأخلقهم للتشويه ، أصلبهم وجهاً ، وأحسنهم تقية ، أفلحهم تحرجاً ، وأكثرهم عندك إنصافاً ، أشدهم شغباً ، تسيف المقهور ، وتكلف بالجموح ، وتصافي الوقاح ، والأديب عندك من يعيب أحاديث الجلساء ، واعترض على نوادر الإخوان ، وغمز في قفا النديم ، ونصب للعالم وأبغض العاقل ، واستثقل الظريف ، وحسد على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة »[52] .

5 ـ موازنته بالجاحظ :

وإمعاناً في كشف شوهة « ابن عبد الوهاب » وتجسيد عيوبه ، ووضعه أمام مشاهديه في صورة ضاحكة ، ساخرة ، جعل صورته تقابل صورة « الجاحظ » في وضع لا تتم فيه المقارنة ، ولا تصح الموازنة ، لما بينهما من تناقض في جل الصفات ، وتتولد السخرية في اللوحة من هذا البعد الشاسع ، ومن أن الموازنة بينهما كالموازنة بين الضدين ، وكالجمع بين النقيضين . وليس المراد ـ مراد « الجاحظ » ـ بالموازنة تبين أوجه الاتفاق ونواحي الاختلاف ، لأنه لا اتفاق ، وإنما المراد السخرية ، ورسم الصورة الهزلية المضحكة لمشوه ممسوخ ، يوضع بإزاء كامل جميل في لوحة واحدة ، وهذا الاقتران وحده كفيل بالتشويه والاضحاك ، يقول « الجاحظ » ، حين يعرض الصورتين من الناحية الجسمية : « فأما الباد والقامة ، فمن يعدل بين القناة والكرة ؟ ومن يمثل بين النخلة والدكان ؟ وبين رحى الطحان وسيف يمان ؟! وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين وأنقض الشرين ، وبين

---

(52) المصدر السابق ، ص 119 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

المتقاربين دون المتفاوتين ! فأما النحل والعسل ، والحصاة والجبل ، والسم والغذاء ، والفقر والغنى ، فهذا ما لا يخطىء فيه الذهن ، ولا يكذب فيه الحس »[53] .

وحين يعرض الصورة من الناحية الفكرية والخلقية ، يقول : « وقد سألتك ، وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي ، وابتدىء بنفس التشبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال ، وأن تنكر منعك بعد التمكين والبذل بعد التقريع والشحذ ، فلا يبعد اللّه إلاَّ من ظلم »[54] ، « فأنت ـ واللّه يا أخي ـ تعلم علم الاضطرار ، وعلم الاختيار ، وعلم الأخيار ، أني أشد منك عقلاً ، وأظهر منك حزماً ، وألطف كيداً ، وأكثر علماً ، وأوزن حلماً ، وأخف روحاً ، وأكرم عيناً ، وأقل غشاً ، وأجل قدراً ، وأبعد غوراً ، وأجمل وجهاً ، وأنصع ظرفاً ، وأكثر ملحاً ، وأنطق لساناً ، وأحسن بياناً ، وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشدو من العلم ، وتنتف من الأخبار ، وتموه نفسك ، وتفر من قدرك ، وتتهيأ بالثياب ، وتتنقل بالمراكب ، وتتحبب بحسن اللقاء وليس عندك إلاَّ ذلك . فلم تزاحم البحار بالجداول ؟ والأجسام بالأعراض ؟ وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ »[55] .

* * *

وحين يعرض الصورة من ناحية النسب والأنصار ، يقول « الجاحظ » : « واللّه ، لئن رميتني بـ (بجيلة) لأرمينك بـ (كنانة)[56] ، ولئن نهضت بـ « صالح بن علي » لأنهضن بـ « أحمد بن خلف » وبـ « إسماعيل بن علي » ، ولئن صلت علي بـ « سليمان بن وهب » لأدفعنك بـ « الحسن بن وهب » ، ولئن تهت علي بمنادمة

(53) رسائل الجاحظ ، نشر حسن السندوبي ، ص 223 - 224.

(54) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 226 ، الطبعة الأولى ، المطبعة الرحمانية مصر ، 1933م .

(55) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 223.

(56) بجيلة : قبيلة يمانية ، ومنها أحمد بن عبد الوهاب . وكنانة : قبيلة الجاحظ .

« جعفر الخياط » لأتيهن عليك بخسة « وهب الدلال » ! وأنا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله ـ تعالى ـ في طول السلامة ! »[57] .

وبذلك يتضاءل « ابن عبد الوهاب » أمام « الجاحظ » العملاق ، ويكاد يذوب ضعة وانحطاطاً ! .

6 ـ قلب حقيقته :

وقد يقلب الجاحظ حقيقة « ابن عبد الوهاب » ، ويغير معالمه ويبرزه في صورة « كاريكاتيرية » هازلة ساخرة ، قصداً إلى السخر ، ورغبة في الإضحاك .

ومن الجوانب الهزلية ، والأصباغ الكيميائية التي يضيفها إلى الصورة ، فيكون التفاعل القوي ، والمرح الظاهر والخفي :

(أ) جمعه المتناقضات :

فمن الومضات الفنية لصورة « ابن عبد الوهاب » الهزلية ، أن جعله « الجاحظ » متحفاً للمتناقضات ، وذلك يؤدي بالصورة إلى التضارب والتشويه ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، بل إنه يبعد بها عن المعقول والممكن ، فيخلق الشخصية الغامضة المعقدة ، بل الشخصية الخرافية الممسوخة ، التي تجلب دهشنا ، لبراعة تأتيه ، وجودة مسخه ، وسخرنا لما صارت عليه من الخروج عن الإلف ، ونفور من العقل كما نسخر من غريب الهيئة والأبله ، يقول « الجاحظ » مخاطباً « ابن عبد الوهاب » :

« فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول »[58] ، « وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور النقصان والزيادة إياك ، جوهرك فلكي ، وتركيبك أرضي ، ففيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة

---

(57) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 223.

(58) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص 89.

للمتضاد وسبب للمتنافي ، وما ظنك بخَلْق لا تضرُّهُ إلاّ حالة ، ولا يفسده التناقض ؟! »[59] .

(ب) جد قصد به الهزل :

قد يتحدث « الجاحظ » حديثاً جاداً مراده الهزل ، ويبدي محاسن « ابن عبد الوهاب » ويطري محامده ، والقصد همزه ولمزه وتشويهه وغمزه ، كمن ينحت تمثالاً من الحجر ، ثم يطليه بالذهب ، في صنعة جيدة ، وتمويه متقن ، ولكنه يترك جزءاً صغيراً من جسمه دون طلاء ، فيفضح به أمره ، ويهتك ستره ، ويدل به الناس على روائه الزائف ، وبهرجه الكاذب .

وقد تعمد « الجاحظ » ـ في هذه اللوحة الواسعة ـ التي لونها بأصباغه أن يترك في بعض زواياها نكتاً سوداء من نفسية « ابن عبد الوهاب » ، وعقليته وشوهة جسمه ، يتركها دون طلاء ، لتعرفنا أمره ، وتوقفنا على حقيقته ، وتدلنا على عيوبه ، فيكون كمصاب بالبرص[60] ، ينتشر في جلده البياض ، تتخلله قطع من جلده في لونها الأصلي لم يصبها البرص ، فتدل على عيوبه ، وتبرز شينه . إن ذلك اللون الأبيض حسن في مرأى العين ، لكنه لما كان مرضاً ، بدا للنظر أسود مُنكَراً ، فصورته التجميل ، وحقيقته التقبيح ، كالذهب المموه على التمثال ، وكالصفات الجذية التي طلي بها « أحمد بن عبد الوهاب » ، فلم تمنع الهزل عن الظهور تحتها ، وكشف أمرها ، وبيان الغرض من التصوير على هذا النحو الذي يقول فيه : « وقد كنت ـ أطال اللّه بقاءك ـ ! في الطول زاهداً ، وعن القصر راغباً ، وكنت أمدح المربوع ، وأحمد الاعتدال ، ولا ـ واللّه ـ أن يقوم خير الاعتدال بشر قصر العمر ، ولا جمال المربوع بما يفوت من منفعة العلم ، فأما اليوم : فيا ليتني كنت أقصر منك وأضوى ، وأقل منك وأقمى وليس دعائي لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على وجه التعبد والاستكانة ، فإذا سمعتني أقول : أطال اللّه بقاءك ! » فهذا المعنى أريد ،

---

(59) حسن السندوبي : رسائل الجاحظ ، ص 203.

(60) البرص : بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج (مرض) (القاموس المحيط) : مادة ب ر ص) .

وإذا رأيتني أقول : « لا أخلى اللّه مكانك ! » فإلى هذا المعنى أذهب »[61] . « ومما يثبت أيضاً أن ظاهر عرضك مانع من إرادة حقيقة طولك ، قول « أبي داود الإيادي »[62] :

سمنت واستحش أكرعها   لا النِّي نِيّ ولا السَّنَامُ سنامُ

وقول « رافع بن هريم »[63] :

أدقُّ شَواها عند بُهْرة جوْفها   سَنامٌ كقَصْرِ الهاجِريِّ مُقَرْمدُ

ولِمَ لَمْ يكن من العجب إلاَّ أنك أول من تعبده اللّه ـ تعالى ـ بالصبر على خطأ الحس ، وبالشكر على صواب الذهن .

لقد كنت في طولك آية للسابلين ، وفي عرضك مناراً للضالين »[64]، « ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ، ومن القناعة والإخلاص ، إلاَّ أنك ترى أن ما عند اللّه خير لك مما عند الناس ، وأن الطول الخفي أحب إليك من الطول الظاهر ، كان ذلك مما يشهد لك بالإنصاف ، ويحكم لك بالتوفيق »[65] .

(جـ) التلاعب بعقله :

يقف « الجاحظ » من عقل « ابن عبد الوهاب » وتفكيره موقف لاعب الكرة الماهر ، فهو يقذفها ـ يقذف الكرة ـ إلى أعلى ، ثم يتركها تهبط ، يعنف في ضربها بقدمه ثم يلين ، ينفخها حتى يكبر حجمها ويستدير جرمها ، ثم يطويها لإفراغ الهواء منها . . .

---

(61) رسائل الجاحظ ، للسندوبي ، ص 202.

(62) أبو داود الإيادي : لا تروي الرواة شعره هو وعدي بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، ولسهولة منطقهما مع أنهما من القدماء .

(63) رافع بن هزيم بن سعد يربوعي ، شاعر جاهلي قديم ، قال أبو زيد في نوادره : أدرك الإسلام (راجع اللآلىء ص 80) في شرح آمالي القالي ـ لأبي عبيد البكري نشره عبد العزيز الميمني ، طبع لجنة التأليف والترجمه والنشر ـ القاهرة سنة 1936م

(64) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 191 - 192 (وفي مجموعة رسائل الجاحظ : للمضلين ، بدل الضالين) .

(65) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص 90

أو هو ـ أعني « الجاحظ » ـ يتلاعب به ـ « بـابن عبد الـوهاب » ـ لعب الصبي بدُميته الغريبة الهيئة ، ويطويها بخيط من المطاط ، يرمي بها إلى أسفل وإلى أعلى ، وإلى اليمين وإلى اليسار ، أو يقلبها ويرفعها ، وهو آمن وصولها إليه ، وارتدادها له ، وامتلاكه إياها ، ما دام الخيط في يده ، وهي لا تملك لنفسها حولاً ولا حيلة . .

أو يفعل بها ما يفعل بالصور المتحـركة في دار الخيـالة أو مـا يفعل بـالعرائس الخشبية في المسرح الضاحك أو مسارح الأطفال .

وإذا كان التلاعب بهذه الجمادات بـاعثاً على انشـراح النفس وبهجتها ، دالاً على حذق اللاعب ومهارته ، فإن اللعب بعقل « ابن عبد الوهاب » ، الآدمي يضيف إلى الانشراح والبهجة والحذق والمهارة والهزء والاستخفاف ، والهزل والسخريـة ، وحرية الحركة وعمقها في المسخ والتشويه ، حيث طمس آدميته رغم وجوده ، وأبطل نبضات عقله وألغاه ، وهو يحمله في رأسه ، وذلـك محط الهزل ، ومـدار السخر ، يقول « الجاحظ » : « وأمـا إدراكك الشخصي البعيـد ، وقراءتـك الكتاب الـدقيق ، ونقش الخـاتم قبل الـطبع ، وفهم المشكـل قبل التـأمل ، ومـع وهن الكبـر وتقـادم الميلاد ، ومع تخون الأيام ، وتنقص الزمان ، فمن تـوتياء الهنـد ، وترك السمـاع ، ومن الحمية الشويدة ، وطول استقبال الخضرة فأنت ، يا عم ، حين تصلح ما أفسد الدهر ، وتسترجع ما أخذت منك الأيام لكما قال الشاعر :

عجُـــوز تُـرجَّىٰ أَن تَكُـــون فَتِيَّـــةً ... وقد لَحِب الجنْبَانِ واحْدودبَ الظَّهْرُ
تـــدسُّ إلى العـطّار ميـــرةَ أَهلِهَـا ... وهل يُصلح العطّار ما أفسدَ الدَّهرُ[66]؟

وفي مـوطن آخر يقـول « الجاحظ » : « والـراسخـون في العلم، والنـاطقـون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، وإذ قد سلموا لك بالرّغم شَطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ! ولعمري ، إن العيون لتخطىء ، وإن

---

(66) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 197

الحواس لتكذب وما الحكم القاطع إلاَّ للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلاَّ للعقل، إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس »[67] .

7 ـ إفحامه بالأسئلة :

ثم يوجه إليه الأسئلة الكثيرة ، ليبين فسولته ، وضحالة حصيلته ، ونضوب قريحته ثم يحيله إلى كتبه العديدة ، يلتمس الإجابة منها ويتعلم بين دفتيها ، ليظهر « الجاحظ » لنفسه ، الأستاذية والحذق والعبقرية .

ولا يهم « الجاحظ » جوابه ، ولا يعنيه رجوعه إلى كتبه ، وليس غرضه إزاحة غياهب جهله، وإنما وكده الزراية بعقله وعلمه، ووصفه في إطار قاتم من البلادة والبلاهة ، وجعله « كاريكاتيرياً » مشوهاً ، صورة بالغة السخرية لمن يدعي العلم ولا علم لديه ، ولمن يغَامرُ بذكائه وعقله وهو بليد غبي ولمن يطاول أستاذه ويخاشنه ، وهو أحط من أن يكون تلميذه ، ولقد أوضح « الجاحظ » الطريقة التي بها يذله ويمسخه في رسالته ، وهي الأسئلة التي يلقيها إليه ، ويطلب جوابها منه ، ثم التشهير به : يجعل كل من يلقاه يسأله إياها ويحرجه بها ، وذكر السبب الذي من أجله سأله وأحرجه ، وكشف للناس وله حبال جهله ، ورسم الصورة المشوهة لعقله ! إنه سبب شريف ، وغرض نبيل ، هو كشفه أمام نفسه ، ليكف من غربه ، ويعْدِلَ عن سلوكه وقوله ، وقد ذكر ذلك في رسالته بقوله : « فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه، ونألف سبيله، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدي صفحته للحاضر والبادي ، وسكان كل ثغر ، وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها ، وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ، ليكفوا عنا من غرْبه وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به »[68] .

ومن الأسئلة التي وجهها إليه :

« حدثني : كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومذ كم مات نوح ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما حبس غراب نوح ؟ وكم لبثتم في السفينة ؟ ومذ كم كان

(67) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 191.

(68) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 118.

زمان الخنان ، ويوم السلان ، ويوم خزاز ، ورفعة البيـــا ؟ هيهات ! أين « عاد »[69] و«ثـمـــود»[70]؟ وأين «طـسـم» و«جـــديس»[71]؟ وأيـن «إمـيـم»[72] و«وبـــار»؟ وأيـن «جرهم»[73] و«جاسم»؟ ومذ كم ظهرت الجبال؟ وأين طين ما بين سفوح الجبال إلى أعـاليها ؟ من « أبـو جرهم » ؟ ومن رهط الـدجال ، وهـل تعـرف لـه شبيهـاً ؟ وأين « طـويس » ؟ وما قصـة « ابن صـائـد »[74] ؟ وممن سـوشي المنتـظر ؟ وخبـرني عن « هـــرمس » : أهـو « إدريس » ؟ أهـــو « ايليـــاء » ؟ وعن « ذي القـــرنين » : أهـــو الاسكندر ؟ ومن أبوه ؟ ومن أمه ؟ . . ومن أولاد الناس من السعالي ؟ وما القول في « هاروت » و « ماروت » ؟ وما شأن « الأربيانة » ؟ وما قصة الفأرة ، وجرم الـوزغة ؟ وما إحسان الحمامة[75] ؟ ممن كانت وإلى أي شيء صارت ؟ أأخذت براً ، أم بحراً ؟ فإن كانت بحرية : أفهي الجِرِّي ؟ وإن كانت برية : أفهي الضباب ؟ وما « أوى » ؟ وما عرس ؟ وما علة خلق الخنزير ؟ وكيف اجتمع في الذبابة سم ، وشفاء ؟ وكيف لم يقتل الأفعى سمها ؟ . . وخبرني عن الأبدال : أهم اليـوم بالعـــرج أم ببيسـان ؟ أم كـانـوا متفـرقين ؟ وخبـرني : أكلهم مـوال ، أم كلهم عـرب أم هم أخـــلاط ؟ ومن عشائرهم ، وأين دورهم ، وأين أهلوهم ؟ وكيف صارت « بيسان »[76] لسان الأرض يوم القيامة ؟! وكيف صارت كبد الحوت أول طعام أهل الجنة ؟ ولم تسمى « نوناً » ؟ وهل الرجعـة من حركتـه ، وهل الـزلزلـة من تنقله ؟ وما الخسف ؟ وكيف شـاهدت المسـخ على طول الأيـام : انقلبت خلقتهم ، أم صار ذلـك ضربـة واحـدة ؟ وهـل عاشوا ، أم أبلسوا ، أم تركـوا ثلاثـاً ثم أبطلوا ؟ . . وخبـرني عن بحار نبـطس وعن قيس ؟ وعن الأصم ؟ وعن المـظلم ؟ . وعن جبـل المـــاس ، وعن البـاكي ، وعن قاف ، وأين كنت عام الجحاف ؟ وخبرني عن الفراعنة : أهم من نسـل العمالقـة ؟

---

(69) و(70) و(71) و(72) و(73) هؤلاء جميعاً من العرب البائدة ، وهم القبائل التي هلكت ودرست آثارها ، وانقطعت أخبارها (وهي ـ عند المؤرخين ـ تسع : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، وعبيل ، وجرهم ، وجاسم ، وعمليق) .

(74) لم أعثر له على ترجمة .

(75) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 198 - 199 (وسوشي المنتظر: في أساطير المجوس ، مهديهم المنتظر ، وأنه يخرج لهم راكباً ثوراً ، فيحدد لهم في زعمهم ، دين زرادشت ، والسعالي ـ في أساطير العرب ـ يقولون إن « عمرو بن يربوع » وهو أبو فيلة من العرب ؛ أمة سعلاة ، والسعالي زعموا ، قبيلة من الجن ، والأربيان : سمـك صغير كـالدود ، ولعله « الجمبري ») .

(76) «بيسان» : بلدة بأرض الشام .

وعن العمالقة[77]، أهم من قوم عـاد[78]؟. «وخبرني: كيف صار المـاء في ابتدائـه، في أول مـا أفرغ في إنـائه: أكـان بحراً أجـاجاً؟. خبـرني: كيف صـار المـاء أبعـد من الفلك؟ ولا يكون إلاّ في بطن الأرض؟ وهو أشبه بـالهواء، كمـا أن الهواء أشبـه بالنار ؟ وخبـرني : عن عناق بنت آدم ؟ وعن « ميسـرة » و « مسرة » ؟ وعن « مهنـة » و « مهينة » ؟ وما تقول في الرجم السماوي ، أكان من عظام البرد ، أم كحجارة الطير ألأبابيل التي خلقت من سجيل ؟! وخبرني : عن « الفرات » على حقه وصدقه ؟ وعن نضوب البحر ؟ وعن تنقص الأرض ؟ ولم عمـل الفلك في هذا العـالم وليس بينهما شبـه وهلا عمل فيه بقدرة منه ؟ وهل يجوز أن يعمل شيء في شيء إلاَّ والآخر يعمل فيه ؟ وخبرني : مذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية ؟ وبعد كم بطن أسود الزنجي ، وأبيض الصقلبي ؟ ولم صار اللون أسرع تنقصاً من الجمود ؟ ولم كان الولد يجيء على شبه ما في أبيه من الأمور الحادثة في بدنه غير القديمة في أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبي قط في العرب منوناً ؟ وما هذه الخاصية التي منعت من هذا المعنى ؟ وفي كم تمت لكل فرقة ـ بعد التبلبل ـ لغتها واستفاض لسانها[79]؟.

ويتلاعب « الجاحظ » بـ « ابن عبد الوهاب » ، أو يستمر في تلاعبه به وبعقله فيواصل الهجوم عليه بـأسئلته المفحمـة ، فيقول : « واحتمـل لي مسألـة واحدة ولا أعــود ، وسـأجعلهــا طـويلة ولا أزيــد : كم بين « ود » و « سـواع » و « يغــوث » و « يعوق » ، وبين « مناة » و « العزى » ، و « الغبغب » و « عائم » ، وبين « مناف » و « تهم » ، و « سعـد » و « مهنب » ؟ ومنذ كم نكـح « أساف » « نـائلة » ؟ ومـذ كم مسخا في الكعبة؟. وخبرني: عن «برهوت» و«بلهوت» وعن «الجابية» وموضع « الـطاغية » ، وعن سيف الصـاعقة ، ومن ألقى ذلـك إلى الرافضـة ؟ وما كـان مال قـارون[80] ؟ وما كـان كنز النـطف ؟. . وما قـرط « ماريـة » ؟ ومـا أصـل مـال « ابن

---

(77) العمالقة : أقدم سكان الجزيرة العربية ، من نسل « لاوذ بن سام » أخي إرم (جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص 37) ، ويقال : إن معظم العمالقة القدماء من نسل حام بن نوح .

(78) رسائل الجاحظ : السندوبي ، ص 200.

(79) رسائل الجاحظ ، للسندوبي ، ص 201.

(80) قارون : من قوم موسى (عليه السلام) ، وقيل : كان ابن عم موسى ، وقد وردت قصته في القرآن الكريم ، كمثال على الطغيان وجحود نعمة اللّه ، وكان جزاؤه أن خسف اللّه به وبداره الأرض ، فلم ينفعه ولده ولا ماله . . .

جدعان » ، وكيف كانت مشورة أمه ؟ وخبرني : عن ذلك المال الذي من أخذ منه ندم ، ومن تركه ندم ؟ »[81] .

ثم يسترسل « الجاحظ » في أسئلته ، أو في انهياله على « ابن عبد الوهاب » بأسئلته تلك الغريبة والهازلة : « وخبرني : عن « الشق » وعن « وقواق » ، وعن النفاس وعن عنقاء مقرب ، وعن الكبريت الأحمر ، وعن نور اللّه في الأرض ؟ وما الخلقطير ؟ وما الهيكل ؟ وما الطوالق ، وما قولهم في اللبان الذكر ؟ وخبرني : ما السحر ؟ وما الطلسم ؟ وما الدنهش ؟ . وخبرني : من خانق الغريض؟ وقاتل سعد يوم النفق ؟

ومن الذي استهوى « عمرو بن عدي » ؟ ومن صاحب « عمارة بن الوليد » ؟ ومن يصرع منهم الأصحاء ؟ ومن يبرىء المرضى ؟ ويستهوي العقلاء ؟ ومن فصل ما بين الشيطان والجني ، وما بين الجِن والجن ؟ ومن طعامه الجدف[82] ؟ وعن جميع الفلز أشيء مفرغ من خلقه ، أم أرض يستحيل إليه ؟ وخبرني : عن جوهر الأرض ؟ . . . .

ولم خالف النيل جميع الوديان في النقصان والزيادة ؟

ولم بلغت جريته الشمال ؟ ولم صار أقصاه لادناه ؟ ومتى يدال منه ، ومتى يحوله الإمام[83] ؟! .

وخبرني ـ جعلت فداك ـ ! عن قولك في الشعر الذي تنشده في المنام ، مما لم تسمع بأجود منه في اليقظة ؟ . . . ولم صار بعض الناس أحفظ للنسب ، وبعضهم أحفظ للإسناد ، وبعضهم أحفظ للمعاني ، وبعضهم أحفظ للألفاظ ؟ وقل لي : لم لا تضرب السامري ؟ ولم لم تعض « ماني » وتمضه ؟ ولم لم تبزق في وجه « فرعون »[84] ؟

* * *

---

(81) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 206

(82) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 208 (والغريض: هو المغني المشهور . وسعد : هو سعد بن عبادة الخزرجي ، الصحابي . والجدف : كل طعام لا يذكر اسم اللّه عليه ، أو هو نبات يمني لا يحتاج أكله إلى شرب الماء عليه) .

(83) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 209

(84) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 227.

وهكذا كانت الرسالة ميداناً فسيحاً للتصوير الساخر ، والاستهزاء والإيجاع ، تناول فيها « الجاحظ » شخصية « ابن عبد الوهاب » فمسخها وتلاعب بها ، وصوره قزماً ضئيلاً ، ثم ألبسه رداء من أردية الكمال والجلال ، فتعثر في ثيابه ، وتردى حتى أصبح سخرية الساخرين ، وأضحوكة الضاحكين . ثم خلع عنه هذه الثياب وأظهر عوراته وعيوبه أمام الناس ، وعلى ملأ منهم ، واضحة مرئية ، محسوسة مجسمة ، وبالغ في التجسيم مبالغة ساخرة فأظهره في صورة « كاريكاتيرية » تدعو إلى الهزء ، وتستحث الساخرين على الاستمتاع بالسخرية .

إن « الجاحظ » يتلاعب به ، يرفعه ويخفضه ، ويقدمه ويؤخره ، ويدنيه ويقصيه ، ويدلله ثم يزجره ، ويتركه أخيراً هزأة الهازئين ، وأمثولة الساخرين .

وما مثله معه إلّا كقط وقع في حبائله فأر ، فهو يتلاعب به ، ويتقاذفه ، ثم يظهر الغفلة عنه ويتناساه ، حتى إذا أمن الفأر ، وتأهب للفرار ، وشرع فيه ، عاجله ذلك الصياد الماهر ، فشد حبائله نحوه ، فلا يروغ منه ، ثم يظهر له الصداقة ويمنحه الإخاء ، وطيب الصحبة ، فتقره نفسه ، ويفرغ روعه ، ثم يكر عليه بالهجوم ، ويلاحقه بالطعنات ، وذلك أشد أنواع الإيلام ، وأعنف ألوان التعذيب .

***

تلك رسالة « التربيع والتدوير » ، أول « نموذج إنساني » في الأدب العربي (فيما نعلم) يصور شخصية واقعية تصويراً ساخراً ، رسالة ارتقت بفن السخر ، وأطلعتنا على جوانب عديدة له ، وفنوناً مختلفة الألوان ، شهية الطعوم ، من اللذع والتهكم والهجاء الذي رقت به المدنية ، ولطفته الحضارة ، تعتمد على المقابلات ، وعرض المتناقضات .

نرى « الجاحظ » ـ في هذه الرسالة ـ يتناول صاحبه ، فيقلبه بين يديه : « ويبعث به قبل أن يقتله ، فإذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وغرور وحسد ، وجهل ولجاجة ، مع حسن القامة ، وعظم الهامة ، وحور العين ، وطيب الأحدوثة ، ثم يلح فيما يتناول ، ويبالغ في سرد النكتة ، ويدس السم في الدسم ، حتى تركه

صورة أو قصة تضحك القارئين ، وتعجب المتأدبين على مر العصور »[85] .

وقد عدد « الجاحظ » نفسه أغراض كتابته ، في « التربيع والتدوير » ، وبين فوائد هذا العمل الأدبي ، وأعجب به ، وارتضاه : « مع ما فيه من الأخلاط من أشكال وأضاد ومن الجد والهزل ، ومن الحظر والإطلاق ، ومن الاستئناف والقطع ،. ومن التحفظ والتضييع ، ومن التثبيت والتهاون ، إذا أريد به تقريع معجب ، أو تكسيف مموه ، أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو قمع قمار ، أو ممازحة ظريف ، أو مسألة عالم ، أو مدارسة حافظ ، أو تنبيهاً على الطريق ، أو تجديداً للذهن »[86] .

ثم شرح سبباً من أسباب تأليف هذه الرسالة ، وهو العجب فقال :٠« كنت أتعجب من كل فعل خرج من العادة ، فلما خرجت الأفعال بأسرها من العادة ، صارت بأسرها عجباً ، فبدخول كلها في باب التعجب خرجت بأجمعها من التعجب . . . . واعلم أنه لم يبق من المتعجب القائل إلاَّ نصيب اللسان ، ولا من المستمع القائل إلاَّ حصة السمع ، وأما القلوب فخاوية قاسية ، ورواكدة جامدة ، لا تسمع داعياً ، ولا تجيب سائلاً ، قد أغفلها سوء العادة ، واستولى عليها سلطان السكرة ، فدع عنك ما لست منه ، فإن فيما أورده عليك شغلاً ، وهماً داخلاً »[87] .

ويرى الدكتور « أحمد أمين » في رسالة « التربيع والتدوير » فوائد للدارس الباحث أكثر مما رآه « الجاحظ » ، ذلك أنه : « استطاع أن يجعل لها موضوعاً علمياً ، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أي الرسائل العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية ، كان يشغل الناس في عصر « الجاحظ » »[88] .

أما الدكتور « شوقي ضيف » ، فيرى أن : « الجاحظ » بلغ من سخريته بـ « ابن عبد الوهاب » ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر في اللغة العربية من سخريته بشخص من

---

(85) أحمد الشايب : الأسلوب ، 152 ، الطبعة السابعة ، مطبعة النهضة ، 1976م .

(86) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 238

(87) رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص 239 - 240.

(88) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ 3 ، مطبعة السعادة ، مكتبة النهضة ، ص 128 - 129

الأشخاص ، والطريف أنه يصل إلى ذلك ، لا عن طريق السب والشتم والقـذف ، وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لاذعة بصاحبه ، فإذا هو يحتكم معه إلى نظرية الأوساط اليونانية يستمـد منها متنـاقضاتـه . . . فإذا زاد الجسم طـولاً أو نقص قصراً ، أو اتسع عرضاً ، أصابته مساوىء الإفراط والتفريط »[89] .

أما الدكتور « طه حسين » فيقول ، مفاخراً بالرسالة ، مبيناً ابتـداع « الجاحظ » وطول نفسه : « ويكفي جداً أن ننظر في رسـالة التـربيع والتـدوير ، التي يهجـو بها الجاحظ أحمد بن عبد الوهـاب ، فستجدون هـذه الرسـالة طـويلة ، مائـة وخمسين صفحة[90] ، وهي من أولها إلى آخرها هجاء وهجاء ، لم يقصد فيه « الجاحظ » إلى الجد ، وإنما الهزل فحدثوني : أي الشاعر العربي الذي يستطيع أن يبلغ في الهجاء بعض ما بلغه « الجاحظ » في رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتفنن ما بلغه « الجاحظ » ؟ ونحن نستطيع أن نقرأ هجاء « جريـر » وهجاء « الفـرزدق » ، وهجاء الأخطل ، فلن نجد فيها شيئاً يصح أن يقاس بهذا اللون كالذي نجده في كتاب « الجاحظ »[91] .

فالرسالة ـ رسالة « التربيع والتدوير » ـ صورة واضحة لأدب الجـاحظ ، وعلمه وعقليته ، وفلسفته ، واتجاهه في الحياة .

ويستطيع الدارس ، من خلالهـا ، أن يقف على نفسية « الجـاحظ » ، وخلقه وخصاله ومعارفه ، وبراعة منطقه ، وطواعية قلمه لخلجات فكره .

وقد جمع فأوعى ، وقدح فأورى ، وأصاب فأحمى .

***

---

(89) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص 186 - 188 ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر (ونظرية الأوساط اليونانية معروفة في فلسفة الأخلاق لكن الجاحظ صورها وعدلها على أساس استخدامها في الأجسام ، فجعلها تقوم على فن المفارقة ، التي بنى عليها رسالته) .

(90) في الصفحات المحققة تبلغ الرسالة هذا العدد أما إذا لم تكن محققة فإن عدد صفحاتها لا يزيد عن خمسين صفحة إلاّ قليلاً .

(91) د. طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف بمصر ، 1965م ، ص 56 .

وإذا كان لنا أن نتعرف على أثر هذه الرسالة الفريدة في أدبنا العربي ، فإنا نلمس هذا الأثر في معارضة « ابن زيدون »[92] هذه الرسالة ، برسالته الهزلية ، تلك التي كتبها على لسان « ولادة بنت المستكفي » إلى « ابن عبدوس » تصرفه عن الطمع في حبها ، وتنبئه ببغضها له ، ودافع « ابن زيدون » إلى كتابة رسالته هذه غيرته من « ابن عبدوس » ، الذي كان ينافسه حب « ولادة » ، ويبدؤها بقوله :

« أما بعد : أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهدياً من صلتي ما صغرت منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أمثالك ، مرسلاً خليلتك . . . كاذباً نفسك إنك ستنزل عنها ، وتخلف بعدها علي » .

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل» .

(راجع رسالة « ابن زيدون » الهزلية لابن زيدون) .

ولكننا نجد أثر رسالة « التربيع والتدوير » واضحاً[93] ، بصورة أكبر ، لدى أديب آخر ، هو « بديع الزمان الهمذاني »[94] ، الذي اقتفى أثر « أبي عثمان » ، « فقد كتب

---

(92) ابن زيدون : هو أبو الوليد أحمد بن أبي بكر عبد الله أحمد بن غالب بن زيدون ، المخزومي ، الأندلسي ، القرطبي . ولد بـ « قرطبة » سنة 394هـ ، درس العلوم العربية والشرعية ، وألم بالكثير من المعارف والفنون ، وكان من الشعراء المعدودين في « قرطبة » و « أشبيلية » . وقصة حبه لـ « ولادة » مشهورة ، وكانت رسالته الهزلية على لسانها ليصرف عنها « ابن عبدوس » ، وقد نجح في صرفه عنها برسالته ، زماناً ، وإن كان ذلك قد ولد في نفس « ولادة » من المرارة ما صرفها عن « ابن زيدون » إلى الأبد . وتوفي « ابن زيدون » سنة 463هـ ، وكان قد أشرف على السبعين من عمره .

(93) لا يقتصر أثر « الجاحظ » على البديع الهمذاني من ناحية رسالة « التربيع والتدوير » فقد كان لكتاب « البخلاء » (للجاحظ) أثره في مقامات « بديع الزمان » ، لقد انتهج نفس المنهج الذي سار عليه «الجاحظ»: « انتهج المذهب الواقعي ، وصور السلوك الاجتماعي من خلال النموذج الذي تخيّره ، وهو عند « الجاحظ » نموذج البخيل ، وعند « بديع الزمان » نموذج المكدي . . . وفي جعل قصصه تدور في بلدان مختلفة ، والبراعة في تصوير حياة الناس وأكلهم ، وشربهم ، وملبسهم ومعاملاتهم . . . واستخدام الدعابة والهزل . . . الخ » (نقلاً عن د. يوسف نور عوض : فن المقامات بين المشرق والمغرب ، دار القلم ، بيروت ، لبنان 1979م) .

(94) بديع الزمان الهمذاني : يخبرنا الثعالبي (في يتيمة الدهر) أن مولد « بديع الزمان » كان في (همذان) ، ولا يحدد موعداً لتاريخ ميلاده ، غير أنه يخبرنا أن تاريخ وفاته كان في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (يتيمة الدهر جـ 4 ص 258) وانه أربى في تلك السنة على الأربعين ، مما يدل على أن ميلاده كان في بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

« الجاحظ » الرسالة (رسالة التربيع والتدوير) ينافح نزعة الغـرور والكبر . . . فنحن نجـد في نموذج « أحمـد بن عبد الـوهاب » ، الـذي أنشأ « الجـاحظ » الرسـالة من أجله ، صورة لكل مغرور يخرج عن حجمـه الطبيعي على غيـر أساس . . . ظـاهرة اجتماعية ، وهو ـ في موقف التحدي (بمسائله المائة التي أظهـر بها جهـل ابن عبد الوهاب) ـ أشبه بـ « الاسكندري » (بطل مقامات الهمذاني ، والشخصية المحورية لها) ، وذلك فيما حواه مذهبه من جنـوح إلى إظهار العلم والفصـاحة . . . وتتجلى نزعة « الجاحظ » التعليمية في نهاية رسالته ، حيث يقول :

« وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل . . الخ ، ونرى « الهمذاني » ينزع هذه النزعة التعليمية في مقاماته التعليمية ، تلك التي يستخدم فيها الأسئلة المحيرة والألغاز كما في مقامته العراقية ومقامته الشعرية . . »[95]

---

(95) د. يوسف نور عوض : فن المقامات بين المشرق والمغرب ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان ، 1979م .

الخاتمة

نتائج البحث

يتضح لنا ، من خلال هذا البحث ، أن « الجاحظ » قد عاش في مجتمعه بعين الخبير النقادة ، وفكر الحكيم الفيلسوف ، هذا المجتمع الذي كان يموج بالمتناقضات وتتعدد فيه المجالس والمقامات ، فغشى أرباب الفكر والشعر مجالس المناظرة والأدب ، واختلفوا إلى المسجد والمربد ، وتبوأت (البصرة) و (الكوفة) و (بغداد) أوج السؤدد العلمي ، وعكف أرباب البصائر على الآداب ، حتى غدا التأدب غايتهم لنيل المجد ، وازدادت حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والسريانية وعمرت قصور الأمراء والخلفاء بخزائن الكتب ، وكثر الباحثون والدارسون في مجالات العلم المختلفة ، وتنافس البصريون والكوفيون والبغداديون في علوم الدين واللغة والأدب ، وبرز قادة الفكر في كل مكان وفي كل مجال ، وسعى الموسيقيون والمغنون إلى مجالس اللهو لعرض فنونهم وتاهت بدلهن الجواري والقينات ، وتبارى ذوو النعمة في اقتنائهن ، ونعم الناس بمباهج الحياة ، وانفرط عقدهم من التصون والتزمت والتعفف ، فعبوا من نعيمها ، وكرعوا من مباهجها .

كما تعددت حلقات المناظرة والمجادلة وكثر المتندرون والفكهون ، وكان على رأسهم « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ، يعمل معوله الساخر ، بروحه المرح الطروب ، وظله الخفيف ، في مجتمعه المفعم بالتناقض ويسهم في كل منحى من مناحي المعرفة التي حفل بها عصره .

ولقد حفلت كتاباته : « بالتفاصيل النابضة بالحياة ، والتعليقات الشخصية المفيدة ، والانطباعات القوية المدلول ، إنها تشكل سجلاً عنيفاً متنوعاً لحياة

المجتمع العباسي ، نعلم بفضله كيف كانوا يعيشون في (بغداد) و (البصرة) وما كانت مواضيع أحاديثهم ، وما كانت مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ، وكيف كانت أوضاع كل حزب ، وكل فرقة ، وكل شعب .

ويزيد في قيمة هذا السجل الحي أنه عفوي يخلو من التعقيد ، ولطالما جهد « الجاحظ » أن يحلل ويعمق معطيات الأخبار البديهية ، ليتوصل منها إلى اعتبارات عامة تهم علم الاجتماع .

وقد كان له من حرية التصرف ما جعله يتخطى العرف والتقليد ، ويضع أسساً نقدية جديدة »[1] .

لقد تذوق « الجاحظ » الحياة ، وسبر أغوارها ، فأعطاها نصيبها من الهزل ، كما أعطاها نصيبها من الجد ، ليدفع شهوتها ، ويقلل من غلوائها ، وليزيل عن النفوس سأمها ومللها ، فضحك وتفكه ، وأضفى عليها من السرور والطرب ـ بمزاحه وسخره ، وملحه وظرفه ـ ما يجعلها محببة لأهلها ، مرغوبة عند أصحابها .

تناول أصحاب البزة الشاذة ، والسمت الغريب ، بالتهكم والسخر ، وكشف عوار من غربت طبائعهم ، وشذت أخلاقهم ، فجسم عيوبهم ، علهم أن يقلعوا عنها ، لتصلح بهم الحياة .

وكان كتابه « البخلاء » مسرحاً هازلاً لشخصياته التي تناولها ، وصور فيها مفارقات حياتهم ، وهو ـ في ذلك ـ المقدم المغوار الذي لم يسبقه أحد من أدباء العربية في هذا المضمار .

وخلق من السخرية فناً مستوي القامة ، وطيد الأركان ساحق البنيان ، جسمه في رسالته « التربيع والتدوير » ، التي خصها بـ « أحمد بن عبد الوهاب » .

***

ويمكن لنا الآن أن نخلص ـ من بحثنا ـ إلى النتائج التالية :

---

(1) جميل جبر : الجاحظ ومجتمع عصره ، ص 80 .

— 1 —

يعد « الجاحظ » نمطاً جديداً في النثر الفني العربي ، في أسلوبه ، وأفكاره ، وألفاظه ومعانيه ، ومنهجه وموضوعاته ، ويعتبر ، بهذا ، نقطة تحول في تطور النثر العربي .

— 2 —

كانت السخرية ـ قبله ـ نتفاً مبعثرة ، ونوادر تروى ، وحكايات طريفة تقص ، لم يكتمل لها شكلها الفني إلاَّ على يديه .

— 3 —

تناثرت السخريات في كتبه ، ولكنه أفرد لها كتاباً رائعاً يعد مادة ثرة معطاءة للتمثيل المسرحي الهازل ، وهو كتاب « البخلاء » الذي زخر باللوحات التصويرية الفنية النادرة .

— 4 —

عقل « الجاحظ » المعتزلي الفذ ، المليء بروح الدعابة والسخر ، والذي يستبطن المشاعر والظواهر والأفكار في قضاياه وفكاهاته ، هذا العقل ، قد خلق عملاً متكاملاً واسعاً في الهزل ، متتبعاً فيه بعض خصائص المسرح الضاحك (وإن لم يعرف العرب المسرح في عصره ، أو ما بعد عصره ، إلاَّ بقرون) ، ذلك العمل هو رسالة « التربيع والتدوير » فصور شخصية « أحمد بن عبد الوهاب » بفنية لم يسبق إليها في تاريخ الأدب العربي ، كنموذج إنساني يمثل الغرور ، مازجاً ، في تصويره هذا ، بين عقل الفيلسوف ، وروح الأديب .

— 5 —

كان « الجاحظ » أديباً ساخراً ، ولكن لم يكن الباعث على السخرية ، عنده ، مجرد التجريح والإيجاع ، بل كان وكده التقويم ، ودفع الملل عن النفوس والسآمة عن القلوب .

— 6 —

كان لسخريات « الجاحظ » أثرها الواضح في أدباء عصره ، وفيمن جاء بعده حتى عصرنا هذا ، فقد سار على نهجه ـ الذي ابتدعه ـ « ابن قتيبة » ، و« ابن عبد ربه » ، و« أبو حيان التوحيدي » ، و« النويري » ، و« الثعالبي » ، و« الحصري » ، و« أبو علي القالي » ، و« الوشاء » ، و« أبو المطهر الأزدي » ، و« الحسن التنوخي » ، و« الخطيب البغدادي » ، و« ابن الجوزي » ، و« ابن شهيد » ، و« ابن زيدون » ، و« الأسعد بن مماتى » ، و« أبو الحسن اليشبغاوي » ، و« يوسف الشربيني » ، و« عبد العزيز البشري » ، و« إبراهيم عبد القادر المازني » ، و« عباس محمود العقاد » ، و« طه حسين » ، و« مصطفى صادق الرافعي » ، و« توفيق الحكيم » ، و« أحمد حسن الزيات » . . . وغيرهم كثير .

— 7 —

شملت كتب « الجاحظ » الحياة بأسرها ، ولم تزل كتبه ورسائله في حاجة إلى البحث ، وما زال جانب الفن في سخرياته في حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة .

— 8 —

أدب « الجاحظ » ، وسخرياته ، من أمتع صور التحليل النفسي الدقيق التي تعتمد على دقة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، وعمق التجربة .

— 9 —

مذهب « الجاحظ » في الضحك والإضحاك يقوم على الفن الخالص الذي يمزج الحقيقة الجافة بالهزل والمرح ، ودفاعه عن الضحك لم يكن انفلاتاً من الجد ، فقد كان يرى أن للجد مقداراً وأن للمزح حداً لا ينبغي تجاوزهما .

— 10 —

من العوامل التي جعلت من « الجاحظ » أديباً ساخراً : طبيعته المرحة ، ودمامة

خلقته وقبح هيئته ، وثقافته الواسعة إلى جانب أصله ووراثته ، واختلاطه الشديد بالناس على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم ، وبيئته العباسية ، وتمرسه بالحياة ، وروحه الفنية . .

— 11 —

سخر «الجاحظ» من نفسه يؤكد أن دعابته ومزحه شيء متصل بطبعه وفنه المتميز . وأسلوبه في ذلك يمتاز - إلى جانب التفكير الدقيق - بمحاسن التعبير الأنيق والتقطيعات الصوتية الطريفة ، والموازنة بين اللفظ والمعنى ، والجدل والحوار ، والاسترسال والاستطراد ، والأخذ « بتلوين صوتي أنيق ، وتلوين عقلي بديع »[(2)] .

— 12 —

امتازت كتابات « الجاحظ » ، وسخرياته ، بالواقعية التي صور بها عصره بما فيه من جد وهزل ، في غير مداراة ولا تصنع ، وهذا يفسر خلو كتابته من التكلف والتشبيهات والاستعارات ، إلَّا ما جاء عفو الخاطر . وإيغالاً في تلك الواقعية ، نجده يحبذ حكاية كلام العوام والمولدين بما فيه من لحن ، حتى يتم التصوير للمعنى الذي إليه يقصد ، والتمثيل الصادق للفن الذي إليه يهدف .

وقد طالب بوسطية الأسلوب بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشف الألفاظ عن المعاني ، حتى تلذ الأسماع والقلوب .

وكما صور « أونوريه دي بلزاك » الفرنسي ، من خلال « المهزلة الإنسانية » (أو : الكوميديا الإنسانية) مجتمعه وعصره ، بكل دقائقه وخصائصه ، في القرن التاسع عشر ، فقد نقل إلينا « الجاحظ » واقع مجتمعه العباسي بكل سماته وخصائصه (وشياته) مستخدماً هجاءه الممعن في سخرياته ،وجدله وحواره الفلسفي ، ملتزماً أسلوب الازدواج الذي يروع القارىء بجرسه ، ويمتع الألسنة إذ ستنطق به ، والآذان حين تصغي إليه ، كما يرضي بمضامينه العقول والأفئدة .

(2) د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، مصر ، ص 162.

— 13 —

قارىء « الجاحظ » يخرج بانطباع قوي ، هو : لـو عرف « الجـاحظ » الأدب التمثيلي ، لأمدنا بالعديد من الروايات التمثيلية .

فـأسلوب « الجاحظ » حـواري ، قـائم على المنـاظـرة ، مستتبـع للحـركـات الجسـدية والمشـاعر النفسيـة ، كما تتكـامل عنـده وحدة المـوضـوع ، والـزمـان ، والمكان ، في مثل كتابه « البخلاء » ، مما حفز المستشرق الفرنسي الأستاذ « شارل بيلا» أن يترجم هذا الكتاب ترجمة كاملة إلى الفرنسيـة (1951م) وينشره تحت رعـاية هيئة (اليونسكو) (المنظمة الدولية ، للتربية ، والعلوم ، والثقافة) ، وقد نشر (في عـام 1955م) الفصـل الأخيـر من هـذا الكتـاب ، في مجلة « أرابيكـا » (المجلد الثاني) .

وقد أغرت هذه الظاهـرة أديباً عـربياً معـاصراً يعتبـره الكثير من مؤرخي الأدب والنقاد رائد المسـرح ـ والأدب المسرحي ـ في زمـاننا ، هـو الكاتب الكبيـر « توفيق الـحكـيم » ، الـــذي : « . . الـتقط طـرائـف « أشعـب بن جبير » ، من كـتـــاب « البخلاء » ، وأدار عليه مجموعة من الحواريات المسـرحية القصيـرة . . . والكتاب ذاخر بالشخصيات التي تستطيع أن تلهم أدبائنا في العصر الحديث » .

إذاً : فلو عـرف « الجاحظ » الأدب التمثيلي ـ في عصـره ـ لكان فيـه صاحب القدح المعلى ، والباع الطويل .

— 14 —

« أبـو عثمان عمـرو بن بحر الجـاحظ » دائرة معـارف وافيـة ، حـافلة بـالعلوم والآداب ، أفاد منها معاصروه ومن أتـوا بعده ، (وعلى المتخصصين ـ في عصـرنا ـ تيسير إنتاجه الأدبي والعلمي ، بتحقيق كتبه ورسائله ، وإعادة طبعهـا وإخراجهـا في ثوب قشيب . وتيسير نشرها على أوسع نطاق ممكن) .

— 15 —

قد ألمّ المرض بـ « أبي عثمان » مبكراً ، وأصيب بالفالج « الشلل » والنقرس ،

ومع هذا . . . نعم : ومع هذا ، فقد ظل « الجاحظ » قوي الذاكرة ، وافر العطاء ، فألف كتابه « الحيوان » ، وكتاب « البيان والتبيين » ، وكتاب « البخلاء » ، وكتاب « الزرع والنخيل » ، ورسالته « التربيع والتدوير » ، وغير ذلك من الكتب والرسائل الخالدة ـ في مرضه وعلته ، واستمر في عطائه ـ في نضج ، وقوة وغزارة ، حتى وافته المنية وقد أوفى على التسعين ، بل على ستة وتسعين عاماً من عمره الذي لا يقاس بالأعوام وكر السنين ! . .

الفهارس

المراجع والمصادر

1 ـ أخبار الحمقى والمغفلين ، لابن الجوزي . بيروت .

2 ـ أدب الجاحظ : حسن السندوبي ـ القاهرة ـ المطبعة الرحمانية 1931م .

3 ـ أدب العرب : مارون عبود ـ القاهرة ـ المطبعة الرحمانية ـ بدون تاريخ .

4 ـ الأدب اليوناني القديم : بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي

5 ـ الأذكياء : لابن الجوزي .

6 ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأدب : المعروف بمعجم الأدباء لياقوت بن عبد اللّه الحموي (262هـ ـ 1229م) القاهرة 1923م .

7 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير الجزري ـ القاهرة 1319هـ .

8 ـ إسلامنا : للشيخ « سيد سابق » ـ القاهرة ـ المطبعة الحديثة 1976م ـ ط 3 .

9 ـ الأسلوب : أحمد الشايب : القاهرة : مكتبة النهضة المصرية (سنة 1976م) .

10 ـ الإصابة في تمييز أسماء الصحابة : لابن حجر العسقلاني ـ القاهرة (سنة 1327هـ) .

11 ـ الأعلام : خير الدين الزركلي .

12 ـ الألفاظ الكتابية : الهمذاني . الدار العربية للكتاب (سنة 1980م) .

13 ـ الأمالي : أبو علي القالي ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ (سنة 1926م) .

14 ـ آمالي المرتضى للسيد المرتضى ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة (سنة 1907م) .

15 ـ آمالي المرتضى للسيد المرتضى : غرر الفرائد ودرر القلائد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (سنة 1954م) .

16 ـ الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي . القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . بتحقيق الأستاذين أحمد أمين ـ وأحمد الزين (1939م) .
17 ـ أمراء البيان : محمد كرد علي ـ القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1937م) .
18 ـ أنساب الأشراف : البلاذري ـ القدس (سنة 1938م) .
19 ـ البحوث الأدبية : محمد عبد المنعم خفاجي ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبناني .
20 ـ البخلاء للجاحظ : نشر دار الثقافة ـ بيروت .
21 ـ البخلاء للجاحظ : شرح أحمد العوامري وعلي الجارم ـ القاهرة مطبعة دار الكتب (سنة 1938م) .
22 ـ البخلاء للجاحظ : تحقيق طه الحاجري . القاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية (سنة 1948م) ومطبعة دار المعارف بدون تاريخ .
23 ـ البداية والنهاية : لابن الأثير ـ بيروت (1960م) .
24 ـ بلاغة الكتاب في العصر العباسي : محمد نبيه حجاب ـ القاهرة المطبعة الفنية الحديثة (1965م) .
25 ـ بلوغ الأرب : محمود شكري الألوسي : بغداد . مطبعة دار السلام (سنة 1314هـ) .
26 ـ البيان والتبيين للجاحظ : القاهرة ـ مطبعة الاستقامة (سنة 1947م) ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق عبد السلام هارون مطبعة الفتوح الأدبية (سنة 1919م) .
27 ـ البيان والتبيين للجاحظ : تحقيق الأستاذ ـ حسن السندوبي .
28 ـ تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة الدينوري : القاهرة ـ مطبعة كردستان العلمية (سنة 1326م) .
29 ـ التاج في أخلاق الملوك : للجاحظ نشره أحمد زكي القاهرة (سنة 1914م) .
30 ـ تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري ـ القاهرة (سنة 1937م) .
31 ـ تاريخ بغداد : للبغدادي ـ القاهرة ـ (سنة 1910م) .
32 ـ التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم : الخطيب البغدادي الطبعة الفاروقية (سنة 1948م) .

33 ـ التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم : الخطيب البغدادي دمشق (سنة 1346هـ) .
34 ـ تقديم كتاب الحيوان للجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون مطبعة الحلبي (سنة 1357م) .
35 ـ ثلاث رسائل للجاحظ : نشر يوشع فنكل ـ القاهرة ـ (سنة 1926م) المطبعة السلفية (سنة 1344هـ) .
36 ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي ـ القاهرة ـ مطبعة صبيح (سنة 1908م) .
37 ـ ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي : القاهرة ـ مطبعة محمد صبيح .
38 ـ الجاحظ معلم العقل والأدب : « شفيق جبري » دار المعارف بمصر (1944م) .
39 ـ الجاحظ : حنا الفاخوري ـ دار المعارف بمصر (سنة 1953م) .
40 ـ الجاحظ ومجتمع عصره : د. جميل جبر ـ بيروت .
41 ـ الجاحظ : خليل مردم ـ دمشق ـ مطبعة الاعتدال سنة 1930م .
42 ـ الجاحظ : محمد الأبراشي ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
43 ـ الجاحظ : أحمد الحوفي ـ القاهرة ـ مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر ـ بدون تاريخ .
44 ـ الجاحظ حياته وآثاره : د. طه الحاجري . دار المعارف بمصر .
45 ـ جحا الضاحك والمضحك : عباس محمود العقاد ـ نشر المكتبة العصرية ـ بيروت ـ صيدا .
46 ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر : الحصري ـ القاهرة المطبعة الرحمانية (سنة 1353هـ) .
47 ـ جمهرة الأمثال على حاشية مجمع الأمثال : أبو هلال العسكري ـ القاهرة ـ المطبعة الخيرية (سنة 1310هـ) .
48 ـ حديث الأربعاء ـ د . طه حسين ـ القاهرة (سنة 1937م) .
49 ـ حكاية أبي القاسم البغدادي : أبي المطهر الأزدي ـ هيدلبرج مطبعة كرل ونتر (سنة1902م) .

50 ـ الحيوان : للجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ مطبعة مصطفى الحلبي (سنة 1938م) .
51 ـ فريدة القصر وجريدة أهل العصر : مخطوطة بدار الكتب رقم 4255 ـ أدب ـ .
52 ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبد القادر البغدادي ـ القاهرة ـ المطبعة الأميرية ـ بدون تاريخ .
53 ـ ذوو الفكاهة في التاريخ : الأستاذ/ صادق الملائكة/ مطبعة الحلبي . بدون تاريخ .
54 ـ ذيل الأمالي والنوادر : أبو علي القالي .
55 ـ رسائل الجاحظ : جمع ونشر الأستاذ/ حسن السندوبي ـ القاهرة ـ المطبعة الرحمانية (سنة 1933م) .
56 ـ زهر الآداب وثمر الألباب : الحصري ـ القاهرة ـ المطبعة الرحمانية ـ بدون تاريخ .
57 ـ ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد ـ القاهرة ـ دار الهلال .
58 ـ سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون : جمال الدين ابن نباتة . طبع القاهرة .
59 ـ سلسلة أعلام العرب : القاهرة ـ عبد العزيز البشري ـ دكتور . جمال الدين السرمادي .
60 ـ سمط اللآلىء .
61 ـ سنن الترمذي .
62 ـ سنن أبي داود .
63 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن عماد الحنبلي ـ القاهرة (سنة 1350م) .
64 ـ صبح الأعشى : القلقشندي ـ القاهرة ـ المطبعة الأميرية (سنة 1913م) .
65 ـ صفوة التفاسير ، الشيخ محمد علي الصابوني طبع دار القرآن الكريم ، بيروت (سنة 1400هـ ـ 1980م) .
66 ـ الصداقة والصديق : أبي حيان التوحيدي ـ القاهرة ـ (سنة 1323هـ) .
67 ـ الضحك : هنري برجون ترجمة سامي الدروبي وآخرون ـ القاهرة ـ دار الكاتب المصري (سنة 1948م) .

68 ـ ضحى الإسلام : أحمد أمين ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1943م) .
69 ـ الطبقات الكبرى : لابن سعد ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة الثقافة الإسلامية (سنة 1358هـ) .
70 ـ الطرائف الأدبية : نشر عبد العزيز الميمني مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1937م) .
71 ـ العصر العباسي الأول : دكتور ـ شوقي ضيف ـ القاهرة ـ دار المعارف بمصر .
72 ـ العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ـ القاهرة ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ .
73 ـ عصر المأمون : أحمد فريد الرفاعي ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية (سنة 1927م) .
74 ـ العقد الفريد : لابن عبد ربه ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1942م) .
75 ـ عيون الأخبار : ابن قتيبة ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية (سنة 1925 م) .
76 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة ـ بيروت (سنة 1957م) .
77 ـ الغيث المجسم في شرح لامية المعجم ـ للصفدي 1305هـ ـ المطبعة البولاقية .
78 ـ الفاشوس في حكم قراقوش : ابن مماتي ـ المطبعة البولاقية (سنة 1276هـ) .
79 ـ فجر الإسلام : أحمد أمين ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1945م) .
80 ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : لابن الطقطقي ـ محمد بن علي بن طباطبا ـ القاهرة ـ (سنة 1345م) .
81 ـ الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادي ـ القاهرة ـ مطبعة دار المعارف (سنة 1910م) .
82 ـ فقه اللغة : الثعالبي ـ ليبيا وتونس ـ الدار العربية للكتاب .
83 ـ الفكاهة في الأدب العربي : دكتور أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة .
84 ـ فلاسفة وصعاليك : مخطوط . الأستاذ/ محمد فهمي عبد اللطيف .
85 ـ فن الشعر : أرسطو. ترجمة عبد الرحمن بدوي ـ القاهرة (سنة 1953م) .

86 ـ فن القصص في كتاب البخلاء : محمد المبارك ـ بيروت .
87 ـ فن القصص في كتاب البخلاء : محمد المبارك ـ دمشق ـ دار الفكر .
88 ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي : د . شوقي ضيف ـ القاهرة ـ دار المعارف . الطبعة الثامنة .
89 ـ الفهرست : ابن النديم ـ ليزج (سنة 1872م) .
90 ـ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي .
91 ـ في الأدب المقارن : محمد غنيمي هلال ـ القاهرة ـ مطبعة مخيمر (سنة 1953م) .
92 ـ في علم النفس : الأساتذة/ حامد عبد القادر ، محمد عطية الأبراشي ، ظهر سعيد .
93 ـ فيض الخاطر : أحمد أمين ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1943م) .
94 ـ القاموس المحيط : ترتيب طاهر الزادي ـ ليبيا وتونس ـ دار الكتاب العربي .
95 ـ القرآن الكريم .
96 ـ قصة الفلسفة اليونانية : أحمد أمين ، زكي نجيب محمود ، القاهرة (سنة 1935م) .
97 ـ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ـ بيروت (سنة 1966م) .
98 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة ـ القاهرة ـ المطبعة البولاقية (سنة 1274هـ) .
99 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة طهران (سنة 1378هـ) .
100 ـ اللباب في تهذيب الأنساب : لابن الأثير ـ القاهرة (سنة 1357هـ) .
101 ـ لسان العرب : لابن منظور : القاهرة (سنة 1355هـ) .
102 ـ لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني ـ المصري ـ طبع في حيدر أباد (سنة 1330هـ) .
103 ـ مجموعة الألف كتاب : تصدر عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .
104 ـ مجموعة رسائل الجاحظ : للجاحظ : القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة 1324هـ) .

105 ـ المحاسن والأضداد : للجاحظ ـ القاهرة (سنة 1324هـ) .
106 ـ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار : محيي الدين بن العربي ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة (سنة 1906م) .
107 ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء : الأصفهاني ـ بيروت (سنة 1961م) .
108 ـ مختار الأغاني في الأخبار والتهاني : ابن منظور ـ تحقيق عبد العليم الطحاوي ـ القاهرة (سنة 1966م) .
109 ـ المختار ـ عبد العزيز البشري جزءان طبع الأول (سنة 1935م) والثاني (سنة 1937م) القاهرة .
110 ـ المختار ـ عبد العزيز البشري ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ـ بدون تاريخ .
111 ـ المختار ـ من كلام أبي عثمان الجاحظ ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 5031 ـ أدب .
112 ـ مختار الصحاح ـ الرازي ـ بيروت ـ دار الفكر (سنة 1972م) .
113 ـ مختار فصول الجاحظ : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1129 ـ أدب .
114 ـ المخصص لابن سيده ـ القاهرة ـ المطبعة المصرية .
115 ـ مرآة الزمان في وفيات الفضلاء من الأعيان : سبط ابن الجوزي ـ تصوير دار الكتب المصرية .
116 ـ مروج الذهب ـ المسعودي ـ القاهرة ـ مطبعة دار الرجاء بدون تاريخ ومطبعة دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت (سنة 1981م) الطبعة الرابعة .
117 ـ المزهر ـ السيوطي ـ طبعة الحلبي .
118 ـ المزهر ـ للسيوطي ـ القاهرة ـ المطبعة المصرية (سنة 1882م) .
119 ـ المستطرف في كل فن مستظرف : الأبشيهي ـ القاهرة ـ (سنة 1314هـ ـ 1935م) .
120 ـ المسرحية ـ عمر الدسوقي ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة البيان العربي (سنة 1954م) .
121 ـ مضحك العبوس (مجموعة آداب وحكايات ونوادر) لم يعلم مؤلفه .
122 ـ معجم الأدباء (ياقوت الحموي ـ القاهرة ـ مطبعة دار المأمون ـ بدون تاريخ تحقيق الدكتور أحمد الرفاعي) .
123 ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة .

124 ـ المقابسات : أبو حيان التوحيدي ـ القاهرة ـ المطبعة الرحمانية ـ (سنة 1929م) .
125 ـ مقدمة في النقد الأدبي : د. علي جواد الطاهر ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر طبعة أولى (سنة 1939م) .
126 ـ مقدمة في النقد الأدبي : د. علي جواد الطاهر ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .
127 ـ مكتبة الجاحظ : بحث لعبد السلام هارون في صحيفة دار العلوم ـ العدد الرابع ـ السنة التاسعة ـ القاهرة ـ ابريل (سنة 1947م) .
128 ـ المنتخب في أدب العرب : طه حسين وآخرون ـ القاهرة ـ دار المعارف .
129 ـ المنية والأمل : للمرتضى ـ القاهرة (سنة 1907م) .
130 ـ النثر الفني : زكي مبارك ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية (سنة 1934م) .
131 ـ النثر الفني : د. عبد الحكيم بلبع ـ القاهرة ـ لجنة البيان العربي (سنة 1964م) .
132 ـ نزهة النفوس ومضحك العبوس : ابن سردون ـ القاهرة ـ مطبعة ابن هندية بدون تاريخ .
133 ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : ـ الحسن التنوخي ـ القاهرة ـ مطبعة ابن هندية (سنة 1921م).
134 ـ نكت الهميان في نكت العميان : صلاح الدين الصفدي ـ تحقيق أحمد زكي باشا ـ القاهرة ـ الطبعة البولاقية .
135 ـ نهاية الأرب في معرفة فنون العرب : النويري ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية (سنة 1924م ـ 1935م) .
136 ـ النوادر في اللغة : لأبي زيد سعد بن أوس بن ثابت الأنصاري ـ بيروت (سنة 1864م) .
137 ـ هز القحوف بشرح قصيدة أبي شادوف : يوسف الشربيني ـ القاهرة ـ المطبعة المصرية ـ بدون تاريخ .
138 ـ الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي .
139 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ طبعة دار الثقافة بيروت (سنة 1969م) تحقيق الدكتور إحسان عباس .
140 ـ يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر : للثعالبي ـ القاهرة (سنة 1352هـ ـ 1934م) .

فهرس الأعلام

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس الدول والشعوب

فهرس المدن

فهرس الأماكن

فهرس الأنهار

فهرس الفرق والمذاهب والمدارس

فهرس الكتب السماوية

فهرس الطوائف

فهرس القبائل

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الباب الثالث
رسالة التربيع والتدوير
(تصوير أدبي لنموذج إنساني)